مروان ياسين الدليمي
اكتشاف الحب
أوراقٌ من مدونتي الشخصية
رواية
دار نينوى

اكتشافُ الحبِّ

أوراقٌ من مدونتي الشخصية

رواية

مروان ياسين الدليمي

عنوان الكتـــاب: اكتشافُ الحبِّ - أوراق من مدونتي الشخصية
اســـم المؤلـــف: مروان ياسين الدليمي
الموضـــــــوع: روايـــة
عدد الصفحات: 232 ص
القيـــــــــاس: 14.5 × 21.5 سم
الطبعـة الأولى: 500 /كانون الثاني 2020 م - 1441 هـ
ISBN: 978-9933-38-267-4

© جميع الحقوق محفوظة لدار نينوى
Copyright ninawa

دار نينوى
للدراسات والنشر والتوزيع

سورية - دمشق - ص ب 4650
تلفاكس: 2314511 11 963+
هاتـــف: 2326985 11 963+

E-mail: info@ninawa.org
ninawa@scs-net.org
www.ninawa.org
دار نينوى للدراسات والنشر والتوزيع
Ayman ghazaly

العمليات الفنية:
التنضيد والتدقيق والإخراج والطباعة - القسم الفني: دار نينوى

لا يجوز نقل أو اقتباس، أو ترجمة، أي جزء من هذا الكتاب،
بأي وسيلة كانت من دون إذن خطي مسبق من الناشر.

بعد ثلاثين يومًا على رحيله المفاجيءعن الحياة، تجرَّأتْ على أن تفتح باب غرفته وتدخلها لأول مرة، وأمام السكون الذي كان مخيّمًا على أرجائِها لم يكن مفاجئًا لها أنها شعرت بانحلال في قدراتها البدنية لأنها كانت تتوقع سقوطها في حالة شعورية يختلط فيها الإحساس بالفقدان مع الرهبة حتى أن توازنها اختلَّ للحظة، فمالت قليلًا إلى الجانب الأيمن حيث كانت تقف بالقرب من الباب وكادت تسقط، لولا أنها أمسكت بالحافة العليا لخزانة خشبية تضم خمسة جوارير لحفظ الملابس الداخلية والجواريب والقمصان، ما كان يمنعها من الإقدام على هذه الخطوة،عدم ثقتها بنفسها من أنها سوف تكون قادرة على أن تحتمل المزيد من الشعور بالحزن، لأن فراقه سدد لها ضربة موجعة كانت أبعد ما تكون عن توقعاتها، حتى أنها بدت تائهةً وهي تدير شؤون المنزل، ولم تعد قادرة على أن تتحكم بمشاعرها، وأصبحت الدموع متحفزة في مآقيها ما أن يلمس صدى صوته شغاف قلبها أو تمرُّ صورته في ذاكرتها، فكيف إذا ما كان طيفهُ حاضرًا في كل زاوية من زوايا البيت، بمرحهِ وأحاديثه وعبارات الغزل التي كان مسرفًا في نثرها عليها طيلة حياتهما معًا؟.

كانت غرفته بمثابة ملاذه الآمن، وكلما آوى إليها واحتوته بين جدرانها استعاد كيانه الإنساني، فقد كان مولعًا حتى آخر لحظة من حياته في نحت الوقت على مقاس شغفه بعالم الكتب، فيمضي ساعات طوال تصل به إلى ما بعد منتصف الليل ما بين القراءة والكتابة وهو جالس خلف مكتبه المركون في الزاوية البعيدة المواجهة للباب، أمَّا من جانبها هي فلم تكن تفكر في أن تقتحم عزلته إلا إذا كانت مضطرة للاستفارعن أمر مهم يتعلق بشؤون البيت .

في الأيام التي أعقبت رحيلهِ كانت تبذل جهدًا نفسيًا كبيرًا لكي تتفادى النظر إلى باب الغرفة، في محاولة منها لإيهام نفسها بأنه ما يزال جالسًا في مكانه المعتاد.

لم تستطع أن تحبس دموعها التي انزلقت على خديها ما إن نظرت إلى الزاوية التي يقبع فيها مكتبه، فما يزال كل شيء منتهيًا إلى مكانه الذي تركه

عليه قبل أن تنطفىء روحه: اللابتوب، مكتبته العامرة بالكتب، نظارته الطبية، والكأس الزجاجي بلونه الأبيض الشفاف الذي اعتاد أن يحتسي الشاي به، وكيف لها أن تنسى إصراره على شرائه أثناء إحدى الزيارات التي قاما بها إلى سوق المواد المستعملة، بعد أن أثارت انتباهه صورة الزعيم الأفريقي نيلسون مانديلا مطبوعةً عليه.

جلست على كرسيه وتلمست بأناملها سطح المكتب بحركة بطيئة، على الرغم من الغبار الذي تراكم عليه، فتولَّد لديها إحساس كما لو أنها كانت تتواصل مع روحه التي لم تفارق أي شيء ارتبطت معه بعلاقة حميمة.

فتحتْ اللابتوب وضغطت على زر التشغيل.. تنبهتْ الى وجود مِلف (وورد) مخزون على سطح الشاشة، بعد أن سطع ضوؤها، وكان يحمل عنوان: اكتشافُ الحبِّ..أوراقٌ من مدونتي الشخصية.

ترددتْ قبل أن تفتح الملف بعد أن استيقظ في داخلها إحساس غامض جعلها مرتابة مما يمكن أن يخبِّأهُ من مفاجأة، خاصة وأنها ما تزال حتى تلك اللحظة غير مستوعبة لفكرة غيابهِ المفاجىء، لأنه لم يكن يعاني من أي مشاكل صحية.

كم كانت تتمنى بينها وبين نفسها أن يودِّعَا الحياة معًا إذا ما جاء الأجل المحتوم، لا أنْ يموت أحدهما قبل الآخر، لكنه وبشكل خاطف طوى رحلته في الحياة ومن غير أن يثير أي ضجة، ولم يخطر في بالها أن صباح يوم الأحد، الثامن من شهر أيلول من العام 2020 سيحفر ذكراهُ مثل جرح عميق في ما تبقى من حياتها، وأكثر ما كان يوجعها أنه غادر دون أن يودعها، لأنها وطيلة سبعة وعشرين عامًا من حياتهما الزوجية كان حريصًا على أن يُسمعها أجمل الكلمات، تعبيرًا عن محبته لها .

فلماذا إذن تركها ومن غير أن يقول لها ولو كلمةً واحدة !

طيلة الأيام الماضية كانت تتساءل مع نفسها عمّا كان يشعر به قبل أن يتوقف نبضه؟ وبماذا كان يفكر؟ وهل كان لديه ما يودُّ أن يقوله؟

لم يغب عن بالها أن وضعه النفسي في أيامه الأخيرة لم يكن يدعو إلى الاطمئنان من بعد أن تم تسريحه من العمل، وقد تزامن ذلك مع اجتياح فيروس كورونا لمعظم دول العالم، حينها أدرك صعوبة العثور على فرصة جديدة للعمل في أي مؤسسة إعلامية، خاصةً وأنه قد تجاوز العقد السادس من عمره، ولهذا كان يشعر بالانكسار، وأن الحياة أشاحت بوجهها عنه، فمال إلى العزلة، حتى أنه لم يعد يبدي أي تفاعل مع الأحداث العامة، ولم يكن يؤرقه سوى الإجابة عن سؤال واحد كان يطرحه على نفسه: "كيف سأواجه الأيام القادمة إذا لم أعثر على عمل؟"، وعندما كان يدور الحديث عن المحنة المعيشية التي وصلوا إليها، لاحظتْ عليه أنه كان يوجه اللوم إلى نفسه فقط، حتى أنه في صباح أحد الأيام وبينما كانَا يتناولان طعام الفطور، قال جملة لم تكن تتوقعها منه: "لماذا حرّم الدين الإسلامي على المسلم أن يختار ساعة موته إذا ما وجد حياته باتتْ عبئًا عليه وعلى أحبائه؟.. "

بينما كانت جالسة أمام شاشة اللابتوب تنظر إلى الملف، فكَّرَت بما يمكن قد سطَّره في داخله، والسؤال الذي ظلَّ يلحُّ عليها: "ما لذي أراد أن يقوله في هذه الأوراق؟ ."

بقي السؤال يدور في رأسها، ومع ذلك لم تكن تجرؤ على أن تفتح الملف خشية أن تكون هناك مفاجأة لا تحتمل نتائجها، رغم أنها في قرارة نفسها كانت على يقين من أن لا أسرار تجهلها في حياته، لأنه كان يبوح لها بكل ما كان يعنُّ في داخله من هواجس.

همست لنفسها بأن تكون مستعدة لكل الاحتمالات، وأن تنتهي من دوامة الأفكار التي تلبَّستها.. وجَّهت سهم الماوس ليستقر فوق أيقونة الملف، ثم ضغطت عليه.. وما أن انفتح حتى بدأت في القراءة.

اكتشافُ الحبِّ

أوراقٌ من مدونتي الشخصية

الانسان ليس خيالًا عابرًا

1

ثمَّةَ ما يثير القلق

" لا تكوني على هذه الدرجة من القلق، ومع ذلك، أرجو أن تطمئِني بأن يوم غدٍ سيكون لنا موعدٌ مع الطبيب".

كانت تلك الإجابة بغاية السخف وبعيدةً تمامًا عما كانت تنتظره وهي على ما هي عليه من حالة الهلع التي أصابتها حتى بدَا وجهها شاحبًا وجسدها يرتعش، ولهذا ارتفعت درجة عصبيتها، وبَانَ ذلك في حدة صوتها وهي تُصِر على أن نذهب عصر نفس اليوم إلى طبيب مختص، وليس في اليوم التالي مثلما كنت أرغب.

عِشرتنا الطويلة التي تمتد إلى ما يقرب من ربع قرن إضافة إلى ذكائها كان ذلك كافيا لأن يمنحها ميزة قراءة ما يدور في رأسي من أفكار من غير أن أنطق بحرف واحد، حتى لو تسترتُ بأقنعة لا تعكس ما يدور في داخلي من هواجسَ ومشاعرَ، فأنا أمامها ممثلٌ فاشل لا يستطيع أن يتقمص شخصية أخرى، مع أنني احتفظ بتاريخ مشرقٍ في عالم التمثيل يحسدني عليه كثير من الممثلين، بعد أن نجحت في تقديم أدوار مُركَّبة مثلتها طيلة فترة الشباب وصولًا إلى المرحلة التي تألقت فيها بعدد من العروض المسرحية أثناء دراستي للمسرح في كلية الفنون الجميلة، ولهذا كنتُ على يقين من أنها قد أدركت بأني لمْ استوعب حقيقة مخاوفها ولم ينل مني حديثها ما يستحقه من اهتمام، ورغم ثقل الهم الذي أصابني فجأة، حاولت بكل ما استطيع أن أتحايل على مشاعري المضطربة حتى أبدو هادئًا أمامها ما أنْ أفصَحتْ عن سبب قلقها، حيث اكتشَفَتْ بنفسها قبل ثلاثة أيام وجود انتفاخ صغير في ثديها الأيسر بحجم حبة العدس، وفي حديثها معي الذي كان أقرب إلى الهمس، أخبرتني عن فشل المضادات الحيوية التي تناولتها لغرض معالجته، ولهذا أصرّت على أن آخذها إلى طبيب مختص بالأورام والغدد اللمفاوية.

انتظرتُ ما يقرب ساعة من الزمن قبل أن تنتهي طبيبة السونار من الفحص، كنت خلالها جالساً في صالة انتظار المراجعين وشعور بالاستسلام قد تلبَّسني تماماً مثل سجين اقترف جرماً وينتظر صدور الحكم عليه ليقضي ما تبقى من حياته خلف القضبان، أخذتني دوامة من الأفكار المشوّشة إلى مناطق بعيدة من الذاكرة تنقلت فيها بشكل عشوائي في أزمنة مختلفة من حياتي، واحتفَظَتْ بعض المشاهد المُستعادة بقدرتها على المناورة، فكانت تختفي ثم تعاود الظهور مرة أخرى، مثل رؤيتي لها أول مرة في بيتهم عندما تقدمت للزواج منها، وحديث صديقي فريد عن ضرورة الزواج بعد أن تعديت العقد الثالث من عمري، وأنها قادرة على أن تمنحني الاستقرار والاطمئنان اللذين أبحث عنهما، لأنها من عائلة محافظة، وستجعلني قادرًا على أن أستعيد توازني النفسي وتطرد ما تراكم في نفسيتي من بقع موحشة بسبب الشعور بالوحدة والتقدم في العمر، ومثل هذه الانعكاسات المشعة لمشاهد من حياتي الماضية تؤكد لي على أن بعض الذكريات من الصعب أن تفقد بريقها أو تمحى تفاصيلها مهما ابتعدت بنا عجلة الأيام وأخذتنا مع غبارها إلى محطاتها المتناثرة في صحراء الحياة، لفت انتباهي وجود عديد من النساء ينتظرن موعد دخولهن للفحص، ولم يكن من الصعب على شخص مثلي حين ينظر في وجوههن أن لا يكتشف ملامح قهر حادة التفاصيل لا علاقة لها بما يعانين منه من أمراض، بل كانت تلك الملامح تشي بقصص مرعبة، لم يخطر على بالي أن أتعمَّد استراق السمع لما يتحدثن به في ما بينهن، لكن ما دفعني إلى محاولة معرفة فحوى حديثهما أن إحداهن توقفت عن الكلام بعد أن غلبتها دموعها التي فاضت بها عيناها، في البدء لم أتأكد بالضبط من أي مدينة قد جئن منها، لكني تيقنت من خلال اللهجة أن المرأة الشابة التي بكت من مدينة الفلوجة، أما الأخرى فقد سمعتها تقول إنها من قضاء الدُّور التابع لمدينة تكريت، وبينما هنّ مستمرات في تبادل الذكريات بشكل متقطع وبإيقاع بطيء كنتُ أحاول إحالة كلماتهن إلى مخيلتي لتعيد تركيب وترتيب الأحداث التي مرت بهن بعد أن استولى تنظيم داعش على المدن التي جئن منها، مع تركيز

شديد أثناء عملية التخيّل على أن تكون صور العنف والقتل التي أحاطت بهن واقعية دون مبالغة أو تعديل في وحشيتها.

ليس شجاعة مني، بل هو شعور أقرب إلى الانهيار كان قد دفعني إلى أن أمارس الخديعة ضد احساس مؤلم بات يسلحني إلى حيثما يريد ما أنْ ظهرت زوجتي خارجة من غرفة الفحص الخاصة بجهاز السونار وهي تحمل بيدها الصورة الإشعاعية، لحظتها انتبهت إلى شدة احمرار عينيها، وكأنها كانت تبكي طيلة يوم كامل، وبدت عاجزةً عن السير فاحتويت كتفيها بذراعي اليسرى وجعلتها تستند عليّ حتى تتمكن من السير، ولمَّا سالتها عن النتيجة ردَّت بصوت واهن يقطعه صوت بكائها: "يوجد ورم صغير جدًّا، ولكن لا يعرف ما إذا كان خبيثًا أم حميدًا وهذا ما سيحدده الطبيب المختص"، حاولت أن أخفف عنها وأرفع من معنوياتها التي انخفضت إلى درجة الصفر وقلت لها بان من الممكن أن يكون الورم حميدًا، ولابد أن تتفاءلي، ولم تكن عيادة الطبيب المختص تبعد سوى بضعة أمتار عن عيادة السونار.

خيم صمت ثقيل على أرجاء عيادة الطبيب، حتى إنني شعرت بانحسار الهواء منها، حاولت أن أنتزع من ملامحه إجابة ترضيني وتبدد ما أشعر به من قلق بعد أن انتبهت إلى أنه لم يعد محتفظاً بتلك البشاشة التي كانت ترتسم على وجهه عند دخولنا عيادته، لم يكن من الصعب أن ألاحظَ مدى الجهد الذي بذله حتى يجد كلمات مناسبة ليس لها وقع قاس على كلينا، أعاد النظر مرة أخرى في الصورة الإشعاعية الموضوعة أمامه على مكتبه، فبدأ شبه تائهٍ لا يعرف من أين يبدأ، طيلة الأعوام العشرين الماضية من حياتي الزوجية كنت أحسد نفسي على ما أشعر به من إحساس قوي بالسعادة رغم إدراكي بأنَّ مستواي المعيشي أقرب إلى الفقر منه إلى حالة الاكتفاء، إلَّا أن هذه الحياة بإيقاعها الهادئ اهتزت فجأة مثل غصن يابس أمام ريح عاتية، كان الزمن يجري سريعا مثل قطيع خيول هائجة وهي تركض بقوة هائلة ناهبةً الارض بحوافرها، بينما أنا كنتُ أقف على أرض رخوة وقدماي تنغرسان في رملها الذي تزداد حركته نحو الأسفل كلما حاولت الخروج من

هذا المأزق قبل أن تصل الخيول وتسحقني، بعد مضي عدد من الثواني لم يجد الطبيب مفرًا من أن يرفع رأسه وينظرَ نحونا، حينها وجدت نفسي كما لو أنني أجلس أمام شخص يخرج من تحت الأنقاض بهيئة موحشة، خاطبنا بصوت خفيض يحمل نبرة مواساة وتشجيع في آنٍ: "من خلال الأشعة، واضحٌ أنكِ في المراحل الأولى من المرض"، زوجتي التي تجلس على كرسي بجانبي، بعد أن كانت قد غادرت سرير المعاينة الموجود خلف ستارة بيضاء، ما أنْ سمعت ما قاله وجدتُها تحني رأسها إلى الأسفل، لم تستطع أن تمنع نفسها من البكاء بصمت، لكني شعرتُ به أشبهَ بنحيبٍ حارق يتردد صداه في أرجاء العالم كله.

في أيامي التالية بلياليها شعرتُ وكأن سكينا تنغرس في صدري بعد أن وجدتُ كل خيارات النجاة قد تلاشت من أمامي، وهذا الإحساس كان يتصاعد حِدَّةً كلما رأيت ابني جالسا لوحده وهو يحدق في نقطة بعيدة جدًّا تستقر عند فراغ لا حدودَ له، يبدو فيها كما لو أنه يحاول أن يستجلي ما تخبئه الأيامُ القادمة من أحداث ومفاجآت، وأنا أدركُ تماماً قسوةَ التجربة عليه ربما أكثر مني لأنه لم يزل صغيرًا حيث لم يتجاوز السنة الخامسة عشرة من عمره، إضافةً إلى أنه الابن الوحيد، والعلاقة بيننا نحن الثلاثة كانت تحمل بين تفاصيلها ينابيع من مشاعر الألفة والمحبة والتلاحم ما جعلت حياتنا في العراق خارج مدار الخوف الذي يفرغ وحشته في كل زاوية منها خاصة بعد العام 2003.

جثوت على ركبتيّ أكثرَ من مرّةٍ ووجهي نحو السماء، أناشد اللهَ أن يحتويني برحمته الواسعة، رغم أني لم أكن في يوم ما ملتزماً بشعائر الصلاة، ولكن الضعف الذي يشعر به الإنسان في ساعة المحنة يقوده في أغلب الأحيان إلى طلب الرأفة من الله بعد أن يتمكن منه القنوط، أعترف بأني لا أملك قوة داخلية كافية تجعلني قادرًا على أن أحتمل رؤية إنسان يتألم، فأنا هش جدًّا في هذه الناحية، فكيف بي وأنا أمام رفيقة عمري؟.

كان الوقت مساءً عندما غادرنا عيادة الطبيب واستقلينا سيارة أجرة، ونحن في طريق عودتنا إلى البيت، بدَت شوارع أربيل طافحةً بحياة ناعمة،

توّجَتْها أضوية ملونة كانت تصدر من محلاتها العامرة بالبضائع وبحركة الناس، بينما خيم صمت ثقيل علينا، حتى إن السائق بفطنته المهنية انتبه إلى ذلك، فما كان منه إلاّ أن مدَّ يَده وأطفأ جهاز التسجيل الذي كانت تنبعث منه أغنية كوردية لم أستطع فك شفرات مفرداتها إلاّ أن إحساسا قوياً تولّد في داخلي جعلني أتيقن من أن كلماتها تتحدَّث عن الحب واللوعة والفراق بين المحبين، ورغم جلوسي في المقعد الأمامي إلى جانب السائق إلَّا أني كنت أشعر بسخونة الدمع وهو يسيل على خديها بينما هي تجلس في المقعد الخلفي للسيارة.

في تلك الليلةِ لم يغمض لنا جفن، كنّا ننتظر الفجر لعله يوقظنا من هذا الكابوس الذي جثم علينا فجأة، استعدتُ مشاهد كثيرة من حياتي وأنا أنظر إلى سقف الغرفة وسط الظلمة، واكتشفت بأن حبي لزوجتي كان ينمو ويكبر مع مرور الأيام والأعوام، لأني تزوجتُها بطريقة تقليدية، ولم تكن بيننا علاقة حب، ولا تربطني بها صلة قربى، وليس بيني وبينها سابق معرفة، لكن القدر شاء أن نرتبط معاً، وما زلت أذكر جيدًا اليوم الذي ذهبتُ فيه لخطبتها بصحبة أمي وخالتي الصغرى، حينها شعرت بالاطمئنان ناحيتها ما أن دخلتْ إلى غرفة الضيوف بعد أن نادت عليها والدتُها أكثر من مرة، فجلست قبالتي إلى جانب والدتها، ومن شدة حيائها لم ترفع رأسها طيلة فترة جلوسها، واستطيع القول وللمرة الألف وهذا ما اكدته لها مرارًا وتكرارًا أثناء أحاديثنا ونحن نستعيد تفاصيل اليوم الذي تمت فيه خطوبتنا بأن "البونط الأبيض" أول ما لفت انتباهي إليها، ولم يكن سوى شريط من القماش القطني كانت تربط به شعرها بما يشبه الطوق، ولربما ما كان ممكنا ان يحصل النصيب ونجتمع معا تحت سقف واحد، لو لم يكن البونط يربط شعرها آنذاك ويُظهر لي وبوضوح ما تحمله في طبعها من رقة وهدوء وصبر وحكمة.

أحيانًا تقودك مشاعرك في لحظة ما إلى اكتشاف جوهر الأشياء من غير أن تخوض تجربة فعليّة لمعرفة حقيقتها، وغالبا ما يحدث العكس في هذه الحياة

إذ تتسبب بسقوطك في تجارب قاسية مع أشخاص أوهمَتك مشاعرُك في معرفة حقيقتهم وظننتهم أصدقاء، ليتضح في ما بعد أنهم أعداء، ويضمرون لك من الكراهية ما تعجز عن تفسير أسبابها أنا شخصيا مررتُ بكلا التجربتين، إلا أن الصدمات والمفاجآت غير السارة كانت هي الأكثر حضوراً، وما زلت غير قادر على معرفة الدوافع التي تجعل البعض ممن كنت أحسبهم أصدقاء يضمرون في داخلهم مشاعر حقد تجاهي، مع أني لم أتورط في يوم ما بأي عمل القصد منه الإساءة لأي إنسان أو تشويه سمعته أمام الآخرين، وهذا لا يعني تنزيهًا مطلقًا لشخصي حتى أبدو مثل الملاك، فأنا مثل غيري من البشر دخلت في خلافات مع آخرين، بينهم أقارب ومعارف وأصدقاء وزملاء عمل، ووصل الخلاف في بعض الحالات إلى الاشتباك بالأيدي، لكني لم ألجأ أبدًا إلى الطعن في سمعة من تقاطعت معهم أو الإيقاع بهم، أكثر ما أتعبني في حياتي أن ملامحي كانت دائما ما تدفع مَن لا يعرفني عندما يلتقيني أولَ مرة إلى أن يتشكل لديه انطباع بأنه يقف أمام شخص لا يبعث على الثقة والاطمئنان، وعلى الأغلب أبدو لئيمًا وحقيرًا وغير مؤتمن، وهذا ما أكده لي عدد لا بأس به من الأشخاص الذين تعرفت عليهم وأصبحُوا في ما بعد من أصدقائي المقربين، معظمهم اتفقَ في رأيه على أن طبيعتي التي تميل إلى التزام الصمت وعدم الثرثرة تُشعر الآخرين بأني شخص غامض، يبعث على الالتباس، فتزداد المسافة بعدًا بينهم وبيني، وكم ساءني هذا الانطباع الخاطئ عني، وأفقدني الكثير من فرص العمل والعلاقات مع أشخاص كنت أرجو أن يكونوا ضمن قائمة أصدقائي، ولا أعرف في ما إذا كان هناك الكثير من الأشخاص قد مرُّوا بنفس تجربتي.

زميلي وصديقي المدرس في معهد الفنون الجميلة فريد الذي كان يسكنُ في نفس الحي الذي تسكن فيه عائلةٌ على صلة قربى وثيقة بعائلة زوجتي، بقيتُ أحمل له في داخلي مشاعر الامتنان، لأنهُ كان سببًا في زواجي منها، فهو الذي اقترح عليّ بان أتقدم لخطبتها من بعد أن أثنى عليها وعلى سمعة عائلتها، ولكي يُطمئنني أكثر قال لي بأنها فتاة متعلمة وتحمل شهادة جامعية، رغم أنها لم تلتحق بوظيفتها كمدرِّسة لأن تعيينها قد صدر في

إحدى القرى البعيدة التابعة لقضاء سنجار التابع إداريًا لمحافظة نينوى، وكنت ألاحظ على صديقي فريد مدى الراحة التي يشعر بها ما أن يسألني عن أحوالي العائلية بعد الزواج خاصة عندما أُؤَكد له بأنني مرتاح وبغاية السعادة، لكني بدأت أشعر في الفترة الأخيرة بتغير أحواله الصحية بعد أن بدأ الضعفُ ينحدرُ إلى صوته الرخيم الذي يتميز به وبشكل متسارع لا يدعو إلى الاطمئنان، ولمَّا سالته عن ذلك أخبرني بأنه قد راجع أكثر من طبيب وأجرى فحوصات كثيرة، وأن جميعهم قد أكدُوا له بأن لا شيء يدعو للقلق، وأن هذه الأعراض في الصوت ما هي إلا بسبب ما يُدعى في المتداول الشعبي "حبَّة بغداد" التي عادة ما تنبت في أعلى الحلق أو في نهاية اللسان، إلَّا أن حالته الصحية أخذت تتدهورُ بشكل لافت، وأصبح صوتهُ يميلُ إلى الحشرجة والوهن يومًا بعد آخر، وتحت إلحاح زوجته اضطر للسفر لغرض العلاج في مستشفيات دمشق وأعاد هناك إجراء الفحوصات، وأسفرت نتيجتها عن إصابته بسرطان الحنجرة حسب ما أكد له الأطباء المختصون، فأجريتْ له عملية جراحية على وجه السرعة، ثم عاد إلى العراق بعد أن أمضى هناك ما يقرب الشهر، لكن حالته الصحية لم تتحسن، وأخذت تتدهور بشكل سريع، ولم يعد العلاج الكيميائي يجدي نفعا، وفي زيارتي الثانية له عام 2004 بعد عودته من سوريا لم أكن أتوقع أن أراه على تلك الصورة، حاولت أن أخفي صدمتي وأن لا أظهر أمامه مشاعر الألم التي اعتصرتني بعد أن وجدته جالساً على كرسي خاص بالمعوقين، وجسده قد تضاءل بشكلٍ كبير، وبدا وجهه بلون أصفر شاحب، ورقبته كانت ملفوفة بضمادات، كذلك راسه، حتى أن عجزه الجسدي لم يساعده على أن يرفع يده ليرد عليَّ السلام ساعة دخولي إلى غرفة الاستقبال، وطيلة فترة جلوسي معه بحضور زوجته وابنه وبناته الثلاث لم يتمكن من الحديث، مكتفيا بهز راسه إشارة على تواصله معي، وبعد ثلاثة أيام على هذه الزيارة ودَّع الحياة.

حاولت أن أستعيد ابتسامته الدائمة التي كانت ترتسم على وجهه كلما كنا نلتقي طيلة أكثر من ثلاثين عاما من صداقتنا، واكتفيت بإلقاء نظرة أخيرة على جسده الملفوف بالكفن الأبيض قبل أن يوارَى الثَرَى في مقبرة حي

الكرامـة، ولمـا وجـدت نفسـي غيـرَ قـادر علـى أن أسـيطر علـى مشـاعري تنحيـت جانبـاً وابتعـدت عـن المشـيعين وأنـا أذرف الـدمع حزنـاً علـى فقـدان صـديق مخلص.

2

بداية رحلة طويلة

يمضي الوقت مثل سيف مسلَّطٍ على رأسَينَا، ولم يكن أمامنا أنا وزوجتي ثمَّةَ متسعٌ من خيارات نحتمي بسواحلها، لأن كلَّ الأبواب المعبأة برائحة الأمل قد أُغلقتْ، وما عاد هناك من إطلالة ولو كاذبة تحمل لذة الحياة، فما كان لنا إلا دخول تجربة الجراحة وإزالة الورم السرطاني، بعد أن انعدمت كل الخيارات، وهذا سيفرض علينا أن نتسلح بما تبقى لدينا من قوة منبعها رابطةُ الحبِّ التي تجمعنا لمواجهة التحولات التي ستصيب حياتنا وتترك آثارها عليها، فبدأنا نهيئُ أنفسنا لخوضِ معركة طويلة مع عدو شرس لا ينهزمُ بسهولة، ولن تكون العملية الجراحية خطوتنا الأولى والأخيرة للعبور إلى ضفة الأمان بقدر ما ستكون عنواناً لرحلةٍ طويلةٍ سنعبر فيها محطات تزدحم فيها الأوجاع والأعراض وبدايتها مع جلسات العلاج الكيميائي الأسبوعية ومن بعدها مرحلة العلاج بأشعة الليزر ومن ثم الاستمرار على تناول حبوب التاماكسوفين لمدة لا تقل عن خمسة أعوام، كل هذه المعلومات استطعت أن أحصل عليها وأخزنها في ذاكرتي من مواقع الكترونية وأنا أبحث عن كل ما يتعلق بمرض سرطان الثدي في محرك البحث كوكل، كل ثانية حاولتُ أن أستثمرها لمعرفة أسرار هذا المرض وما يجب علينا أن نفعله حتى لا نمنحه فرصة أن يتمدد أكثر، مع أنني مدركٌ تمامًا بأن زوجتي ليس لديها مساحة من الشك بما يكتبه لها الله، فهي مقتنعة بكل جوارحها ومنصهرة بإيمانها مع إرادة الخالق، ولا تسمح لنفسها في أن تنقطع ولو لثانية عن التسليم بهذه المشيئة القدرية، وعلى العكس منها كنت جزعاً من نفسي لأني لا أملكُ مثلها هذا الاستشعار العميق بما يمكن أن تمده السماء من رحمة ورأفة، وأصبحتُ على يقين بأنها ورغم ما ستكابده من آلام لكنها ستتمكن من الوقوف على قدميها، في مقابل ذلك تولدت في داخلي قناعة راسخة بأن الانسان يولد مصابًا بالعمى ولن يبصرَ ما بين يديه من

آيات الحب والجمال في هذا الكون إلا بعد أن يحاصره الحزن على فقدان الحياة، آنذاك تستيقظ حواسه ليكتشف حقيقة الفرح الذي كان يحيط به.

مهمةُ العثور على طبيب جراح يملك خبرة كبيرة تقطع الطريق أمام الخوف في أن يعاودنا مرة ثانية ويبعث فينا الاطمئنان أمست متاهة تجرفني أنا شخصيًا وتأخذني بكل الاتجاهات، كنت مثل شخص تائه في دروب مقفلة تتسارع فيها خطوات الزمن ولا يبرق منها بصيص أمل، فقد رافقني شعور بعدم الارتياح من إمكانات الطبيب الذي شخَّص الحالة في ما لو أجرى بنفسه العملية الجراحية رغم أنه طبيب جراح، وهذا الشعور الذي كان أشبه باليقين لم يكن مبنياً على معرفة بإمكاناته لكنه نابع من إحساس داخلي فرض سطوته علي منذ أن كنا في العيادة، وتعمَّق هذا الإحساس لأن اسمه لم يكن مشهورًا ولا متداولًا بين عامة الناس، إضافة إلى أننا في القناة الفضائية التي أعمل فيها كنَّا قد استضفنا العشرات من الاطباء والكثير منهم تحدثوا عن مرض سرطان الثدي وأشاروا في معرض أحاديثهم إلى أسماء معينة من الجراحين من ذوي الخبرة ولم يكن هو من بينهم، فأن تضع حياة شخص عزيز عليك تحت رحمة شخص آخر وبكامل إراداتك فهذا يعني أنك سوف تتحمل مسؤولية النتائج، هذه الفكرة لوحدها أرعبتني، وأعطبت آخر الخلايا في رأسي عن العمل.

بات الوقت خصمي اللدود، إذ لم يترك لي خيار ترتيب الفوضى التي أصبحت عليها حياتي، وقطع الطريق أمام أي فرصة لالتقاط الأنفاس، فكرتُ كثيرًا بقضية اختيار الجَرَّاح الكفوء طيلة الليلة الماضية بعد أن عُدنا من عيادة الطبيب.

ورغم الإرهاق الذي أصابني نتيجة التفكير وعدم استطاعتي النوم إلا أنني تذكرت زميلة لي كانت تعمل مهندسة بث في القناة الفضائية التي أعملُ فيها، أصيبت هي الأخرى قبل خمسة أعوام بسرطان الثدي، وأجرَت عملية جراحية ناجحة وهي الآن تتمتع بصحة جيدة لكنها تركت العمل في القناة، فكان لا بدَّ من العثور على رقم هاتفها ومحاولة الاتصال بها، ومشكلتي أنني لا أملك وسيلة للتواصل معها.

تملكني إحساس يشبه إحساس الغريق ما أن يتفاجأ بيدٍ تمتد اليه لإنقاذهِ بعد أن تذكرتُ زميلتي في العمل مقدمة البرامج فرقد ملكو التي كانت من أقرب صديقات المهندسة، وَلَدَيَّ معلومات عرفتُها منها قبل عدة أشهر تؤكد لي بأنها مازالت على تواصل معها وتزورها بشكل مستمر في بيتها ومن الممكن أن ترشدنا على عيادة الطبيب الذي أجرى لها العملية، لم أعد أحتمل بطء دوران عقارب الساعة المعلقة على جدار غرفة النوم وكانت تشير إلى الخامسة صباحاً، فرجوت بيني وبين نفسي أن تدور بأقصى سرعة لتصلَ إلى التاسعة حتى أجري اتصالًا هاتفيًا مع المذيعة فرقد.

في السنوات الأولى من حياتي الزوجية التي ابتدأت في النصف الثاني من تسعينات القرن الماضي، وتحت ضغط الحصار الأممي الذي فُرِض على العراق تناسيت مُكرَهًا التلصص على ما تحتويه الكتب من فضاءات معرفية وأدبية كانت بتجانسها مع تطلعاتي تحتويني وتقودني لاكتشاف عوالم جديدة، كنت منزعجاً من هذا الإكراه الذي خَضَعتُ له، تحت عبء ضغوطات البحث عن مصدر للرزق والخوف من السقوط تحت رحمة الحاجة إلى الآخرين وطلب العون منهم لمواجهة الجوع، فهبطتُ إلى قاع الحياة إلى حيث المواجهة مع قسماتها الحادة بكل توحشها بما أمتلكه من قوة بدنية متواضعة لأني أعاني منذ ولادتي من إصابتي بمرض فقر الدم، وهذا ما جعلني لا أملكُ الحيوية الجسدية الكافية مقارنة بأترابي، إذ سرعان ما تهبط لياقتي مع أي مجهود بدني أبذله، فتحاملت على ما أنا عليه من ضعف وطويتُ عقلي الذي هو رأسمالي الوحيد الذي أفتخر به والجَمتُ منابع التفكير فيه إلى إشعار آخر، وحشرتُ نفسي مع القطيع أدور في الدوامة اليومية التي يدورُ في فلكها العمال والكادحون، وطيلة السنين التي كنت أعمل أجيرًا مثلهم لم يداخلهم الشك في أني لستُ واحدًا منهم، بعد أن أتقنتُ معجم ولائمهم في التخاطب والتودد والشتائم والعراك، وطيلة وجودي معهم تناسيت نفسي التي أعرفها، وقطعت صلتي بشكل مؤقت مع الحروف والأفكار والأسئلة التي كان وجداني يرتوي منها إلَّا أني حافظت على عقلي من الاعوجاج أمام خبث المال وأساليبه التي تقود النفس إلى الإذلال، وكم أفزعني أن أخرجَ من حقيقتي الجوهرية التي كنتُ قد صيَّرتُها بفضولي

الـدائم إلـى المعرفـة لا دخـل مُرغمـا فـي مـا صـيرتني عليـه الأيـام، ولتنقلـبَ حيـاتي وتتـداعى خـارج عـاداتي التـي كنـت قـد عـززتُ فيهـا قناعـة راسـخة بـأن الإنسان ليس مجرد خيال عابر بل هو معجزة هذا الكون.

فـي تمـام السـاعة الرابعـة مـن عصـر يـوم السـبت 2016/5/22 كنّـا نجلـسُ أنـا وزوجتـي فـي عيـادة الجـراح جمـال غفـوري فـي مركـز ميـديا الخـاص بـالأورام الخبيثـة وسـرطان الثـدي الكائنـة فـي وسـط مدينـة أربيـل ، وهـو نفـس الجـراح الـذي سـبق أن أجـرى العمليـة لمهندسـة البـث التلفزيـوني، اسـتدارَ ناحيتنـا بعـد أن أطـال النظـر والتـدقيق فـي مجموعـة صـور أشـعة المميـوغرام للمنطقـة المصـابة مـن الصـدر، وهـذه الأشـعة كانـت إجـراءً اساسـيًا أوصـى بـه الـدكتور غفـوري قبـل أن يبـدأ بالكشـف والمعاينـة لأنـه سـيعتمد عليهـا فـي اتخـاذ قـراره النهائي، فإمَّا أن يجري العملية أو سيعتمد إجراءً آخر.

كنـا فـي حالـة قلـق وترقـب شـديدين بانتظـار مـا سـيقوله، ورجـوتُ مـن اللهِ فـي داخلـي أن يبشـرنا بخبـر يبعـث فينـا ولـو شـعاع أمـل بسـيط يؤكـد لنـا مـثلا أن الأشـعة خاليـة مـن أيـة إشـارة علـى أنَّهـا مصـابة بـالمرض، مـع أننـي كنـت مقتنعًـا أن هـذا مجـرد حلـم بعيـد المنـال، إلا أننـي حاولـت أن أقـاوم مخـاوفي بالتمسـك بأية ذريعـة حتـى لـو كانـت وهمًـا لأُخففَ ممـا اشـعر بـه مـن مواجـع، ولـو سـألني شـخص مـا عـن حقيقـة مـا أشـعر بـه فـي تلـك اللحظـات لأجبتـه بـاني أشـبِّهُ نفسـي بقصر فخم تحول إلى خربةٍ مهجورة.

كلانـا لـم نتوقـف عـن مراقبـة حركـة يـدهِ وهـي تُمسـك بـالقلم وتتحـرك علـى سـطور التقريـر الـذي كتبـه طبيـب هنـدي يعمـل فـي نفـس المركـز مختـص بجهـاز المميمـوغرام، وكلمـا توقَّفَـتْ يـده أثنـاء القـراءة ليسـحب خطًّـا تحـت إحـدى الكلمات كنت أشعر بأنهُ قد عثرَ على معلومة لا تدعو إلى الاطمئنان.

تضـاعف شـعوري بـالخوف مـا أن رفـع سـماعة الهـاتف واتصـل بالطبيـب الهنـدي وبـدأ بالحـديث معـه باللغـة الانكليزيـة، وفهمـت مـن المكالمـة أنـه يستفسـر منـه عـن كلمـة وردت فـي تقريـره، لكنـهُ بعـد أن انهـى المكالمـة الهاتفيـة نظـرَ إلينا وهـو مـا يـزال ممسكًا بـالقلم الجـاف، مضـت ثـوان معـدودة بـدا فيهـا منفصـلاً عمـا حولـه كَمَـنْ يحـاول ان يُرتـب أفكـاره ليصـيغها بجملـة واضـحة ودقيقـة مثـل

حدة مبضعهِ الذي يتعامل معه بحذر شديد منذ أربعين عامًا أثناء إجرائه للعمليات الجراحية، ثلاثون منها كانت في مستشفيات بريطانية، لأنه ما أن تخرج من كلية الطب بجامعة الموصل حتى سافر إلى المملكة المتحدة فاكمل تعليمه وبقي فيها يمارس اختصاصه كطبيب جراح إلى أن عاد بعد العام 2003 إلى أربيل المدينة التي ينتمي إليها وولد فيها وافتتحَ مع أطباء آخرين هذا المركز المتخصص لعلاج أمراض سرطان الثدي بعد أن وفروا له أحدث الأجهزة والمعدات الطبية.

شعرتُ بشيءٍ من الاضطراب والقلق ما أن وجدته يضع القلم بهدوء على تقرير الطبيب الهندي الموضوع أمامهُ على المكتب، بدت تلك الحركة بالنسبة لي مثل من يريد أن يتخلص من شيءٍ ما، بعد أن وجد دوره قد انتهى ولم تعد أي فائدة ترجى منه، لكنه سرعان ما بدَّد خطأ هواجسي لمَّا رسم ابتسامةً بانتْ على جميع ملامح وجهه، وأعقب ذلك بجملة وجهها إلينا "أردتُ فقط أن أتأكد من نقاط سوداء صغيرة جدًّا، كنتُ قد لاحظتها في صورة الأشعة موزعة على الرئتين والكبد، وهذا ما أقلقني، لأنها فيما لو كانت خلايا سرطانية سوف تجعلنا نؤجلُ إجراء العملية الجراحية لإزالة الغدد اللمفاوية والثدي ولنبدأ بدلًا عن ذلك في العلاج الكيميائي لإيقاف زحف وتوسع هذه الخلايا الصغيرة، ومن بعد أن نقطع شوطًا في إيقافها والقضاء عليها آنذاك سنتمكن من إجراء العملية الجراحية، وبما أن الطبيب الهندي قد أكد لي بأن هذه النقاط ليست خلايا سرطانية إنما هي حالة شائعة لدى العراقيين نتيجة تلوث الجو بالغبار والأتربة لذلك سنجري العملية بعد ثلاثة أيام، أي يوم الأربعاء القادم 2016/5/26" .

الغبطة سرت في روحي وجسدي وشعرت لحظتها وكأني أطير وأحلِّقُ في السماء، ودون تفكير مسبق نهضت من مكاني وأمسكت بكف الطبيب وقبَّلتها، وفشلتُ في أن أحبس دموع الفرح التي غلبتني خاصة بعد أن التفتُ إلى زوجتي ووجدتُها قد غطت وجهها بكفيها وهي تبكي، فاتجهت إليها واحتضنتُها محاولًا تهدئتها، كان من الممكن أن تستمر هذه اللحظة المشحونة بعواطف يختلط فيها البكاء مع الفرح لولا أن طلب منا الطبيب أن

نهدأ قليلًا لأن الوقت ضيّق أمامنا وهناك عمل لا بدَّ أن ننجزه على وجه السرعة خلالَ اليومين القادمين، وأضاف: "الخطوة الاولى ستبدأ من الآن، إذ يتوجب عليكما الاتجاه فورًا إلى عيادة الطبيب كاروان، وهو ليس ببعيد عن عيادتي، وسأدلكم على عنوانه، حيث سيعمل على انتزاع عيّنة صغيرة من أنسجة الثدي، ثم تأخذانها مباشرةً إلى مختبر الدكتورة أمل المفتي وهو قريب أيضًا من عيادته لأجل أن يتم زرع العينة لمعرفة طبيعة الورم حتى نقطع الشك باليقين، ونتأكد فيما إذا كان خبيثًا أم حميدًا قبل البدء بالعملية الجراحية، ومن ناحيتي سأتصلُ بالمختبر لكي تصلني النتيجة في صباح اليوم الذي سنجري فيه العملية" .

على وجه السرعة خرجنا من العيادة وكانت عقارب ساعتي اليدوية تشير إلى الخامسة عصرًا فاستقبلتنا أشعة شمس شهر أيار أوهي تودع أيامهُ الأخيرة، وتُذكِّرُنا بما سنشهده في الأيام والأشهر القادمة من ارتفاع شديد في درجاتها كما عودنا على ذلك صيف العراق الذي لا يشبه في جحيمه صيفًا آخر ربما في أي بقعة أخرى من الكرة الأرضية، ومع كارثة الانقطاعات المستمرة في التيار الكهربائي منذ ما يزيد على العقدين من الزمان يتوجب على أي واحد منا أن يعدَّ العدة لمواجهة برمجة حياته وأحلامه ومشاريعه طيلة ساعات النهار وفقًا لمزاج من يضع خطة تنظيم قطوعات التيار الكهربائي، فهو الذي يحدد لك متى تنام وتصحو ومتى تقرأ وتعمل وتكتب ومتى تلهو وتغتسل ومتى تشاهد التلفاز، فلا خيار لديك في هذا العراق أن تقررَ أبسطَ الأشياء وأهمها وفقًا لما تراهُ أنت.

إلى حد ما غمرني إحساس من يجدُ نفسهُ قد خرج توًّا إلى النور بعد أن كان محتجزًا في غرفة تسودها عتمة شديدة، ورغم الشحوب الذي أسبغ حضورهُ وبقوة على ملامح زوجتي خلال الساعات الماضية إلا أنني وجدتها قد استعادت شيئًا من حيويتها وانقشعت عنها حالة التشنج التي كانت قد امسكت بها وجعلتها على غير طبيعتها الهادئة.

اتجه بنا سائق سيارة الأجرة إلى عيادة الطبيب كاروان، وبعد انتظار في صالة المراجعين استغرق أكثر من نصف ساعة أذنت لنا السكرتيرة

بالدخول إلى داخل العيادة، وما لفت انتباهي أول وهلة هيئته البدينة بشكل مفرط لدرجة لم أكن أتوقع أن أرى طبيبًا شابًا على تلك الصورة التي لا تنسجم مع مهنته، ولكن رغم وزنه المرتفع كان نشيطاً في حركته، كما أن شخصيته تبعثُ على الحيوية وعلى الانسجام مع المكان رغم رائحة المعقمات والمطهرات التي تشبَّعَ بها الهواء وكل ما في العيادة من أثاث وموجودات، إضافةً إلى قسوة العمل الذي ينجزه والذي يتطلب منه أن يكونَ على قدر كبير من الجَلَد والصبر نظرًا للألم الشديد الذي يشعر به المريض لحظة انتزاع عينة من أنسجته بسرنجة خاصة أكبر حجمًا من تلك التي تستخدم في زرق الإبر في الحالات الطبيعية حتى إن المريض لا يستطيع أبدًا أن يكتم صرخته.

طلبَتْ مُساعِدةُ الطبيب من زوجتي أن تستلقي على السرير الخاص بإجراء العمليات، ثم حقنتها بإبرة مخدِّر، بدا الطبيب كاروان يمتلك مهارة كبيرة في عمله وأنا أتابعه في كل تفصيلة من التحضيرات التي كان يجريها قبل بدء العملية إلى أن يسري مفعول المخدِّر، ثم تقدم نحوها لمعاينتها، وبعد أن تأكد من دخولها حالة الخدر والغيبوبة وأنها لم تعد قادرة على أن تعي بما يدور من حولها، غرز الإبرة في وسط ثديها وبدأ بسحب عيّنة من نسيجه بهدوء لكن مفعول التخدير تلاشى ولم يعد له أي تأثير عندما انكسر الصمت الذي كان متراصاً مثل قطعة فخار وقعت على الارض، ما أن أطلقت زوجتي صرخة موجعة، ومن المؤكد أن كل الذين كانوا ينتظرون دَورَهم في صالة الانتظار قد سمعوها، فما كان مني إلا أن أنهض فزِعًا وأتجهُ نحوها لامسكَ بيدها اليسرى وأمسد على جبتها وأنا أردِّد على مسمعها بأن كل شيءٍ مضى على خير، في محاولة مني لكي أخفف عنها المها.

الشحوب الذي بصم حضوره القوي على وجهها جعلني أتيقن بأن طاقتها قد نفدت منها، فأمسكت بكتفيها من الخلف لأساعدها على أن تعتدل بجسدها وتجلس على حافة السرير، طلبت مني أن أساعدها على تعديل غطاء الرأس الذي انزاح إلى الخلف، وبعد أن استراحت لبضع دقائق استنَدتْ على ذراعي ونزلت عن السرير وحطت قدميها على الأرض بهدوء، بدتْ

لـي وكأنهـا تقـدمتْ فـي السـن عشـرين عامـاً فـوق عمرهـا الـذي لـم يتجـاوز العقـد الرابــع، لــم تســتطع الوقــوف إلا بعــد أن بــذلت جهــدًا ملحوظًــا لأنهــا مازالــت تحــت تــأثير المخــدر، حتــى أنهــا عجــزت عــن الســير بشــكل طبيعــي، ومــن الواضـح أنهـا لـم تكـن قـادرة علـى أن تحـافظ علـى توازنهـا أثنـاء سـيرها، لـذا رَمت بكل ثقل جسدها عليّ.

ولمــا مررنــا بصــالة الانتظــار قــرأتُ ســؤالًا مُلِحًّــا فــي وجــوه المرضــى ومـرافقيهم، كـانوا يبحثـون فيـه عـن الأسـباب التـي جعلتهـا تصـرخ علـى تلـك الصـورة المفزعـة التـي كانـت تشـي بهـا عيـونهم وهـي تتـابع سـيرنا باتجـاه بـاب العيادة الخارجي.

3

استدراج الحكمة

ما الذي يدفعنا إلى أن نقتسم مع الآخرين عذاباتهم بمحض إرادتنا ؟

ونحن نغادر عيادة الدكتور كاروان اقتحمني هذا السؤال على حين غفلة، دون أن يطرق الأبواب التي يتحصن خلفها ذهني، كانت محاولة يائسة لاستدراج الحكمة إلى عتبة تفكيري الذي هيمن عليه التشوش، علَّها تكشفُ ببلاغة اختزالها للتجارب، ما تخبئه الحياة بين سطورها من إجابة تطمئن ذاتًا أمست أسيرة مساحة ضيقة جدًّا رسمها القدر كعادته، دون أن يمهد لها بإنذار مبكِّر، ذاتٌ كان الأمل يتصارع ببسالة في داخلها ضد مشاعر الخوف والقلق، فما كان منها إلا أن تلجأ إلى الاستغراق في داخلها، لعلها تتلمس في ضباب الطريق بزوغ روحها، من بعد أن مالت أوراقها إلى اليباس، ومع أني بحثتُ في ذهني عن إجابة غير متكلفة بين قصائد لشعراءَ مثل ويتمان وييتس، إضافة إلى روائيين يتقنون الكشف عن مشاعر الحب مثل إيزابيل الليندي وإليف شفق إلاَّ اني في ذات اللحظة كنت مشغولا بحماية العلبة الزجاجية التي كانت تحوي بداخلها خزعة الأنسجة التي انتزعها الدكتور كاروان، وكان من العبث أن أسمح لخيالاتي أن تذهب إلى أبعد من الاهتمام بها، لذا احتويتها بذراعي اليمنى وأسندتها إلى صدري حتى أتفادى سقوطها على الارض، رغم أن وزنها ثقيل إلى حد ما، لأنها كانت معبأة بمحلولٍ خاص للحفاظ على العيّنة من التلف لأجل أن نصل بها على وجه السرعة إلى المختبر الذي يبعدُ مسافة لا تزيد عن خمس دقائق بالسيارة، ولزيادة الحفاظ عليها تمت إحاطتها بمادة سميكة من الفلين ثم غُلِّفت بطبقة من ورق الألمنيوم الخفيف، لذا أيقظتُ كل حواسي لتفادي أي احتمالات مفاجئة قد تصادفني دون انتباه مني خاصة وأنني كنت خاضعًا بكل كياني تحت تأثير الحدث الذي أخرجنَا عنوةً أنا وزوجتي وابني عن سياق حياتنا العائلية البسيطة، فكنت حذراً من أتعثَّر أو اصطدم بشخص أو شيء ما أثناء مسيرنا، لذا لم أبال بالألم الذي بدأ يزحف على ذراعي اليمنى

نتيجة ما اصابها من تشنج وأنا أحمل العلبة بحرص شديد، ولم أكن قادرًا على تحويلها إلى ذراعي الأخرى لأنها لم تكن طليقة بل كانت ممدودة بشكل أفقي لتحيط بكتفي زوجتي التي مازالت تشعر بالإعياء، وبسبب ذلك لم تكن قادرة على السير بمفردها دون أن تتخذني سندًا لها.

ما أن خرجنا من العيادة واصبحنا بمواجهة الشارع العام الذي كان مزدحمًا بحركة السيارات المسرعة ذهابًا وإيابًا انزاحت غيمةُ السؤال بعيدًا عن ذهني وتوقفت دوامة التنقيب في أرشيف الذاكرة بحثًا عن إجابة شافية لسؤالي الداخلي.

انتبهتُ إلى سيارة أجرة أخذت تُبطئ في حركتها وهي تتجه نحونا حيث وقفنا عند حافة الرصيف، وما أن أحنيت جذعي ومددتُ رأسي باتجاه نافذتها لأدلَّ السائق على المكان الذي ينبغي أن يتوجه بنا إليه، بدا الرجل وراء المقود بشعرِ رأسه الأبيض القصير بحدود العقد الخامس من عمره، وضعتُ العلبة الزجاجية بحرص شديد على المقعد المجاور له واستأذنته بأن يتكرّمَ ويضع يده عليها بإحكام حتى لا تتزحزح عن مكانها وتنقلب، ثم استدرت لأساعد زوجتي حتى تجلس في المقعد الخلفي، ثم عدت لأجلس إلى جانبه بعد أن رفعتُ العلبة عن المقعد ووضعتها في حضني ثم طوقتها بكفيَّ.

في طريقنا إلى المختبر حاولت أن أشحذ مخيلتي لتسعفني بوسيلة ما لربما تعينني ولو بالإيحاء على أن أتمكن من إرسال طاقة ايجابية عبر الكلام تخفف عن زوجتي قليلًا من وجعها، ولم أجد سوى الثرثرة أنجع وسيلة لطرد السحابة الثقيلة التي كانت تخيم علينا داخل السيارة فطرحتُ على السائق سؤالي الذي لم استطع إزاحته عن ذهني: "ما الذي يدفعُنا لأن نتقاسمَ مع الآخرين عذاباتهم ؟".

كانت مفاجأة له أن يُطرح عليه مثل هذا السؤال، وخلال ثوان وجدته يستعيد طبيعته بسلاسة، فقد تعوّد على التعامل مع أنواع مختلفة من طبائع البشر بحكم مهنته، لكنه بدا سارحاً مثلما يتهيأ عادة أي سائق قبل أن يعالج عطلاً ما في ماكنة سيارته، وإذا به يرد على سؤالي بأسلوب هادئ يشير إلى رجل

قد عجنته الحياة بمعجم أحداثها: "والله يا أخي هذه من طبيعة الإنسان.. لأنه سبحانه وتعالى قد خلق المحبة أصيلة في داخل كل واحد منا، ولولاها لما كانت هناك حياة على هذه الارض، ولأصبحنا جميعًا وحوشًا، لا أحد يرحم أحد، ولا أحد يقف إلى جانبِ أحد".

لم أعد بحاجة إلى أكثر من هذه الإجابة العميقة رغم بساطتها والتي جعلتني أستعيد ما كان يردِّدهُ صديقي الممثل المسرحي فريد عبد اللطيف قبل أن يفقد صوته ويغادر الحياة، كان يقول لي أثناء تجوالنا في شوارع الموصل القديمة بعد أن أفضفض أمامه عن قرفي من الحياة في العراق ورغبتي بالخروج بعيداً عنه: "يا أبو الطيّب ما معنى أن نتوق إلى النزوح نحو أماكن بعيدة عن صباحات تعودنا أن نستقبل بها الحياة في أزقتنا القديمة، برائحة حيطانها الجصّية التي تذكرنا دائما بجذورنا وأحبتها وأغانينا وطفولتنا؟ ما معنى أن تقذف بنفسك في أماكن واسعة بعماراتها الشاهقة وجسورها العملاقة وهي تبدو مثل متاهة إذا كانت المساحة الصغيرة التي وجدْتَ نفسك تتحرك ضمن حدودها مُذ أبصرتَ نور الحياة قد منحتك السعادة التي دائما ما يرجوها الإنسان ؟ "، ثم يتوقف هنيهة ليشعل سيكارته ويعاود استرساله: "صديقي أبو الطيّب، نحن نبتة لا تعيش خارج هذا المكان الصغير والجميل، وهذه الارض منحتنا روحها فكيف لنا أن نبتعد عنها؟ كما أننا انسجمنا معها ومع العالم المحيط بنا، مِن أهل وأقارب وأصدقاء وجيران ووجوه كثيرة أخرى لا نعرفها، لكننا تعودنا على رؤيتها في شوارعها ومقاهيها وأزقتها ومكتباتها ومسارحها وصالات السينما فيها، في منطقة الميدان وشهر سوق وشارع فاروق والدواسة والسرجخانة وباب البيض وباب لكش وسوق العطارين وأصبحت كل هذه التفاصيل والأماكن جزءًا منَّا لا نستطيع الانفكاك عنها، وسببًا جوهريًا في عشقنا للحياة".

داخلني شعور لطيف كنت بحاجة إليه بعد أن جعلتني إجابة السائق أستعيد جانباً مهماً من ذاكرتي مع صديقي فريد التي يسعى الزمن إلى محوها، وما أعجبني من حكمة السائق أنها انسابت بسهولة على لسانه بينما كانت يده اليمنى تمسك بالمقود والثانية تستقر على حافة الباب وعيناه تراقبان حركة

السيارات على جانبي الشارع عبر المرآة، مع أن عبارته قد اختزنت ببساطة مفرداتها، الحقيقة التي نلهث خلفها ونستهلك أعمارنا للامساك بها، لكنها غالبا ما تنساب بسلاسة على لسانِ بسطاء الناس ممن لا تربطهم أي صلة بعالم الكُتب، فالحياة بكل تعقيداتها وما يطرحه إزاءها الفلاسفة والمفكرون والشعراء من أسئلة مُربكة، بالنسبة لهؤلاء تبدو مجرد أخذ وعطاء متبادل بين البشر أنفسهم، وبينهم وبين الطبيعة وبقية المخلوقات من شجر وماء وتراب وحيوانات، وليس في كل هذا التكوين والموجودات ما يدعوهم إلى الشعور بالوحشة والاغتراب رغم ما يكابدونه من أجل توفير لقمة العيش لهم ولأطفالهم، وهم ليسوا بحاجة إلى أن يتقنوا حرفة التلاعب بالكلمات حتى يعبِّروا عما يشعرون به، لأن الكلمة عندهم مقارنة مع الفعل أعجز من أن تقوم بدور الوسيط في ما بينهم.

تفحصت جيدًا ملامح السائق، وهو ينظر بحذر إلى الأمام ويراقب بزاوية عينيه عبر المرآتين الجانبيتين حركة السيارات، كانت التجاعيد في وجهه وجبهته أشبه بحكايات مفتوحة على أيام وليالي طويلة تمخضت عن دأبهِ اليومي وهو يدور في طرقات المدينة بحثًا عن الرزق المدفون في شراييها، وفي لعبة هي أقرب إلى الحظ منها إلى السعي والاجتهاد كانت تقذف له بأصناف من البشر، بينهم قتلة ومحتالون وشرفاء وضعفاء وعاجزون وناقمون ومرتشون وسماسرة ومعارضون للسلطة وخبثاء، وكل واحد منهم له خزين من الحكايات التي يحتمي بأسرارها ويحتفي بها، وما أن يجلس في السيارة حتى يسرد منها ما يشاء، ساعة يكون فرِحًا أو ممتعضًا أو مخمورًا، وقد يحاول البعض منهم من خلالها استدراج الآخرين للإيقاع بهم.

أبلغني الموظف المسؤول في مختبر زرع العينات بعد أن سلَمتُه العينة التي تحتويها العلبة الزجاجية بأن التقرير سيكون جاهزًا لاستلامه بعد يومين، أي في مساء يوم الاربعاء الذي يسبق يوم إجراء العملية، ولما همست له بأن هناك توصية تخصنا من قِبلِ الدكتور جمال غفوري، أخبرني بأنه يعلم بذلك لأن الدكتور قد اتصل بنفسه قبل قليل عبر الهاتف بالدكتورة أمل المفتي

مـديرة المختبـر وذكـر لهـا الاسـم الثلاثـي لمريضـتكم وأكـدَّ علـى ضـرورة أن يصـل تقريـر فحـص عيّنَتِهـا قبـل موعـد العمليـة، لأن أي تـأخير سيتسـبب بتأجيلها، وهذا غير ممكن لأنه ليس بصالحها.

كانـت السـاعة تشـير إلـى الثامنـة مسـاءً والليـل ألقـى بغلالتـه السـوداء علـى نهـار المدينـة بينمـا كنَّـا فـي طريـق عودتـا إلـى البيـت، أمـا سـائق التاكسـي فقـد رفـض أن أجلـس فـي المقعـد الخلفـي إلـى جانـب زوجتـي وطلـب منـي أن أجلـس فـي المقعـد الأمـامي إلـى جانبـه، فـي حينـه لـم أطـل الجـدال معـه، لأنـي أعلـم بـأن هـذا عـرف راسـخ لـدى كافـة سـائقي سـيارات الأجـرة فـي العـراق، ومـن الصـعوبة بمكـان تغييـره، ومراعـاةً للحالـة النفسـية التـي كانـت عليهـا زوجتـي لـم أتـورط معـه فـي جـدال، ولكنـي بعـد أن جلسـت علـى المقعـد إلـى جانبـه، قـررت أن أجـس نبضـه وأخـرمش بأظـافر الحـوار وجـه الأعـراف، لأنـي كنـت بحاجـة إلـى أن أفضـفض عـن امتعاضـي مـن هـذا السـلوك القمعـي التـي اعتـاد السـائقون فرضـهُ علـى الركـاب، وفـي حقيقـة الأمـر كنـت أبحـث عـن وسـيلة لتفريـغ مـا تكـدَّس بـداخلي مـن مشـاعر اخـتلط فيهـا الألـم والغضـب والوجـع خـلال السـاعات الماضـية، ومـا ان وجـدتُ السـيارة تقطـع مسـافة قصـيرة مـن الطريـق التفـتُ إليـه ووجهـت لـه سـؤالًا عبـأتُ فيـه مـا أحملـه فـي داخلـي مـن غضـب: "لمـاذا ترفضـون أن يجلـس الراكـب فـي المقعـد الخلفـي، حتـى لـو كانـت معـه أمـه أو شـقيقته أو زوجتـه المريضـة التـي ربمـا تحتـاج إلـى أن يكـون إلـى جانبهـا وتصرُّون على أن يجلس في المقعد الأمامي إلى جانبكم ؟".

وإذا مـا أردت أن أكـون صـريحاً فـإن سـؤالي لـم يكـن الا قِناعًـا، احتميـت بـه حتـى لا ينفـرط عقـد مشـاعري ويفتضـح مـا كنـت أقصـده مـن وراء طرحـه علـى السـائق المسـكين، فكـل مـا أردتـه بهـذه المرافعـة الخبيثـة أن أفـتح ثغـرة أُلقـي بحمـولتي الثقيلـة مـن خلالهـا إلـى خـارج روحـي وبعيـدًا عنـي، حتـى يتنـاثر بـين ذرات الهـواء ميـراثٌ مُتعـب، خَلَّفَتـه لنـا هـذه الحيـاة، كنـتُ بحاجـة إلـى الاسـترخاء، إلـى العـودة بمشـاعري إلـى تلـك اللحظـات القصـيرة والجميلـة مـن أعمارنـا، حيـث نحـتكم فيهـا إلـى محبتنـا وصـفاء سـريرتنا، ونسـتدعيها متـى مـا

نشاء، ونصغي عبرها إلى أصواتنا وهي تَنفضُ مثل حبات البَرَد فرحنا الطفولي الذي تعادل أي لحظة منه الوجود كله، ويمكن لنا أن نتخلى عن أي شيء يعود إلى حطام هذه الدنيا مقابل أن نستعد تلك اللحظات البريئة من أعمارنا، لم ينتظر السائق فترة طويلة قبل أن يردَّ على سؤالي فالإجابة كانت جاهزة لديه، ودون أن يلتفت ناحيتي قال لي بأن هذا السلوك يُعدُّ عيبًا اجتماعيًا، ويحمل انتقاصًا من كرامة السائق!..

كنت متوقعًا مثل هذه الإجابة، لذا أردت أن أخذ الحديث إلى ناحية أعمق حتى أبتعدَ به عما هو متداول من مفاهيم، فأجبته بأن المسالة تبدو لي على العكس مما يرى، فأنا أعدُّ ذلك انتقاصًا من كرامة الراكب، لأنه يملك الحرية في اختيار المكان الذي يجلس فيه طالما يدفع ثمن الخدمة التي تقدمها له، ثم لماذا يا أخي هذا الربط القسري بين الكرامة الشخصية والجلوس في المقعد الخلفي؟ عند هذه الملاحظة انتهى الجدل بيننا، فقد اكتفى السائق بالالتفات ناحيتي وكانت عيناه تحملُ إشارة سخرية مما سمِع، ثم عاد لينظر أمامه مكتفيًا بالصمت، ولعلي خمَّنتُ ساعتها ما يدور في رأسه من أفكار، وأظن لو لم تكن معي زوجتي لأسمَعني كلامًا مزعجًا، ولربما يوقف سيارته فجأة ليأمرني بالنزول منها لينطلق بها من دوني وهو ممتعضٌ، ولهذا ارتأى الركون إلى الصمت بدلَ أن يردَّ عليّ.

في العراق للحرية مفهومٌ خاص دائمًا ما تتولى السلطة إنتاجه، السلطة بمعناها الديني والاجتماعي والسياسي، وهي حرية مزيفة بكل معانيها وصورها، لأنها مغلفة بأعراف وممنوعات ومحرمات تصل بها حد القداسة، ورغم ما يتكدس على هذا المفهوم من غبار وأساطير يتوجب عليك أن تخضعَ له وتتبارك به شئت ذلك أم أبيت.

في الليلة التي سبقت موعد إجراء العملية الجراحية، جلست لوحدي في غرفتي الخاصة التي ليس فيها ما يميزها من أثاث سوى الكتب المرصوفة على الرفوف الخشبية التي صنعتها بنفسي من باب الهواية لحرفة النجارة، طالت فترة جلوسي إلى ساعة متأخرة من الليل، ورغم ما كنت أشعر به من تعبٍ جسدي وحاجة شديدة إلى الراحة إلا أني قاومت رغبتي في النوم،

فتخيّلت نفسي أسير وحيدًا في غابة صفراءَ تخيّم عليها عتمة شديدة ولا يسمع فيها أي صوت، ومع ذلك لم أكن أشعر بالخوف، مع أن كل شيء فيها يبدو خياليًا، ألوانها، أشجارها، والحشائش التي كانت تسحقها قدماي، وحتى القمر لم يكن شكله دائريًا بل أشبه بنافذة مستطيلة يخرج منها ضياء بلون اخضر، والحقيقة الوحيدة في هذا المشهد أنني كنت أرتدي بنطالًا لونه بني وقميصًا ناصع البياض، سبق لي أن ارتديتهما كثيرًا وأنا ذاهب إلى المدرسة عندما كنت طفلًا، لكني اضطررت للتخلي عن البنطال بعد أن تمزّق عند الركبة على أثر سقوطي على الأرض أثناء ممارستي لعبة كرة القدم مع أطفال الحي.

انتبهت على صوت زوجتي الواهن وهي تناديني بينما كانت تقف عند المغسلة تنظف أسنانها بالفرشاة، وتعيد عليَّ وصيتها بأن أحاول الاتصال بأهلها في مدينة الموصل وأخبرهم عن موعد العملية يوم غد وبقية التفاصيل المتعلقة بالمرض، لأنني سبق أن حاولت الاتصال بهم عبر الموبايل قبل ساعة ولم يتحقق الاتصال بسبب ضعف إشارة الشبكة بعد أن سيطر تنظيم الخلافة الإسلامية على المدينة، كما أن التنظيم فرض عقوبة صارمة على من يتم ضبطه وهو يحمل هاتفًا في جيبه تصل إلى حد الإعدام بدعوى أنه يتخابر مع حكومة بغداد التي يصفها بالمرتدة عن الإسلام.

كان علي أن أمنح جسدي قليلاً من الراحة وأن لا أطيل من سَهَري لأننا لا بدَّ أن نصحو مبكرًا حتى لا نتأخرَ عن موعد إجراء العملية.

وقبل أن أنهض استعدادًا للنوم دخل ولدي إلى الغرفة، وطرح علي سؤالًا مفاجئًا: "ستبدأ بعد يوم غد امتحانات البكالوريا، فهل أستطيع أن أُؤَجلها إلى الدور الثاني ؟"، سرعان ما أدركت الدافع وراء هذه الرغبة، فالحدث الذي نمرُّ به قد أدخل حياتنا في منعطفٍ حاد، سرعان ما وضعَنا أمام لحظة بَدَونا فيها كما لو أننا نواجه عاصفة رملية تمنعنا من الرؤية بشكل واضح رغم اننا مازلنا قادرين على السير، ومن الطبيعي أن ينغمس ولدي بهذا الجو المشحون بالقلق والتوجس وهو يرى أمه وقد أعياها الخوف، لذا كان من الصعب عليه أن يحافظ على ذهنه صافيًا وهو يستعدُّ للامتحانات النهائية،

وسرعان ما سيجد نفسه عاجزًا عن التركيز أثناء أدائها، بالتالي لن يحصلَ على المعدل الذي يتيح له دراسة الحاسوب حسب ما كان يرغب، أصبح واضحًا أننا فقدنا نهائيًا السياق الروتيني الذي كانت بموجبه تنتظم حياتنا العائلية وفق مسار معلوم منذ سنين عديدة وهو الذي كان يمنحها مذاقها الخاص وإيقاعها الهادئ رغم الفوضى التي كانت تعصف بالعالم الخارجي وتهز جدرانه وتصيبها بالتصدعات، لذا كان علينا أن نواجه هذه الانعطافة الحادة التي أصابت كيان أسرتنا وأن نتفادى نتائجها ونخرج منها بأقل الخسائر، ولكي يستوعبَ ولدي المكان الذي أمسينا نقف فيه، وجدت من الأجدى أن أتحدث إليه باعتباره رجلًا، حتى أعيد إليه تماسكه لكن من بعد أن أجعله مطمئنًا على صحة والدتهِ، وإن أمامها فرصة كبيرة جدًّا للشفاء بعد إجراء العملية، وإن مرضها ليس خطيرًا كما يظُن، خاصة وإن هناك العشرات من النساء قد مررْنَ بنفس التجربة وخرجن منها سالمات معافات وعدْنَ إلى حياتهن الطبيعية وإلى مزاولة عملهن مثل بقية النساء، فحاولتُ أن أقنعه بأن كل شيء سيكون على ما يرام، ولا ينبغي أن تذهب به ظنونه إلى مخاوفَ غير واقعية، بل يتوجب عليه أن لا يتخلى عن أحلامه ولا ينشغل بأي شيء يعيقه عن تحقيقها طالما ما زلنا نشمُّ الهواء ونمدُّ بساط أمالنا في امتدادات الحياة الواسعة، فالمشقَّات يمكن أن تفاجئنا في أي لحظة، وعلينا أن نتعلم كيفية التعامل معها ومواجهتها والاحتيال عليها أحيانا للتقليل من أضرارها هذا إذا لم نستطع قهرها.

وما أن شَعَرَ بانّي قد استوفيتُ ما أردت قوله، تقدم منّي وأمسك كفي وقبّلها، ثم قبّل رأسي مثلما اعتاد أن يفعل كلَّ ليلة قبل أن ينام.

4

السقوط في الأرق

استيقظتُ في تمام الساعة السابعة صباحًا، في الحقيقة لم يغمض لي جفن حتى بانت أولى خيوط الفجر من خلف زجاج النافذة في غرفة النوم، وعلى الأكثر لم أنم سوى سويعات من الزمن قبل أن يطوي الغسق بساطه ويرحل بهدوء مثل بقية الأيام بعد أن سقطتُ صريع الإعياء من دوامة التفكير بالعملية الجراحية التي ستجرى يوم غدٍ، أذكرُ جيدًا كم بذلت من جهد ذهني ونفسي وأنا أحاول استمالة النوم إلى جانبي علَّه يأخذني معه في رحلة بعيدة استسلم فيها إلى حالة من الخَدَر والانفصال عما أنا فيه من اكتواء داخلي لكن محاولاتي فشلت، وبقي الأرق والقلق يستهزئان بي ويسامراني رغمًا عني ويطردان النعاس عن جفني، حتى إني استعنت بكل الألعاب التي سبق أن تعلمناها في طفولتنا إذا ما أرغمَنَا أهلنا على أن نأوي إلى أسِرَّتنا حتى ننام، مثل أن نعدَّ قطيعًا من الخراف، ولن أنسى في تلك الليلة أنني أخطأت في العدِّ أكثر من مرَّةٍ، فكررت المحاولة من جديد ولكن دون جدوى، حتى أن الخراف خلدت للنوم بينما بقيت أنا صاحيًا، وما انفكت الأفكارُ تداهمني مثل أشباح وهي تعبث بي في ظلمة الليل، كانت تدور في رأسي عابثة بي، وعجزتُ عن طردها بعيدًا عني حتى شعرت برأسي يكادُ ينفجر وأنا أتأرجح ما بين حقول تبعث على التفاؤل وبِركٍ رمادية من هواجس أخذت دائراتُها تضيّق شيئا فشيئا من حولي، أحسست وكأني قد انشطرت إلى نسخٍ طبق الأصل عنّي، كل نسخة تتحرك باتجاه مختلف وتتقاطع في ما بينها فتصطدم مع الأخرى، فإذا بي أقع فريسة دوامة من المشاعر المتضاربة تحت ضغط تخيلات موجعة كانت قد فتحت في روحي ممرًّا نحو المجهول ولهذا غادرت السرير مرتين في محاولة للتحايل عليها، في المرة الأولى جلستُ في غرفة الاستقبال وفتحت جهاز الموبايل وبدأت اتصفح المواقع الإلكترونية ثم مررت على صفحتي في موقع الفيس بوك وتويتر ولكني لم اعِ ما أفعل، لأني كنت شارد الذهن تمامًا عن الصور والتعليقات التي

أمررها أمامي بطرف سبابتي بشكل آلي على شاشة الموبايل فكانت تنزلق تباعًا دون أن أتوقف أمامها أو أميزها أو أفهم ما فيها، لم يستغرق ذلك سوى دقائق معدودة حتى أغلقت الجهاز وعدت إلى السرير، وفي المرة الثانية خرجت إلى المرآب ثم فتحت الباب الخارجي ووقفتُ عند عتبة الدار، كانت البيوت وهي تتراصف بشكل منتظم على جانبي الزقاق تغرق في سكون ناعم ترسمه إضاءة شفيفة تهمي عليها من أعمدة النور المنتصبة بين مسافات محسوبة على طول امتداد الحي السكني، ولغة الصمت تحتوي الفضاء بحنان، مثل موسيقار يحتضن آلة العود بينما يعزف لحنًا صوفيًا، ولم يخدش هذا الانسجام الروحي بين تلك العناصر سوى أصوات كلاب كانت تنبح في مكان بعيد، بالكاد يصل نباحها إلى مسامعي، تطلعتُ إلى النجوم في السماء وحاولت أن أميَّز واحدة عن الأخرى، وتساءلت بيني وبين نفسي كيف كان لأجدادنا أن يعرفوا أسماء بعضها وسط هذه الأعداد الهائلة وهي ترصِّعُ قبة السماء؟ ومع أني استغرقت طويلًا في تأمل النجوم، لكن لم أستطع الإفلات من حالة الجزع التي كانت قد تلبستني بسبب عدم قدرتي على النوم، فعدت مرة أخرى إلى السرير، وقبل أن أغلق باب الغرفة خلفي، استيقَظَتْ زوجتي وسألتني في ما إذا كنتُ أشكو من ألمٍ أو شيءٍ ما، فأجبتها بأن ليس هناك ما يدعو للقلق، فقط كنت بحاجة للذهاب إلى الحَمَّام، ولأنها أذكى من أن يقنعها مثل هذا التبرير ردَّت عليّ بما يعني أنها تعلم ماهي مشكلتي: "تعوّذ من الشيطان واستغفر ربَّك أكثر مرة، واتركِ الباقي على الله فهو أرحم الراحمين".

غالبا ما فشلتُ في تمرير أكاذيب بيضاءَ عليها، بعد أن اصبحتُ مثل كتاب مفتوح أمامها، فلم تكن تجد أي صعوبة في قراءة ما بين سطوره من كلمات وجُمَلٍ لا تظهر لمن يتمعن فيها، وكم من مرّة حاولتُ أن أخفيها عنها على سبيل المزاح، وأظن أن هذه الخاصية تنفرد بها النساء عامة عن الرجال، لذلك هي لم تكن بحاجة إلى أن تسمع إجابتي لتعرف بماذا كنت أفكر وماذا يشغلني، فالعشرة الطويلة التي بيننا كانت بمثابة مختبر خضعنا فيه لضغوطات وظروف مختلفة، فانكشفنا لبعضنا البعض، وما عاد هناك من شيء نتستر عليه في ما بيننا، بما في ذلك مشاعرنا وانفعالاتنا الداخلية،

ومـا عـاد ممكنـا أن نخفيهـا او نتحايـل عليهـا، حتـى أصـبح كـل واحـد منـا مـرآة للآخـر يـرى فيـه عيوبـه وأخطـاءه ومـا يحمـل فـي داخلـه مـن هـواجس وأحاسـيس مدفونـة فـي أعماقـه، ولـدي قناعـة بمـا كنـت قـد سـمعته أو قرأتـه لربمـا فـي كتـاب أو مقـال مـن أن العلاقـة الزوجيـة إذا كانـت مبنيـة علـى المحبـة تجعـل ملامـح الوجه بين الزوجين فيها تشابه كبير حسب ما يتراءى للناس وكأنهما توأم .

كانـت السـاعةُ تشـير إلـى الثامنـة صـباحًا لمَّـا حـان وقـت مغـادرة البيـت والتوجـه إلـى مستشـفى "ويلفـر" فـي منطـق بختيـاري، وكـان القـيظ يتسـلل إلـى مدينـة أربيـل ليطبـق عليهـا مـع الارتفـاع الملحـوظ فـي درجـة الحـرارة، وبينمـا كانـت زوجتـي تهـمُّ برفـع حقيبـة صـغيرة عـن الارض وضـعت بـداخلها منشـفة وشرشـفًا خفيفًـا ومُعطِّـرًا للجسـم ومسـتلزمات شخصـية أخـرى قـد نحتاجهـا خـلال إقامتنـا القصـيرة فـي المستشـفى والتـي لـن تتجـاوز ثلاثـة أيـام بعـد إجـراء العمليـة، تقـدَّم منهـا ولـدي وقبَّـل رأسـها ويـديها وتمنـى لهـا أن تـنهض سـالمة وتعـود بكامـل صـحتها، وبـدورها هـي أيضـا قبلتـه مـن وجنتيـه واحتضـنته بقـوة ولـم تسـتطع أن تحـبس دمعـة انزلقـت علـى خـدها وهـي تـدعو لـه بالنجـاح وأن يطـول بهـا العمـر حتـى تفـرح بزواجـه وتحمـل ابنـه بـين ذراعيهـا، ولأجـل أن أحتـوي الموقـف مـن الانفـلات والسـقوط فـي مشـاعر عاطفيـة ملتهبـة قـد ننجـرف إليها ثلاثتنـا فـي تلـك اللحظـة ونحـن فـي غنـى عنهـا، سـحبت ولـدي جانبًـا وطلبـت منـه أن يبقـي هاتفـه مفتوحًـا لربمـا أتصـل بـه فـي أيـة لحظـة إذا مـا احتجـت إلـى شـيء مـا مـن البيـت، ولأطمئنـه علـى صـحة والدتـه بعـد خروجهـا مـن صـالة العمليـات، ولـم أنـس أن أذكِّـرهُ بضـرورة أن يسـتثمر الوقـت بمراجعـة دروسـه وأن لا ينشغل بأي شيء، وأن يدعو لوالدته بالسلامة.

لا أعـرف إذا ماكنـتُ قـد ارتكبـتُ خطـأ كبيـرًا بحـق ولـدي عنـدما منحتـه حريـة مطلقـة ولـم أرغمـه أبـدًا علـى مرافقتنـا أنـا ووالدتـه كلمـا كنـا نتوجـه لزيـارة أهلنـا فـي مدينـة الموصـل بـين فتـرات متباعـدة بعـد أن اسـتقرينا فـي مدينـة أربيـل عـام 2007، ولـم يكـن خروجنـا منهـا إلا بعـد أن مالـت الحيـاة بكـل زاويـة فيهـا إلـى فقـدان الأمـن والأمـان وبـات الإنسـان فيهـا يسـيرُ علـى حافـة السـكين، ففـي كـل ثانيـة كانـت أوضـاعها تقتـرب سـريعًا مـن حافـة الجحـيم لتبتلـعَ كـل شـيء جميـل

كـان ينادينـا فـي صـباحاتها وأماسـيها، ولتحـل بـدلًا عنـه صـور الخـوف والتـوحش، فتحولـت المدينـة إلـى نقطـة جـذب تسـتثمرها المحطـات ووكـالات الأنبـاء يوميًـا لصـناعة أخبـار سـاخنة عـن حـوادث اختطـاف المـدنيين وتفجيـر السـيارات واغتيـال العـاملين فـي الصـحافة والإعـلام مـن قبـل تنظـيم القاعـدة وجماعات أخرى لا أحد يعرف هويتها.

ثلاثة عشر عامًا من الغياب القسري زمن طويل، لم يخطر في ذهني أبدًا أن ابتعـادي عـن المدينـة سيمتد بـي كـل هـذه الفتـرة، وأن مشـاعر الشـوق والحنـين إليهـا سـتكبر فـيَّ وتنـال منـي فـي موضـع لـم أكـن قـد وضـعته فـي حسـاباتي، فقـد وصـلت العلاقـة بـين ابنـي وبـين الموصـل إلـى مرحلـة الاغتـراب الكامـل، ولـم يعد يجمعـه معهـا سـوى خـيطٍ واهـن، ربمـا أشـبه بقطـرة مـاء مـا أن تلوحهـا أشـعة الشـمس حتـى تختفـي ولا تتـرك خلفهـا أي أثـر يشـير إليهـا، فهـو لا يعـرف عنهـا أي شـيء، ولا يـرتبط مـع شـوارعها وأزقتهـا ومعالمهـا البـارزة بـأي عاطفـة، لأنـه لـم يزرهـا ويتعـايش معهـا ولا أشـك أبـدًا فـي أنهـا لا تخطـر علـى بالـه مطلقًـا لـولا أنـه دائمًـا مـا يجـدها تـردُّ علـى لسـاني بشـكل عفـوي مـن غيـر قصـدٍ منـي، فأنـا مـن غيـر الممكـن أن أتحـدث عـن نفسـي وتجـاربي فـي الحيـاة دون أن أذكرهـا، لأن طفـولتي وشـبابي والشـطر الأكبـر مـن حيـاتي قـد انسـابت إليهـا ملامـح هـذه المدينـة فـي كـل تفصـيلة، فـلا أسـتطيع أن أتخلـى عنهـا بـإرادتي أو بغيرهـا، ومـن غيـر المكـن أن يتخلـى الإنسـان عـن دمـه وجلـده وذاكرتـه، وكـم أشـعر بـالحزن عنـدما أجـده لا يـذكر منهـا سـوى صـور باهتـة تعـود إلـى السـنة الأولـى والثانيـة مـن دراسـته فـي المرحلـة الابتدائيـة انمحـى الكثيـر مـن تفاصـيلها مع تقادم السنين.

كلمـا خلـوت إلـى نفسـي دائمًـا مـا أتمنـى أن تعطـب شـرايين ذاكرتـي وتتوقـف تمامًا عـن ضـخ الحكايـات مـن ينـابيع ماضـيِّ الـذي تركتـه خلفـي، فـلا مهـرب لـي منهـا ومـن شـبحها الـذي يطـارني مثـل ظلـي، ومـا أن ترصـدني أحيـد عـن يقظتـي وعمـا أراه وأتفاعـل معـه فـي حيـاتي اليوميـة مـن موجـودات وحيـوات وأشـياء حتـى تقفـز وراء المقـود وتـتحكم بـدوران عجلـة الـزمن، وهكـذا فَعَلَـت مـا أن اسـتقلينا سـيارة الأجـرة وانطلقـت بنـا نحـو المستشـفى، فشـرَعَت تطلـق سـيولًا

من الأمطار تنهال على روحي من سحب الأمس ونسج حكايات بخيوط الماضي لها رائحة المرمر الموصلي في حياتي العائلية، لكني لم أرد لها أن تستمر في لعبتها العاطفية التي تشبه عملية جلد الذات، فالوقت الحرج الذي أمرُّ بِهِ لامجال فيه للانفتاح على أوراق الماضي الجميل وتصفحها، ولهذا راهنتُ على هزيمتها بالثرثرةِ، بسؤال السائق مثلا عن أسباب ارتفاع أسعار السيارات، أو هل كانت في العقود الماضية محطة للقطار في مدينة أربيل؟ فالمهم أن نتحدث وليس مهما عن ماذا نتحدث، وما إذا كان حديثًا جادًا أم مضيعة للوقت، بل المهم أن أفلح في اعتقال الذاكرة ونفيها بعيدًا عني في تلك الساعة.

فتحتُ باب الغرفة التي خُصصت لنا في المستشفى وكان إلى جانبي اثنان من زملائي يعملان معي في القناة الفضائية "محمد خيون وهلو جباري" أصرّا على أن يتواجدا معنا ويقفا إلى جانبنا أثناء إجراء العملية، لأنهما كانا على علم بأن ليس لدينا أقارب يسكنون في أربيل ، ومازال أهل زوجتي وأهلي يقيمون في مدينة الموصل، ولن يتمكن أي واحد منهم من مغادرتها بعد أن سقطت تحت سلطة تنظيم الخلافة وهذا ما ضاعف لدي الاحساس بالوحدة والاغتراب في تلك الساعة، وليس أقسى من أن يجد الإنسان نفسه وحيدًا في محنته خاصة عندما تضعه الظروف رغمًا عن إرادته في موضع الغريب فلا يجد أحدًا يحيطه من أهله وأقربائه وأصحابه مع أنهم على بعد خطوات منه، فكيف به إذا كانت أعز أماله معلقة بين الحياة والموت، لم استطع أن أزيح نظري عنها وهي تجلس على حافة السرير مستسلمة لقدرها، وبين هنيهة وأخرى كانت تغمض عينيها وتصدر حركة موضعية خفيفة عن شفتيها المطبقتين، فكُنتُ على يقين من أنها تُردِّدُ بينها وبين نفسها أدعية أو تقرأ آيات من القران، مثلما اعتادت أن تفعل دائمًا، ومن ناحيتي ترسخ لدي يقين بأن الإيمان باعتباره قيمة روحية داخلية هو بمثابة ذاكرة الانسان الحقيقية التي لا تشيخ، ولن يقوى الزمن على تدميرها، وهي التي تؤكد حضوره الإنساني، وبغيابها لا وجود له، وكم تمنيت أن يلمسني مثل هذا الإيمان، وأن أقضي حياتي سائرًا في طريق واحد لا أحيد عنه طالما يحقق لي اطمئنانًا داخليًا وشعورًا بالاكتفاء من هذه الدنيا، ويشعرني

بالسعادة والرضا مهما تبدلت الأحوال وضاقت السبل وشح الرزق وقد أيقنت من ذلك من خلال إصرارها على أن تستيقظ يوميًا في تمام الساعة الرابعة صباحًا منذ أن تزوجنا قبل ربع قرن ثم تبدأ بقراءة القرآن مدة لا تقل عن ساعة من الزمن قبل أن تؤدي صلاة الفجر لتعود بعدها إلى النوم، ولا أعرف حتى الآن لماذا لم أحاول أن أدخل هذه التجربة لأكتشفها وأعيش رعشتها الروحية، ربما لأن قناعتي بمسألة الإيمان الروحي أكبر من أن تُختَزل بطقوس وشعائر، فالمهم بالنسبة لي أن يشعر بها الإنسان من الداخل باعتبارها شعورًا ذاتيًا وليس مجرد تواصل مع قوة فوقية خارجية، لأنه إذا ما غاب الداخل فلن يشعر الإنسان بالاطمئنان الروحي والانسجام خارج ذاته، وسيداهمه الشعور بالوحدة أينما كان، سواء كان بين جموع المتعبدين أو بين أهله وأصحابه، وبينما كنت أرصدها وهي ما زالت تغمض عينيها وتطبق شفتيها وتردد مع نفسها ما يعزز في داخلها الشعور بالقوة إزاء الضعف الجسدي الذي بات يقتات منها، كنت أقلب الأفكار مع نفسي وأنا أحاول أن أحطم مصداقية ما توصلتُ إليه وأُؤَكد عجزه عن الثبات أمام الجسد ساعة يسقط في ضعفه، وهذا ما جعلني أشعر بأن مسؤوليتي باتت أكبر حتى لا ينتصر الجسد بضعفه على الروح السامية.

فُتح باب الغرفة من قبل اثنين من العمال أظنهما يحملان الجنسية البنغلاديشية ثم دفعَا بهدوء إلى وسطها سريرًا يتحرك على عجلات، واستأذنا من زوجتي أن تستلقي عليه وأن نغطيها بالبطانية التي جلبناها معنا من البيت وكانت قد وضعتها إلى جانبها على السرير في الغرفة، وهذا يعني أن موعد العملية قد حان، فلم أستطع لحظتها السيطرة على مشاعري وعجزت عن لملمة ما تبقى لدي من قوة لضبطها، فخنقتني عبرة بذلت جهدًا حتى أتحكم فيها، ولم أجد نفسي إلَّا وأنا أتقدم نحوها وأقبل رأسها وأدعو لها أن تنال العافية، بينما هي بقت هادئةً مستسلمة ولم يصدر عنها أي إشارة على أنها كانت خائفة، واكتفت بان امسَكَت كفي وضغطت عليها بقوة، ثم سمعتها تردد بصوت خافت أحمد الله على كل ما يكتبه، وإلى أن وصلنا باب المصعد حيث سينزلونها إلى صالة العمليات الكائنة تحت الطابق الأرضي كنت ممسكًا بكفها، وبعد أن دفعا العاملان بالسرير إلى

داخل المصعد، انتبه أحدهما إلى أني تحركت خطوة للأمام في إشارة على أنني كنت عازمًا على مرافقتهم فأتى بحركة من يده بمعنى أنه لا يُسمح لي وأن علي الانتظار حتى الانتهاء من العملية.

بعض الأحداث التي نمرُّ بها ونكون طرفًا فيها أو أحد شخوصها الرئيسة سرعان ما تتحول إلى قصص تحمل بين طياتها دلالات لم ننتبه إليها عند وقوعها، وقد لا نلتفتُ أبدًا إلى أهميتها، ونتعامل معها كما لو أنها ليست إلا ضمن ما يمرُّ بنا في نهر الحياة اليومية من أحداث كثيرة عابرة، فإذا بها قد استحالت إلى تجربة مثيرة ما أن تصبح جزءًا من الأمس، فيحلو لنا أن نستعيدها رغم أننا عشناها وكنا خاضعين تحت ضغط مشاعر تتوزع ما بين القلق أو الخوف أو الشعور بأننا قد اقتربنا من حافة الهزيمة، وكان حرصنا شديدًا على أن نخفي عن الآخرين كل ما يدور ساعتها في دواخلنا من أفكار وهواجس، لكنها بعد أن تطوى وتصبح تلك الأحداث رهينة الماضي فإذا بنا نكتشفها من جديد كما لو أنها شريط سينمائي مؤثر نتابعه بشغف ونحن مشدودين إليه بكل حواسنا، نتابع نمو أحداثه وتطورها وما تواجهه الشخصية الرئيسة من تحولات في مسار حياتها، ومن الغريب أن يسري في داخلنا إحساس آخر غير الذي كنا قد مررنا به لما كانت التجربة تلقي بنا في مرجلها، فيحلو لنا أن نسرد ما مررنا به أمام الآخرين بينما لم نكن نشعر بالمتعة عندما كنا جزءًا من الحدث ساعة وقوعه، هذا ما خطر في بالي وأنا أستعيد ما كنت عليه خلال ثلاث ساعات بينما كنا جالسين في الغرفة ننتظر انتهاء العملية الجراحية، مع أن الطبيب الجراح جمال غفوري لما سالته عن الوقت الذي سوف تستغرقه أخبرني بأنها لن تتجاوز أكثر من ساعة ونصف من الزمن، فما كان أمامي من حل للخروج من حالة القلق إلا أن ألجأ لاستهلاك الزمن بالحديث والدردشة مع زميليَّ المصور محمد خيون ومقدم البرامج هلو جباري، ولكن دون جدوى، فقد كانت مخيلتي تهرب بعيدًا عن الغرفة وتجتاز الجدران والطوابق الأربعة لمبنى مستشفى ويلفر ولم تكن تحتاج إلى أن تستعين بالمصعد للنزول إلى صالة العمليات القابعة تحت الارض، ورغم جنوحها إلا أنها عجَزَت في أن تستحضر وقائع ما يجري هناك لأني لم أكن أمتلك الجرأة على رؤية الدم، فكيف إذا

كـان المشـرط يتوغـل فـي جسـد شـريكتي الوحيـدة فـي الحيـاة، كانـت عقـارب سـاعتي اليدويـة كلمـا نظـرت إليهـا أجـدها ثابتـة فـي مكانهـا ولا تتحـرك، بقيـت مشـغولًا عـن أحاديثهمـا وأنـا خاضـعٌ تحـت سـطوة ذاكرتـي التـي كانـت تنشـط فـي عملهـا علـى غيـر عادتهـا وفَتَحَـتْ صـناديق معبـأة بمشـاهد وانفعـالات وهـدايا تبادلناهـا فـي مناسـبات مختلفـة وتفاصـيل كثيـرة مـرت فـي حياتنـا الزوجيـة، بـدأت بـالبونط الابـيض الـذي رأيتـه أول مـرة وهـو يطـوق شـعر رأسـها، ولـم تنتهِ الـذاكرة مـن لعبهـا العبثـي إلَّا وقـد أنهكهـا التعـب وهـي تنبش مـا كانـت تخبئـه فـي خزائنهـا التـي لا تنضـب محتوياتهـا، فجـأةً فُـتح بـاب الغرفـة فـإذا بالعامـل البنغلاديشـي، ويـا لهـا مـن لحظـة انبثـق فيهـا الخـوف ومـدَّ أذرعـه ليرسـم وجهـه الثقيـل علـى ذرات الهـواء فضـاقت الغرفـة علـيّ رغـم سـعتها حتـى كـدّتُ أختنـق، ولكـن مـا أن رسـم علـى وجهـه ابتسـامة خفيفـة وهـو يـردد "الهمـد لله "حتـى اسـتعدت قـوايَ التـي كانـت قـد تراخـت قبـل لحظـات ومـا كانـت قـدماي قـادرة علـى أن تحملنـي، ثـم أشـار لنـا أن نتبعـه فخرجنـا خلفـه مسـرعين إلـى الممـر باتجـاه بـاب المصـعد الـذي كـان مفتوحـا بينمـا كانـت ترقـد ممـددة علـى السـرير المتحـرك ومغطـاة ببطانيـة حتـى كتفيهـا، وتـراءى وجههـا لـي شـاحبًا بعـد أن فقـد نضـارته تمامًـا، ومـا أن لمحتنـي حتـى ارتسـمت علـى شـفتيها ابتسـامة واهنـة وكأنهـا حاولـت انتزاعهـا بمشـقة بمـا تبقـى لـديها مـن قـوة، ورافقتهـا هـزة خفيفـة مـن رأسـها إشـارة علـى أنهـا قـد اجتـازت أول عتبـة فـي محنتهـا، تعاونّـا جميعًـا فـي رفعهـا مـن علـى السـرير المتحـرك بعـد أن أمسـكنا بـالأطراف الأربعـة للبطانيـة التـي كانـت تحتهـا ونقلناهـا علـى سـريرها فـي الغرفـة، وأثنـاء عمليـة رفعهـا وجـدتها تنظـرُ لـي بعينـين مجهـدتين، كـان لـدي إحسـاس لا يخطـئ بمـا يـدور داخـل رأسـها مـن أفكـار، وأيقنـت بأنهـا تريـد أن تقـول لـي نفـس الجملـة التـي طالمـا كانـت ترددهـا أمـامي منـذ أن أصـيبت عـام 1999 بمـرض الروماتزم بعـد سـتة أشـهر مـن ولادة ابنـي محمـد الطيـب: "يـا مـروان، مـا الـذي يُجبـرك علـى الاسـتمرار مـع امـرأة مريضـة بالكـاد تمشـي علـى قـدميها مـن شـدةِ المـرض؟ وهـا هـي اليـوم بعـد العمليـة الجراحيـة قـد أصـبحت نصـف امـرأة؟".

5

لماذا تأخرتْ؟

لم تكن حالتها الصحية تسمح لها في أن تجيب على ما كان يدور في رأسي من أسئلة مُلِحَّةٍ بعد أن أثار استغرابي الزمن الذي استغرقته العملية الجراحية التي خضعت لها، حيث امتدت إلى ثلاث ساعات، وهذا وقت طويل لا يتفق مع ما سبق أن خمنَّه الدكتور جمال غفوري لمَّا سالته قبل يومين من إجرائها وكنا في حينه جالسين في عيادته فأخبرني بأنها عملية بسيطة لن تأخذ منه وقتًا طويلًا وعلى الأكثر بحدود خمس وأربعين دقيقة، فهل أخطأ في تخمينه وهو الجراح صاحب الخبرة الكبيرة في المستشفيات البريطانية لفترة تزيد على الثلاثين عامًا؟ بدا هذا الاحتمال بالنسبة لي غير وارد تماما رغم أنني كنت أطرحه وأناقشه بيني وبين نفسي باعتبارهِ أمرًا مُرَجَّحًا، إذن ما الذي حدث فتسبَّبَ بهذا التأخير؟ لا بُدَّ من وجود مشكلة ما، ومن غير الوارد عدم معرفتها، وليس مهمًا أي سبب كان إلَّا أن تكون هي السبب، وهذا ما أثار قلقي وزاد من شكوكي حول حالتها، فذهبت بي ظنوني بعيدًا جدًّا، في محاولة مني لإيجاد تفسير مقنع يوقف دوامة التفكير، فهل كانت على سبيل الفرض نتائج الفحوصات الأولية التي أجريناها في الأيام الماضية بجهازي السونار والميوغرام ليست دقيقة؟ وماذا لو كانت كذلك؟ وهل من مستجدات برزت فجأة أثناء العملية لم تتوصل أجهزة الفحص إلى كشفها ؟ وما الذي تم اكتشافه؟ وهل من الممكن أنَّ خطأً ما قد تم ارتكابه أثناء إجرائها وكان سببًا في هذا التأخير؟ كل الأسئلة التي طرحتها على نفسي كانت واردة، وكان من الصعب أن أصل إلى إجابة قاطعة، طالما هي ما زالت غير قادرة على الكلام، كما أن الدكتور ما يزال في صالة العمليات لارتباطه بعمليات أخرى حسب ما لاحظته في الجدول المعلق على الجدار إلى جانب غرفة الاستعلامات، مع دوران هذه الأسئلة ونشاط مخيلتي الذي ازداد تسارعًا تضاعف في داخلي الشعور بالخوف، وكنت مرعوبًا من فكرة أن تكون هناك مستجدات غير مطمئنة قد تم اكتشافها أثناء العملية مما

عقد الوضع وفرض على الجراح ان يستغرق وقتا طويلا في التعامل معها ومعالجتها. وما ارعبني اكثر امكانية وقوع اخطاء من قبل الفريق الطبي أثناء اجراء العملية. لذا كانت رغبتي شديدة في معرفة ما جرى والحصول على معلومات تفصيلية عن حالتها الصحية ما أن وصل الدكتور إلى الغرفة بنفسه لمعاينتها والاطمئنان عليها، ولم أتفاجأ عندما أخبرني بأن تقرير مختبر الدكتور أمل المفتي لفحص عينة الأنسجة المأخوذة من الثدي كان قد وصله قبل إجراء العملية بنصف ساعة، وجاء مطابقًا لتشخيصه، بمعنى أن الورم كان خبيثًا وليس حميدًا، ولكن المفاجأة بالنسبة لي عندما أخبرني بأن عمليتها كانت سهلة جدًّا، وأنه قد انتهى منها بأقل من الوقت القياسي الذي خمَّنه لها، حيث لم تستغرق سوى خمس وأربعين دقيقة وليس تسعين دقيقة، وسبب التأخير لا علاقة له بعمليتها إنما يعود إلى مريضة أخرى كانت قبلها من حيث التسلسل، فصادف أن واجه الجراح الذي يجري لها العملية بعض الإشكالات، فتجاوز على الزمن القياسي المحدد للانتهاء منها، آنذاك شعرتُ بالراحة وانزاح عني التوتر، ثم التفَتَ الدكتور إلى زوجتي وعبَّر عن إعجابه بما أبدته من صلابة لم يكن يتوقعها منها، ولمَّا وجدني مندهشًا من كلامه، استدرك قائلًا: في البداية اعتقدتُ بأنها ضعيفةً وهشةً، لأنني وجدتها ترتجف مثل سعفة عندما كانت مستلقية على السرير تنتظرُ دَورَها، وهذا ما لفت انتباهي أثناء ما كنتُ أنتظر أن ينتهي الجراح الذي يسبقني من عمله في تسلسل جدول العمليات، فاقتربت منها وسألتها لماذا ترتجفين، هل أنت خائفة؟ فأجابتني بأنها ليست خائفة أبداً، إنما الصالة باردة جدًّا، ولهذا أرتعش من البرد، فطلبتُ من إحدى الممرضات أن تجلبَ بطانية وتغطيها إلى أن يحينَ موعد عمليتها، ثم ابتسم الدكتور جمال وهو يشير إليها وعاد ليكمل حديثه معي، هل تتصور بأنها ما أن أفاقت من التخدير بعد أن انتهيتُ من العملية مباشرة، فإذا بها تلتفتُ إلى الطاقم الطبي وهي تحدِّق بهم واحدًا واحدًا وكانت ترتسم على وجهها علامات التساؤل، ثم توجهت بكلامها إليهم، ماذا تنتظرون؟ لماذا لم تجروا العملية حتى الآن؟ وهذا ما أثار دهشتنا جميعًا، لأن المتوقع في مثل حالتها أن يصدر عنها أنين أو صراخ، بينما هي على العكس من ذلك كانت طبيعية جدًّا، وكأنها لم تخضع لعملية

جراحية أُزِيلَ فيها ثديها كاملًا إضافة إلى سبع وعشرين عقدة لمفاوية من تحت إبطها الأيسر، ومع ذلك لم يصدر عنها أي صوت، في حين كان الوضع على النقيض من ذلك تمامًا بالقرب منها، إذ كانت هناك مريضة أخرى ترقد على سرير آخر في نفس الصالة، وقد استغرق معها أفراد الطاقم الطبي وقتًا طويلًا وهم يبذلون جهدهم حتى تفيق من أثر التخدير بعد الانتهاء من إجراء العملية لها، واستمرت محاولاتهم في صفعها على وجهها أكثر من مرة، وما ان أفاقت حتى بدأت تئنُّ ثم أخذ صوت أنينها يرتفع ليصلَ في النهاية إلى صراخ.

مضى ما يزيد عن نصف ساعة من الزمن على خروجها من العملية، ولم يصدر عنها ما يشير إلى أنها كانت تشعر بألم، كانت ترقد مستكينة على السرير، وهذا ما أثار انتباهنا جميعًا، خاصة وأنها كانت قد أفاقت ولم يعد أي تأثير لمفعول مادة التخدير عندما أوصلها العاملان البنغلاديشيان إلى الغرفة، وعلى العكس مما كان متوقعًا فقد بدت هادئة، رغم لون وجهها الشاحب والإنهاك الذي رسم حضوره بهالتين داكنتين تحت عينيها، خلال ذلك الوقت كنا قد جلسنا نحن الثلاثة أنا والزميلين محمد خيون وهلو جباري على الكنبة في الركن القصي من الغرفة بعيدًا عنها كي لا نؤثِّر عليها بينما كنا نتبادل أحاديث مختلفة بصوت خفيض تزجية للوقت، كان الصمت يقطعها بين فترة وأخرى، من ناحيتي كنت بحاجة إلى أن أبوح بما كان ينيخُ على صدري بعد أن أيقظني القدر من غفوتي، وأزاح من داخل رأسي كل غيمة كنت ألوذ بها في حقول أيامي التي دائما ما مرَّت عليها رياح الفصول الأربعة في الموسم الواحد، فصحوت اليوم على أشياء كثيرة لم أكن أراها ولم أبتل بسحر حضورها، وكأن غشاوة قد حجبتها عني مع أنها كانت دائمًا معي وحولي أينما كنت، وهذا يعني أننا نحن بني البشر غالبًا لا نرى، بينما نتوهم بأننا نرى ونحن ننساق مع تيار الحياة الجارف برغباتٍ وأهواء نظنها جِسر عبورٍ يمتد بنا إلى سعاداتنا المرجوة، فنستهلك بها أعمارنا وننساق إليها بمحض أرادتنا، "اسمحا لي من بعد أن أشكر كلَّ واحد منكما على وقفته إلى جانبي أن أصارحكما القول، في الواقع أنا لم أكن مُهيَّأً لأواجه مثل هذا الظرف أبدًا، رغم أني لم أولد وفي فمي ملعقة من ذهب، بل كنتُ

مُصطفًا في طابورٍ مَن يكدحُ ليسُدَّ كفاف يومه، فإذا بي أجدُني اليوم على موعد مؤجلٍ، وآمَلُ أن يصل بي هذا الموعد إلى مرفأٍ يشعرني بالاطمئنان، وأنا مدرك تمامًا أن الوقت سيطولُ برحلة العلاج إلى أن يأتي الدفء، وسأتوق إلى اللحظة التي أصل فيها إلى شاطئ النجاة مع من شاطرتني خبز حياتي بصبرها".

حَضَرتْ ممرضةٌ إلى الغرفة لاستبدال كِيس المُغَذِّي بعد أن نفد المحلول الذي بداخله، ثم تبعتها ممرضة أخرى لتساعدها في تغيير الثياب الخاصة بالعملية واستبدالها بالثياب التي كانت ترتديها عند دخولنا صباحًا إلى المستشفى، فأشارت لنا الممرضة الأولى بأن نخرج من الغرفة مؤقَّتا، عندها نهض الزميلان محمد وهَلو واستأذنَا بالمغادرة، وذَكَّرَاني بضرورة الاتصال بهما إذا ما احتجت إلى أي شيء حتى لو كان الوقت في ساعة متأخرة بعد منتصف الليل، وأصرَّ هَلو على أنه رهن إشارتي مع سيارته، وعليَّ أن أتصل به عبر الهاتف وأحيطه علمًا بموعد مغادرتنا المستشفى لكي يتولى بنفسه إيصالنا إلى البيت، ثم ودعتهما ورافقتهما حتى الباب الخارجي لمبنى المستشفى، لفت انتباهي وجود سوبر ماركت مفتوحة أبوابه على الجانب الآخر من الشارع، فاتجهت إليه لشراء بعض المعلبات الغذائية لأني لا أستسيغ تناول الطعام الذي يتم تقديمه في المستشفيات، مع أنه يوجد مطعم نظيف في الطابق الأخير من المستشفى، يقدم أصنافًا من الأكلات.

انتبَهَتْ إلى أن الصمت قد غلفني بوشاح سميك، ولم تتحرك عيناي عن نقطة قابعة في الفراغ بعيدًا عما يحيطني من أشياء، بينما كنتُ جالسًا على الكنبة قبالة سريرها وقدح الشاي الجاهز ما يزال مستقرًا في مكانه على المنضدة الموضوعة أمامي من غير أن أمد يدي لأرتشف منه منذ أن انتهيتُ من تناول الطعام قبل ربع ساعة، " بماذا تُفَكِّر؟ أرى أنك شارد الذهن، حتى إن شَايَك قد أصبح باردًا ولم تشربه "، سألتني وهي ما زالت ترقد في مكانها على السرير، " ليس هناك من أمرٍ مُهِم "، كنتُ أحاول بإجابتي أن لا أكشف لها ما يدور في داخلي من أفكار، لكنها تعرف جيدًا أين تكمن نقطة ضعفي، فأنا على استعداد أن أبوح بكل ما أُخفيه إذا ما

استحلفتني بروحِ جدَّتي التي اعتبرها بمثابة أمي لأنها تولّت تربيتي بعد وفاة والدي غرقًا في النهر وهو لم يزل شابًا في إحدى رحلاته التجارية بين الموصل ومدينة ماردين التركية، " بصراحة.. أشعر أن حياتي قبل هذه التجربة التي نمر بها اليوم، وأنا أستعيدها بذهني وكأنني كنتُ فيها مثل طائرٍ مستسلم لمتعة طيرانه في أعالي السماء الشاسعة، إذ لم تخطر على بالي أية أفكار مقلقة، مثل الشعور بالاغتراب أو الإحساس بالضياع، وحتى مسالة الموت لم تكن تشغلني أبدًا، أظنني كنتُ مُحمَّلاً بأوهام كثيرة لم أكن أراها الاَّ أحلامًا جميلة ستأخذني بعيدًا عن الطرق المرتَّقةِ بالحروب في مدننا التي تمضي الأيام فيها بعكس اتجاه عقارب الساعة، فلم أصغ إلَّا لصوتي، ولم أتبِع إلا ما يقودني إليه حدسي، ومن هنا شطبت من ذاكرتي، ومنذ وقت مبكر أي فرصة لمراجعة عيادات الأطباء والمستشفيات إذا ما أصابني مرض، بَعدَ أن ترَسّخت في داخلي قناعة ذاتية استطابت لي، ولم تكن مبنية على رأي عِلمي، إنما مجرد استنتاج ذاتي، استلهمته من جدَّتي التي لم يكن يَشكُّ بحكمتها كل من عرفها، وكانت حكمتها لا تقلُّ دهشة عن خبرتها العجيبة في خياطة الثياب لنساء الحي والأحياء المجاورة، مع أنها كانت تجهل القراءة والكتابة، فكان من الطبيعي أن لا تعتمد على دفتر خاص لتسجيل مقاسات النساء، إنما على كفِّها حيث تقيسُ به وكذلك فطنتها، وتكفيها فقط نظرة واحدة إلى أي امرأة لتُجري مقارنة قياساتِها مع نماذج تختزنها في ذاكرتها لقياساتٍ تشمل كل الأحجام المعروفة والمحتملة، ولا أذكر أبدًا أن امرأة قد عادت إليها في يوم ما وهي متذمرة أو شاكية لأن جدتي قد أخطأت في قياسات فستانها، كما لا أذكر أيضًا أنها قد راجعت عيادات الأطباء خلال سنوات عمرها التي تجاوزت السبعين عامًا حتى وفاتها في صيف عام 1984 بعد أن أصيبت بجلطة دماغية فقدت على أثرها ذاكرتها، وكثيرًا ما سمعتُها تردِّدُ أمام النساء وهي تجلس وراء ماكنة الخياطة بأن المرض بطبعه خبيث، مثل كثير من البشر، ولأنه خبيث فهو ينجح غالبًا بالسيطرة على كُلِّ من يستسلم له، ففهمتُ من خلالها بأن المرض لديه مجسَّات حساسة مثل الإنسان، يستطلع بواسطتها قدراتنا ليُشخِّص مناطق الضعف فيها قبل أن يتسلل إلينا ويهاجمنا، وأول ضحاياه

هم الذين يخافونه ويرتعبون منه، وهؤلاء هم الذين نجدهم دائمًا يراجعون الأطباء والمستشفيات مع أبسط تغير قد يشعرون به، ومن هنا سقطتُ في شباك هذه القناعة وأصبحتُ عنيدًا مع نفسي مثل جدتي، فلا أذكر أنني قد راجعت طبيبًا إذا ما وقعتُ طريح الفراش، باستثناء طبيب الأسنان لقلع سنٍ أصابه التسوس، أنا الآن أتذكر حديث جدتي عن المرض بعد أن بدأتُ أستشعر ما ستُصبِحُ عليه حياتنا على أثر هذه التجربة، فلا أشكُّ أبدًا في أنها قد انحرفت عن مسارها المنتظم الذي كانت تسير عليه بانعطافة حادة، ولهذا انقلبَت راسًا على عقب، فإذا بنا نصحو من غفوة أيامنا لنجد أنفسنا وسط مشهد لم نكن نتوقع تفاصيله أبدًا، وليس لدينا أي خيارات في أن نحتفظ بنمطية حياتنا التي تعوَّدنا عليها وتأقلمنا معها وكانت تمنحنا توازنًا مع أنفسنا ومع العالم المحيط بنا، لذا يتوجب علينا أن نستعد كلانا للمرحلة المقبلة من العلاج، وهي مرحلة طويلة، وستظهر بسببها نتائج وأثار قد تؤلمنا وتزعجنا ولا بدَّ أن نتحملها ونتقبلها، مثل تساقط شعر رأسك بسبب الجرعات الكيمائية، وهنا قاطعتني وقالت بأن مسالة الشعر لن تأخذ من تفكيرها كثيرًا، لأنها مُحجَّبة ولن يبدو عليها أي تغيير، ثم وجَّهَتْ كلامها لي بصيغة سؤال: "هل نسيتَ أنني محجبة؟"، "كيف لي أن أنسى! ومع ذلك أنا من ناحيتي يتوجب عليَّ شخصيًّا مواجهة هذا التغيير العاصف في عالمي الذي كنتُ قد تآلفتُ معه واسترخيتُ على شاطئه مستمتعًا بالاستلقاء على رماله والاغتسال بمياهه، عالم مؤثث بمتع صغيرة عناوينها كتب وأفلام ومسرحيات وموسيقى لا أكثر، ولم يشغلني عن هذا العالم أي شيء آخر، حتى الأخبار السياسية بكل قسوتها، كان من السهولة بمكان أن أستهزئ بها بمجرد أن أستعين برواية أو فيلم أو مقطوعة موسيقية، وأنتِ تعلمين خلال الأيام الأربعة التي مضت، منذ أن ظهرت أولى علامات المرض انفصلتُ تمامًا عن هذا العالم وكأنَّ ستارة قد أُسدِلت عليه مُعلنةً إيقاف العرض إلى إشعار آخر، لا أخفيك سِراً إذا ما قلتُ لكِ بأني لم أعد أشعر بنسمة الهواء الباردة إذا ما هبَّت عليَّ في صيفنا اللاهب، ولا بطعم الماء وأنا في ذروة عطشي، ولا بالنعيم حتى لو كنتُ في الجنة، وكل الأشياء التي عادة ما

يحتفي بها الناس في حياتهم اليومية، لم تعد بالنسبة لي على طبيعتها، بات مذاقها بطعم الفراغ، إلى أن تتماثلي للشفاء وتعودي معافاة كما كُنتِ ".

رنَّ هاتفي فتوقفت عن الحديث، لأعاينَ الرقم على شاشة الموبايل، فعرفت من خلال الاسم بأن المتصل هو الشقيق الأكبر لزوجتي، فشعرت بارتياح كبير، لأن الاتصال قد تحقق أخيرًا وجاء في توقيته المُرتجى، وبعد أن طمأنته بنجاح العملية، أخبرني وبصوت منخفض بأن جميع أفراد العائلة قد اجتمعوا ليسلموا عليها، الأم والأب والأشقاء الأربعة، فاستأذنته أن يفتح كامرة الهاتف إذا كان ذلك ممكنًا، لأني مدرك تمامًا خطورة الاتصال عبر الهاتف من الموصل، ولهذا وحسب ما أخبرني فقد اختاروا الغرفة التي تقع في صدر البيت حتى يكون صوتهم أبعد ما يكون عن الباب الخارجي فلا يتمكن أي مستطرق في الزقاق أن يسمعهم فيشي بهم لدى اللجنة الأمنية لتنظيم الخلافة، ولربما سيضعهم ذلك في مأزق خطير لا تُعرف نتائجه، كنتُ على يقين من أن بئر المشاعر ستفيض بينهم على ما فيها من عواطف متأججة بنيران الحنين والمحبة والشوق، وسيكون من الصعب عليهم أن يسيطروا على أنفسهم ما أن يتحقق الاتصال فديويًا، فقد مضت سنتان على الفراق، وحالت دون أن يتحقق هذا اللقاء في الواقع وليس عبر الهاتف سلطة الرعب التي هيمنت على الموصل منذ العاشر من شهر حزيران 2014 ولهذا بكى شقيقها الأكبر ما أن رآها، فخنقته العَبرَة ولم يستطع أن يُكْمِل سؤاله عن صحتها، ولمّا أمسَك والدها بالهاتف بدلًا عنه، غلبته هو الآخر عاطفته الأبوية واغرورقت عيناه بالدمع، وسرى تيار المشاعر بين الجميع فبكت والدتها أيضًا، لكن والدها، بما أعرفه عنه من صلابة وجَلَد تحايل على عواطفه فتمالك نفسه وأكمل حديثه معها وظلَّ يدعو لها بالشفاء ولم يفته أن يطمئنها بأن لا تعير اهتمامًا بأي تكاليف تتعلق بالعلاج وأنه مستعد أن يرسل لها أي مبلغ تحتاجه، ومن خَلْفِ والدها مَدَّ شقيقها الأوسط رقبته للأمام واتكأ بحنكه على كتفه وأخبرها بأن الله قد رزَقه بولدٍ سمَّاهُ عبد الملك، كما أخبرتها والدتها بأن شقيقتها الصغرى قد تزوجت قبل أسبوعين، وستبقى هي تدعو لها في كل صلاة، ورغم شحنة المشاعر المُتّقدة بلوعة الاشتياق والتي خيمت على اللقاء الفديوي إلا أنني كنت مشغولًا برصد

التغيرات التي نالت من الجميع، فقد كانت صادمة بالنسبة لي، ولم أكن أتوقع أن تمضغ العزلة نضارتهم ليكونوا على هذه الصورة التي لم تكن تشبه حقيقتهم، وأحالت بهجتهم في الحياة إلى ظلال شاحبة منزوية خلف جدران عالية، فتساءلت مع نفسي عن الحال المضني الذي يقبعون تحت سلطته وأنا أنظر إليهم وأستشف من نبرات أصواتهم حسرة مكبوتة بين أضلعهم، ووجعًا في الروح لن تُطفئَ جمرته كلمات المواساة، لم يكن ممكنًا أن ينفرج الحديث بيننا وبينهم على بساط الراحة، لأن أذان التنظيم كانت مزروعة بين الجدران التي تعزلهم عن العالم، فاختُزِلَ اللقاء على تبادل السلام والتحيات والسؤال عن الصحة والأحوال ولم يذهب أبعد من ذلك، فما كان مني إلا أن أطلق العنان لمخيلتي علّني أُلملِم بقايا المشهد المتناثرة خلف الصورة التي كنتُ أتابعها على شاشة الهاتف، فارتسمت في ذهني حقيقة الحياة المعبأة بالخوف والتوجس التي كان يرزح تحتها سكان مدينة الموصل، وعمَّق تفاصيل هذه الحقيقة ما لاحظته من تغيّر كبير قد زحف إلى ملامحهم جميعًا، حتى إني لم أتعرف عليهم للوهلة الأولى خاصة الرجال بعد أن أجبرهم تنظيم الخلافة على إطلاق لحاهم، فكانوا لكثافتها أشبه بسجناء قابعين في أقبية لم تصلها أشعة الشمس سنين طويلة.

بعد اللقاء الفديوي العاصف، أزحتُ الستارة قليلا عن نافذة الغرفة لألقي نظرة على الحياة خارج المستشفى لأُبدِّد صمتًا ثقيلًا حطَّ على صدري، فأيقنت لحظتها مدى العنفوان الذي يسري في تفاصيل صغيرة من دورة أيامنا خارج جدران المستشفى، بعد أن تابعتُ الحركة الطبيعية للناس في الشارع وكنت مسحورًا بها وبجمالها وشفافيتها، مع أني قد عشتها ورأيتها ملايين المرات، لكني لم أشعر بها كما شعرت بها في تلك اللحظة، ولم أنتبه إلى لمستها العبقرية الناعمة ولا إلى النور المنبعث منها، فنحن عندما نكون أصحاء، ونشعر بالقوة الجسدية عادة ما نلهث وراء أوهامنا ونجري خلفها مثل الوحوش، فتقودنا خطواتنا إلى فلواتٍ ونظنها فراديس.

لمَّا كنتُ أراقب الأشياء من خلف النافذة أحسست وكأني أبصر الحياة للمرة الأولى وهي تغمرني بالدهشة والسحر، فأيقنت بأن السعادة تسري في

نسـغ حياتنـا وتـورق أغصـانها فـي كـل ثانيـة، وهـي موجـودة فينـا وحولنـا، حتـى بمـا نعتقـده قبيحًـا، ودون مقابـل تمنحنـا عطرهـا، ونعجـز تمامًـا عـن تعـداد حضـورها المرئـي، فكيـف بحضـورها المخبـوء فـي كـل زاويـة مـن هـذا الكـون، وهـذا لأننـا عميـان، لكننـا ومـا أن تحـين سـاعة القـدر لنخـرج مـن مملكـة الحيـاة ندرك آنذاك فداحة ما فقدناه.

6

رياح الانتظار

خيط رفيع نعجز عن الإحساس به يفصلنا عن معنى وجودنا، وعلى سرير المرض غالبًا ما نتوصل إلى اكتشافه، بعد أن نواجه حقيقتنا عارية، وندرك مدى هشاشتنا أمام غطرسة الزمن، فتتبدد أوهامنا المثقلة ببريق من الخواء، تلك التي قادتنا إلى أزمنةٍ من قش، لكنَّا وجَدْنا فيها ماكُنّا نعتقد أنها ذخائرنا التي ستُفتَحُ أمامها نوافذ وأبواب وتنحسر تحت بريقها الحسرات، كنَّا على موعد مع متغيراتٍ غير مُنتَظَرةٍ، وستجرف رياح الانتظار الكثير من تفاصيل حياتنا بعد أن نغادر المستشفى ونعود إلى البيت، فما أن أوشك الدكتور جمال على الانتهاء من معاينتها حتى أتى بحركة خفيفة من رأسه إشارةً منه بأن الحَقَّ به، وكان حريصًا على ان لا يثير انتباهها، فتبعته كما لو أني أتصرف بشكل طبيعي من باب اللياقة والاحترام لمكانته، ولمَّا أصبحنا في الممر بعيدًا عن الغرفة بدأ حديثه معي مؤكدًا على أن أهتَمَّ بما سيقوله، لأنه مرتبط بما ينتظرها في مراحل علاجها المقبلة.

ابتِداءً حذَّرني من مغبة الانزعاج إزاء ما قد يطرأ عليها من تحوّلٍ ملموس في ردود أفعالها، لأنها ستكون عرضة لخليط من مشاعر التوتر والإحباط واليأس والاكتئاب، واعتَبَر ذلك أمرًا طبيعيًا رغم ما أبدَتُه من إرادة قوية أثناء وبعد العملية، إلا أن المتغيرات في حالتها النفسية من الممكن أن تصبح عائقًا أمام شفائها، عندما ستخضع لجلسات العلاج الكيميائي وأشعة الليزر في المراحل القادمة إذا لم نحسن استيعابها، ولهذا أوصاني بأن يتقبَّلها الموجودون في البيت لأنها ستكون تحت ضغط نفسي واجتماعي في آن.

لم أسقط في دائرة من الخوف وأنا أصغي لكلام الدكتور، لأني خلال الأيام القليلة الماضية كنت قد بدأتُ بجمع أي معلومة تتعلق بسرطان الثدي داخل ملف خاص خزنتُهُ في حاسوبي، فكنت حريصًا على أن أقطع مسار الوقت

الـذي يجـري بسـرعة وأنـا أقلـب المواقـع الالكترونيـة عبـر هـاتفي الشخصـي لاجتيـاز حـدود الجهـل الـذي يحـيط بـي إزاء هـذا المـرض، لكـن الجديـد الـذي أثـارني فـي حـديث الـدكتور أنـه أيقظنـي أمـام مـا ينتظرنـي مـن مهمـات، فقـد وضـعني أمـام مسـؤولية كبيـرة سـتجعلني أبـدو كَمَـن يصـعد سـلالم ناطحـة سـحاب معتمـدًا علـى قدميـه حتـى يصـل إلـى آخـر طـابق، وهـذا يعنـي أن يقسِّـم جهـده ليحـتفظ بلياقتـه، ولمـا أخبرتـه بـأن لا أحـد مـن أفـراد عائلتَينـا يسـكن معنـا أو بـالقرب منّـا، لأن جمـيعهم يقيمـون فـي الموصـل، عنـدها قـال لـي: "هـذا الوضـع ربمـا يبـدو أفضـل بالنسـبة لهـا علـى الـرغم صـعوبته عليـك أنـت شخصـيًا، لأنـك سـتتحمل ولوحـدك مسـؤولياتها التـي كانـت تتولاهـا فـي إدارة البيـت"، مـن الواضـح أنـه لـم يكـن ينتظـر إجابـة منـي، لأن حدسـه كـان يقـوده بسـهولة إلـى توقـع مـا سيصـدر فـي مثـل هـذه الحـالات مـن ردود أفعـال، باعتبـاره قـد تعامـل مـع مئـات النمـاذج الإنسـانية التـي خبِرهـا مثلمـا خَبِـر أنسـجة وشـرايين الجسـد الإنسـاني وعـرف كيـف يصـل إليهـا بمشـرطه، ولهـذا اسـتَبَقَني قـائلا: "لـيس أمامـك مـن خيـارٍ آخـر"، وفـي محاولـة منـه لفـتحِ نافـذة مـن الأمـل لمَّـا وجـدني لـم أعلِّـق علـى مـا قالـه واكتفيـت بـأن اسـتدرت بـوجهي ناحيـة النافـذة الواسـعة المطلـة علـى الشـارع تـابع حديثـه قـائلا: "أرجـو أن لا تبتـئس، لأن الوضـع الـذي أنـتم عليـه فـي البيـت بتقـديري هـو الأفضـل بالنسـبة لهـا، وسـوف يسـاهم كثيـرًا فـي تـوفير بيئـة هادئـة هـي بـأمس الحاجـة إليهـا، طالمـا لـيس هنـاك فوضـى قـد يتسـبب بهـا أطفـال فـي مـا لـو كـان هنـاك آخـرين يشـاركونكم المسـكن"، ثـم كـرَّر علـى مسـامعي وصـاياه: "مـن المهـم السـير علـى السـياق الـذي يـوفر لهـا الـدعم النفسـي فـي البيـت، لأنـه يمثـل نصـف الشـوط فـي معركـة مواجهة المرض بينما النصف الآخر ستتكفل به الأدوية التي ستتناولها".

تفاصـيل كثيـرة داخـل لوحـة حيـاتي الشخصـية ستخضـع هـي الأخـرى إلـى التأجيـل حتـى إشـعار آخـر بعيـدًا عـن سـياق طقوسـي اليوميـة التـي اعتـدت الركـون إلـى تناسـقها، فكـان لا بـدَّ مـن أن أتحمَّـل يوميًـا ولمـدة أسـبوع مسـؤولية تفريـغ علبـة بلاسـتيكية بحجـم الكـف مـا أن تمتلـئ بخلـيط لـزج مـن الـدم والمـاء كـان ينسـكب فيهـا مـن خـلال أنبـوبين بلاسـتيك رفيعـين طولهمـا بحـدود 70 سـم ينفـذان إلـى داخـل العلبـة عبـر فتحتـين ضـيقتين تمنعـان تسـرّب السـوائل

خارجها، وينتهي الأنبوبان من الجهة الأخرى في فتحتين صغيرتين جدًّا داخل جسدها، الفتحة الاولى تحت الإبط الأيسر حيث المكان الذي أزيلت منه سبع وعشرون غدّةً لمفاوية، والثانية في منطقة الصدر من الجهة اليسرى أيضا، وفي نفس مكان الثدي الذي تمت إزالته نهائيا ولم يبق منه سوى قطعة جلدية تمت خياطتها على شكل خط أفقي متعرج.

للتخفيف مما كنت أشعر به من ضغط نفسي شديد، شعرت برغبة قوية للخروج من البيت والقيام بجولة قصيرة في المتنزه الذي لا يبعد عن بيتي سوى خطوات معدودة، كنت بحاجة إلى أن اكون وحدي أكثر من أي وقت آخر، ولم أغادر إلا بعد أن تأكدت من أنها قد خلدت إلى النوم، ثم ناديت على ولدي الذي كان يراجع دروسه في غرفته الكائنة في الطابق الأول وطلبت منه أن يتصل بي إذا ما شعر بأنها ليست على ما يرام، في المتنزه انتبهت على أسناني التي كانت تصطك بعنف بينما كنت أتساءل مع نفسي لماذا عاقبني القدر على هذه الصورة وكأنه عقاب إلهي على خطأ ارتكبته متعمدًا؟، في حينه بدأت أنساق في دوامة تفكيري إلى نفس الدائرة المغلقة التي اعتاد عامة البشر أن يُرجِعوا الأسباب إليها إذا ما وقع عليهم خطب ما، لكني سرعان ما تراجعت عن هذه الفرضية الغيبية، على الرغم من أنها تبدو واقعية لكثير من الأشخاص الذين سبق لهم أن ارتكبوا جرائم بحق الآخرين، وبقدر تعلقها بي فهي تبدو أبعد من أن تكون منطقية، لأني لم أرتكب جرمًا حتى أتلقى عقابًا، نعم قد أكون لا مباليًا إلى حد ما، مقارنة مع آخرين، رغم أني شديد التعاطف مع من يقع في محنة، لكني لا أبذل ما يكفي من الجهد لمساعدتهم، ولا أظن ذلك يستوجب هذه العقوبة، لكن لا، من غير المعقول أن يصل بي التفكير إلى هذا المستوى من السذاجة كما لو أنني شخص غير متعلم، ربما التفسير الأكثر واقعية لهذه التجربة إننا ندفع ثمنًا باهظًا جراء تلك الأسلحة المحرمة دوليًا التي جربها علينا الأمريكان بعد غزو الكويت وفي الحرب التي تلتها عام 2003، وهل من المعقول أن أرفع إثم الخطيئة عن كاهل من ارتكبها وألقيها على كاهل الضحية! ثم مَن أكون أنا وبكل أخطائي، أمام أولئك الذين تسببوا في قتل ملايين البشر؟.

صباح اليوم الثالث من بعد عودتنا إلى البيت وبينما كنت قد انتهيت من إعداد مائدة الفطور لاحظتُ تغيُّرًا في مزاجها، وبدا ذلك واضحًا في إلتزامها الصمت لفترة طويلة، وظلت ساهمة كما لو أنها منفصلة تمامًا عمّا يدور حولها، كانت مستغرقة في عالم آخر، وارتسمت على وجهها علامات توحي بسقوطها في حالة من القنوط جعلتها أشبه بجزيرة معزولة بمياه عميقة عما يحيطها من كل الجهات، حتى إنها لم تفتح التلفزيون ولم تعد مهتمة بمتابعة القنوات الفضائية المختصة بفنون الطبخ التي كانت قد وضعتها في مقدمة القائمة المفضلة لديها، حاولتُ أن أخرجها من الحالة التي كانت عليها من غير أن يبدو ذلك مقصودًا، فتحتُ التلفزيون وبحثتُ عن قنوات الطبخ وتوقفت عندها، ثم ناولتها الريموت كنترول، فأتت بإشارة من يدها تعني بأنها لا ترغب بذلك، وبقيت تعابير وجهها كما هي دون تغيير، ولأني كنتُ مستعدًا لأي رد فعل قد يصدر عنها، فما كان مني إلا أن أخفضت صوت التلفزيون ثم التفتُ إليها لأستفسر منها عما إذا كانت تشعر بألم؟ لم تكلف نفسها بالرد عليَّ واكتفت بأن هزَّت رأسها هزة خفيفة دون أن تنظر إلى ناحيتي، ومضت على هذا الحال بقية اليوم.

قبل أن تميل الشمس إلى الغروب نهَضَت لكي تتوضأ بعد أن انتبَهتْ إلى صوت المؤذن يدعو إلى صلاة العصر آتيًا من الجامع القريب إلى بيتنا، وبدا عليها الشعور بالانزعاج، فأخذت تتأفف، ثم أطلقت زفرة قوية وهي تنظرُ إلى العلبة التي كانت تتدلى من تحت ثيابها، فقد كانت تعيقها كثيرًا وتحد من حركتها خاصة أثناء النوم وعندما تعتزم الدخول إلى الحمَّام، لأنها تصبح ثقيلة ما أن تقترب من الامتلاء، ولهذا عمِلتُ على تغليفها بشكل محكم بكيس من النايلون ثم ربطتُّها بحبل رفيع وطويل من الجانبين حتى يسهل تعليقها من جهة الكتف الأيمن لتبقى متهدلة ومستقرة على الجانب الأيسر من جذعها وتحت ملابسها وهذا ما سيجعل وزنها خفيفًا، وكنت حريصًا على معاينتها بين فترة وأخرى للتأكد منها في ما إذا كانت قد امتلأت حتى أفصلها عن الأنبوبين، وأذهب بها إلى الحمّام لتفريغها وتنظيفها، ومن ثم إعادة ربطها من جديد، وهذا ما أوصاني به الدكتور بعد أن طمأنني بأن عملية إفراز هذا الخليط أمر طبيعي جدًّا، وسيتولى هو

بنفسه رفع الأنابيب والعلبة في نهاية الأسبوع عندما نراجعه في عيادته ولن تعود بحاجة إليها، وشدَّد على ضرورة أن لا تشعر بالخوف إذا ما وجدت انتفاخًا في نفس مكان العملية بعد رفع الأنابيب لأن الانتفاخ يعني أن السائل الذي كان يفرزه الجسم والذي عادة ما كانت تستقبله الغدد اللمفاوية قبل العملية قد بدأ يتجمع تحت الجلد طالما لم تعد لديها غدد لمفاوية لتستقبله، وسيكون حجم الانتفاخ حسب كمية السائل، وبعد مدة زمنية تتراوح ما بين شهر أو شهرين سيتوقف الإفراز نهائيًا.

بقدر ما كنتُ واثقًا من معرفتي بأدق التفاصيل المتعلقة بشخصيتها، خاصة ما يتعلق بطبيعتها النفسية، إلا أني بعد خروجها من المستشفى وجدتني في كثير من اللحظات وكأني أمام امرأة أخرى أجهل ردود أفعالها، وعليّ أن أبذل جهدًا حتى أستوعبها وأتقبَّل مزاجها، إزاء هذا الحال أصبحت أمام خيار مزدوج، فمن جهة كان علي أن أراعي وضعها المعقد ومن جهة ثانية كان لا بدَّ من أدلف إلى داخلي وأشرع في تثليم مزاجي الذي يتسم بالحِدَّة، خاصةً عندما أتعرض لضغط ما.

لم أفكر بالتراجع عن مسؤوليتي تجاهها ولو بخطوة واحدة إلى الوراء، بل ازددتُ إصرارًا على المضي فيها حتى آخر الشوط، رغم إدراكي لثقلها، وبدأت أحاسب نفسي إذا ما داخلني أي شعور بالانزعاج كلما نظرت إليها ووجدتها مثل زهرة قد مالت أوراقها إلى الذبول، بعد أن كانت تفيض صحة وحيوية وهي تعمل طيلة ساعات النهار حتى يكون بيتنا واحة آمنة نلوذ بها بعد مشاق العمل، فعاهدتُ نفسي على أن أكون حذرًا في تعاملي معها حتى لا أُسبِبَ لها آلامَاً جديدة فوق الآلام التي تتحملها، وإزاء ذلك كان عليَّ أن أخوض معركة مع نفسي حتى أتمكن من هزيمة نزقي لاستيعاب أي صدمات قد تواجهني في دوران الأيام القادمة وحمولاتها المعبّقة برائحة المطهرات والكيميائي وأشعة الليزر وهي تحاول اجتياز محنتها، وإلَّا ستضعني التجربة أمام عجلاتها وتسحقني إذا لم أكن معها في كل خطوة وعلى قدر كبير من ضبط النفس .

هناك حدود لكل شيء، ومن غير المعقول أن تكون الأشياء سائبة في الفراغ بما في ذلك مشاعر وأحاسيس الإنسان، وما يشعر به من تحولات نفسية نتيجة ما يواجهه من مؤثرات، والتي ستجعل حضوره الإنساني يتخذ شكلًا معروفًا به، ولكن هذا الشكل لن يبقى ثابتًا طالما يتعرض لضغوطات، فإذا به يخرج عن صورته المعتادة ويصبح شخصًا آخر، حتى أنك تفقد كل وسائل التواصل معه وتعجز عن مساعدته ليستعيدَ نمطية شكله الذي يعبّر عن حقيقته الجوهرية، هذا ما أصبَحَتْ عليه بعد يومين من عودتها إلى البيت، حيث بدت متوترة وأخذت أعصابها تنفلت لأبسط الأسباب، أذكُر أنها بينما كانت تجلس صامتة على الكنبة في صالة الاستقبال انتبهتُ إلى أنها مدَّت يدها ناحية العلبة وهي تتدلى من تحت ثيابها وكأنها تعتزم انتزاعها "ماذا تفعلين ؟ " سالتها بعد ان نهضتُ من مكاني وأصبحت قريبا جدًّا منها وأمسكتُ بيدها " لم أعد أحتمل هذه العلبة والأنابيب " كانت نبرتها تشير إلى أنها كانت تشعرُ بجزع كبير، فما كان مني إلا أن أعيدها برفق إلى مكانها حيث كانت تجلس، "أين ذاك الصبر، وأين الإيمان الذي كنت أحسدك عليه، وأين هي الحكمة؟"، وكأنها لم تسمعني فإذا بها تحاول مرة أخرى أن تمدَّ يدها لتنتزع الانبوبين من العلبة، لذا كان لا بدَّ من أبذل جهدًا كبيرًا وأنا أحاول إقناعها بخطورة ذلك، معيدًا عليها كلام الدكتور بأن هذه الأنابيب مع العلبة سيتم التخلي عنها نهائيًا في نهاية هذا الأسبوع، ومن بعدها سيتولى الدكتور بنفسه سحب السائل المتجمع بواسطة سرنجة خاصة كل يوم أو يومين، ومع ذلك عجزتُ عن إقناعها، ولما وصلتُ معها إلى طريق مسدود، وخشيةً من أن ترتكِبَ خطأ ما بسبب مزاجها الذي أمسى متعكرًا ولربما يؤدي بها إلى انتكاسة صحية، كان لا بدَّ من اللجوء إلى حلٍّ واقعي آخر، فاضطررت إلى الاتصال بشقيقها الأكبر عبر الهاتف مستنجدًا به، لعله ينجح في أن يطمئنها، نظرًا للعلاقة القوية التي تربطهما معًا.

لا تعادل ثقل تجربتي مع مرضها سوى الفترة التي استُدعِيتُ فيها لأداء الخدمة العسكرية في ذروة أيام الحرب العراقية الإيرانية، فما أن تخرجت من الكلية حتى أصبحت وجهًا لوجه أمام عربَدتها وعبثها وسخريتها، وبسببها عشتُ ظروفًا لم أكن أتخيل أن أعيشها، ومنها ما كانت استثنائية

عنها لظرافتها، فما زلتُ أذكر أول يوم لي في الجيش، عندما سلمني النائب ضابط المسؤول عن المذخر، ملابس عسكرية جديدة مغلفة بكيس من النايلون مع بسطال، فعدت بها إلى غرفتي في الفندق الذي أقمت فيه مؤقتا في العاصمة بغداد، وكان يتوجب علي أن أنهض في تمام الساعة الرابعة صباحًا لاستقل الباص من ساحة الميدان حتى أصل معسكر التاجي في الخامسة ولا أتأخر عن التعداد الصباحي في ساحة العرضات، ولما استيقظت من النوم وارتديت ملابسي العسكرية لم أتمكن من معرفة الطريقة الصحيحة لربط الشريط الخاص بالبسطال، وبقيت في حيرة من أمري، فما كان مني إلَّا أن أطرق باب الغرفة المجاورة التي كان يقيم فيها صديق قديم من أبناء مدينتي كان قد سبقني بعام واحد في أداء الخدمة العسكرية، فطلبت منه أن يعلِّمني كيفية ربط الشريط، للوهلة الأولى بدَا طلبي بالنسبة له مزاحًا سمجًا في تلك الساعة المبكرة، حيث الظلام ما يزال يخيم على بغداد، ولمَّا أكدت له بأني حقيقة لا أعرف، أطلق ضحكة بصوت عالٍ، وما أن انتبه إلى أن معظم رواد الفندق ما زالوا يغطون في النوم حتى كتمها بسرعة بعد أن ضغط بكفه على فمه، ثم مدَّ يده وأمسك بفردتي البسطال وقال لي: "تنقصك الكثير من الخبرة في الحياة، وستواجه أيامًا صعبة طالما لا تعرف كيف تربط شريط البسطال".

7

هل أحسدها؟

نحن مثل بقية الأشياء، مثل ورق الأشجار، أو طائر يحلق في الفضاء، مثل قطرة ماء وذرة هواء، نحن جزء من هذا الحضور اللامتناهي، يجمعنا ويحركنا شيء غامض، مكانه ليس ببعيد عنا، إنه كامِن بداخلنا، ومع ذلك فأنا أجهل أين يكون، هل في أصابعنا أم في أضلعنا أم في رؤوسنا أم في شراييننا، أم...؟ دائما ما أفكر في كيفية الوصول إليه، وهو أشبه بشعاع من نور يرسل طاقة الحياة فينا، مع أن العتمة شديدة حولنا.

وفي ما يتعلق بها، هي أيضًا تعيش حياتها مثلي تحت سطوة هذا الغياب الذي يقلقني، لكنها أبعد ما تكون من أن تشبهني، لأن غيابه يعني حضوره كاملًا فيها، وفي كل ثانية تمرُّ عليها تشعر به وتسبّحُ باسمه، فلا يقلقها أين يكون، طالما هو كائن في كل شيء، لأنها تعرفه في غيابه أكثر مما تعرفه في حضوره.. فهل أحسدها؟

لم تنقطع عن أداء واجباتها المنزلية التي اعتادت عليها، رغم ما كانت تعانيه من متاعب صحية وضعف بدَا واضحًا في قدرتها البدنية، إضافة إلى ما كانت تسببه لها من إزعاج، العلبة البلاستيكية التي كانت تتدلى من تحت ثيابها وتتأرجح أمام قدميها فترتطم بها أثناء قيامها بأي حركة، خاصة عندما تمتلئ بالدم والسوائل اللزجة، وفشلت كل محاولاتنا لإقناعها بأن تجلس على الكنبة وتستريح، وسنتحمل بدلًا عنها، أنا وابني محمد، إنجاز ما يحتاجه البيت من أشغال، بما في ذلك التنظيف والطبخ إلى أن يتم رفع الأنابيب والعلبة عنها في نهاية الأسبوع، وما عليها سوى أن توجِّهنا فقط، كانت تنظر إلينا بزاوية من عينيها ثم تكتفي بابتسامة خفيفة ساخرة ترسمها على شفتيها ثم تقول: "اقتراح عبقري" وتتبعها بجملة قصيرة دائما ما كانت ترددها " في هذه المسالة لا فائدة منكما، لأنكما تخربّان المعمور"، ثم

تمضي إلى المطبخ بحركة بطيئة فيها حرص شديد على أن لا ترتطم قدمها اليسرى بالعلبة، ومن دون أن تلتفت إلينا بعد أن أخذتنا نوبةٌ من الضحك.

لا أذكر في يوم ما أنني دخلت المطبخ ووقفت إلى جانبها لأجل أن أساعدها أو أتعلم منها، فعالم الطبخ بالنسبة لي أعقد من عالم الرياضيات، ومن ناحيتها فهي على يقين من أنني إذا ما اقتحمته فسأحيله إلى فوضى، فما من شيء سيبقى في مكانه، لا علب بهارات، ولا قنينة زيت الزيتون، ولا كيس فانيلا، وستصاب بالذهول وتفقد أعصابها قبل أن تعيد كل شيء إلى مكانه المعتاد، ولأجل أن يبقى النظام فيه سائدًا وفق ما تشاء وترغب، اقتصرت مهمتي على أن أستلم ورقة صغيرة بين يوم وآخر مكتوب عليها قائمة بالمشتريات الغذائية ويتوجب علي شرائها من سوق شيخ الله وسط مدينة أربيل، ولهذا لم أجد غرابة في إصرارها على أن تبقى تمارس دورها التقليدي باعتبارها ربة المنزل والمسؤولة عن رعايته ورعايتنا رغم مرضها ووزنها الذي تناقص بشكل واضح خلال أسبوع واحد بعد العملية الجراحية، وحتى عندما كانت تتأفف وتبدي تذمرًا لم يكن لدي أدنى شك من أن ذلك لم يكن بسبب تقاعسها عن العمل، إنما لأن جرح العملية لم يندمل بعدُ، وقواها ما زالت ضعيفة، فكانت تجد صعوبة في إتمام عملها، وهذا ما كان يزعجها.

لا أستطيع أن أنكر بأن ضميري بات يؤنبني، عندما كنت أتابعها وهي تتحرك ببطء وتثاقل واضحين بينما هي تتنقل بين أركان البيت لأجل أن تحافظ عليه نظيفًا ولا تسوده الفوضى، وما كان أمامنا إلا أن نرضخ لإرادتها وننساق مع رغباتها مراعاة لحالتها النفسية، بعد أن وجدناها تستعيد شيئا من حيوتها ويختفي توترها ما أن تكون مشغولة بالعمل، ولهذا لم نعد نحاول ثنيها عن الاستمرار بأعمال الطبخ والتنظيف، وبدأنا نبذل جهدًا في مساعدتها، ومع ذلك لم تنقطع سخريتها منّا إزاء ما ننجزه من أعمال، وفي الواقع أننا كنا نتعمَّد أنا ومحمد في ارتكاب بعض الهفوات الصغيرة عندما نساعدها في غسل أواني الطعام، مثل أن نترك أثرًا بسيطًا من بقايا الأكل في واحد من الأواني لأننا نعلم جيدًا بأنها ستبدأ في إطلاق سيل من تعليقاتها

الساخرة باعتبارنا لا نصلح للقيام بأي عمل، وكان هدفنا من ذلك أن تشعر كما لو أنها تمارس حياتها بشكل طبيعي فتنسى مرضها، ولهذا حرصنا على أن نفتعل القليل من المرح الذي افتقدناه، فكانت المفارقة في هذه اللعبة تكمن في فوضويتي لأنها تتقاطع تمامًا مع صرامة تعليماتها إزاء ما ينبغي أن يكون عليه البيت من تنظيم ونظافة، وهي بذلك تتشابه مع معظم نساء الموصل في حرصهن على إدارة شؤون المنزل بأكمل صورة، ومما زاد في وتيرة انتقاداتها إنني أورثتُ ولدي جزءًا من فوضويتي، وإنْ كان لا يصل إلى ما أنا عليه من مستوى متقدم.

طيلة أكثر من ربع قرنْ كان التباين بيننا قد بدأ يتضح يومًا بعد آخر، وحاول كل واحد منا أن يبقى متحصنًا وراء ما يؤمن به من أفكار دون أن يتزحزح عن موقعه، ساعيًا بنفس الوقت لسحب الآخر إلى جهته آخذًا به إلى حيث خياره الداخلي، ولكن لم يفلح كلانا بهذا المسعى، ولم يكن من السهل علينا نحن الاثنين أن نستدير عمّا يملؤنا من أفكار نهتدي بها في تحديد هويتنا التي نطل من خلالها على الحياة، ورغم بقائنا على ما تغفو عليه جفوننا وتنفتح عليه شرفات عقولنا من آيات الاطمئنان إلَّا أن ذلك لم يحدث خدشًا في علاقتنا مع بعضنا، ولم يتمكن الصقيع من أن يحقن برودته في حقل مودتنا، فالحياة بين اثنين يعيشان تحت سقف واحد لفترة طويلة لا تعني أن يكونا نسخة طبق الأصل عن بعضهما، كما لو أن أحدهما ينظر إلى نفسه في المرآة، ودائما ما كنتُ أعتقد أن هذا النمط من العلاقة بين زوجين إذا ما وجِد فإنني لا أشك أبدًا في أنه يعكس حالة من القمع يمارسها أحدهما ضد شريكه الآخر وعادة ما يكون الرجل، مستثمرًا تواطؤ الواقع معه، بفعل عوامل عديدة ومختلفة، عادة ما تستمد قوتها من الموروث، الذي يملأ شرايين الفرد بثوابته ويمنحه القوة ويحميه من أي تبعات تدينه، لِما له من قداسة، ومن جانبي أرى السبب الرئيس في أن هذا الاختلال يعود إلى ضعف كبير في شخصية واحد منهما، ودائما ما تكون المرأة، وهذا ما يدفعها إلى أن تتنازل عن ذاتها كليًا لصالح شريكها، ربما بسبب الحب أحيانا، وليس بسبب سلطة الخوف الاجتماعي، وغالبًا ما يكون الخوف هو السبب لأن سطوته كبيرة وقادرة على أن تسدَّ منافذ الهواء أمام المرأة

وتكسر أجنحتها، بالتالي سيبدو الانسجام قائمًا بينهما أمام الآخرين، ولكنه انسجام مزيف، لأنهما يفتقدانه، طالما علاقتهما قائمة على مبدأ الاستحواذ الذكوري الذي شرعنَتهُ تمائم وأعراف مخزونة في شقوق جدران متهالكة، أجازت للرجل أن يحيل المرأة إلى ظل باهت يتبعه، فلا غرابة أن ينهار السقف عليهما في أية لحظة إذا ما نال الطرف المقموع حريته أو أستيقظ هذا الظل في لحظة ما من غفوته، وهذا ما لاحظته مع كثير من أصدقائي الذين هاجروا إلى أوربا، إذ تفاجأت بأن أغلبهم يعيشون منفصلين عن زوجاتهم، وفي معظم الحالات كانت الزوجة هي التي تطلب الطلاق، بعد أن وجدت قوانين بلد اللجوء تنصفها، وتمنحها ما كانت محرومة منه في بلدها.

من ناحيتي لم أتوقف أمام ما كنا نختلف عليه، خاصةً في ما يتعلق بالشكليات الذي نعبّر من خلالها عن قناعاتنا الروحية، وإن كانت مسالة الحفاظ على التوازن في هذا الاختلاف لن تمرَّ في مسالك معبَّدةٍ لفترة طويلة من الزمن من دون أن تنفجر فيها انفعالات وخلافات ربما لأسباب تافهة، وهذا ما مررنا به، وهو أمر طبيعي جدًا في حياة مشتركة بين اثنين تجمعهما رابطة قدَّستها قوانين السماء والأرض، وسيكون أمرًا طبيعيًا أن تعصف بهما الخلافات أحيانًا، فمسالة الانسجام ليست بتلك البساطة، إنما هي بغاية الصعوبة إذا لم يكن الاثنان يحملان قدرًا أدنى من الاستعداد لاحترام حرية الآخر في قناعاته، وأظننا بمرور السنين أدركنا ذلك فتعاملنا مع ما نختلف عليه باعتباره مسألة لا خلاف فيها ولا عليها.

بعد أن رفع الدكتور جمال الأنبوبين من مكان العملية، لم تعد هناك ضرورة للعلبة أيضًا، ولهذا بات لزامًا علينا أن نتهيأ في تمام الساعة الرابعة عصرًا لمغادرة البيت يوميًا ولمدة أسبوعين، ونتوجه عبر سيارة أجرة إلى عيادته حتى يتولى بنفسه سحب السوائل، إذ بدأت تشكو من صعوبة في تحريك ذراعها ما أن تتجمع تحت إبطها الأيسر، وكان لتلك المراجعات أثر كبير في رفع معنوياتها التي كانت قد بدأت تهرم تحت سطوة الظنون والهواجس المسكونة بالخوف، فأخذت تنزاح عنها مشاعر القلق بعد كل جلسة كانت

تجمعنا معه، فمارس دوره كطبيب على أكمل صورة وهو يسدي إليها النصائح ويفتح أمامها نوافذ الأمل، وبدأت وساوس الخنوع والخضوع تحت سلطة اليأس تبتعد عن تفكيرها، وارتفعت عاليًا أشرعة الثقة بنفسها، وأطلت في داخلها إمكانية عودة الشمس لتعانق الظلال المعتمة التي ركنت إليها في الأيام الماضية، وبذلك يعود إليه الفضل في أنها بدأت تشعر بالاطمئنان على وضعها الصحي، وأن من الممكن أن تطوى هذه الصفحة من حياتها نهائيًا وتصبح مجرد ذكرى إذا ما استمرت على تكملة مراحل علاجها والتزمت بوصاياه حرفيا، خاصة في ما يتعلق بالغذاء، فقد حذرها من تناول السكريات نهائيا، وأذكر أنني ابتسمت بعد أن خطفتُ نظرة سريعة ناحيتها عندما وجدته يطلب منها أن لا تقترب نهائيا من كل أنواع الحلويات، وبفطنته أدرك سبب ابتسامتي، فأعاد عليها وصيته محذرًا إياها من تناولها، كما أوصاها بالابتعاد عن احتساء المشروبات الغازية وأنواع الأطعمة المعلبة، والوجبات الغذائية التي تزيد فيها نسبة الدهون عن 30 % وأن تحرص على التقليل من تناول اللحوم الحمراء، في المقابل أكَّدَ عليها بأن تكثر من تناول الخضروات مثل الكرنب والقرنبيط والبروكلي والفجل واللفت والملفوف الأحمر مرّة أو مرّتين أسبوعيًا، والأفضل أن تتناولها خلال وجبة الغداء، لأنها تحمي خلايا الجسد من السرطان، نظرًا لما تحتويه من كيميائيات نباتية تحفز على إنتاج الإنزيمات وتوقف الضرر الناجم عن المسرطنات، وكلما قل طهيها كلما احتفظت بخصائصها الغذائية، إضافة إلى تناول الثوم والبصل لأنهما تحتويان على مواد مضادة للأكسدة والالتهاب والميكروبات، ومن الضروري أيضًا أن تكون بعض الخضروات مثل الطماطم والقرع والبنجر(الشمندر) وكذلك الجزر مادة أساسية في وجباتها الغذائية لأنها غنية بمضادات الأكسدة التي تقي الخلايا من الشيخوخة، بالإضافة إلى الحمضيات مثل البرتقال واليوسفي والليمون والكيوي والأناناس لأن هذه الفواكه عادة ما تكون غنية بفيتامين "ج" فتقاوم أنواع العدوى وتحمي الأوعية الدموية.

قبل منتصف الليل تمكنت شقيقتها الوسطى من الاتصال بها عبر الموبايل من الموصل، بعد أكثر من محاولة فاشلة لأن الإشارة كانت ضعيفة، فبدأ

صوتها متقطعا وبالكاد يُسمع، وهذا ما اضطرها إلى أن تصعد السلالم لتكون فوق سطح الدار واختارت زاوية وقرفصت فيها، فعبّرت لها عن ألمها الشديد لما أصابها، وتمنّت أن تكون إلى جانبها لترعاها وتخدمها، ولكن ذلك غير ممكن مع بقاء المدينة تحت سلطة تنظيم الخلافة، وأخبرتها بما تعرضت له قبل بضعة أيام من موقف زرع في داخلها الخوف من قبل اثنين ينتميان إلى ما يسمى بهيئة الحَسبة التابعة لتنظيم الخلافة، فبينما كانت متوجهة مع ابنتها الصغرى التي لم تتجاوز الستة أعوام إلى الأسواق القريبة من البيت فإذا بأحدهما ينادي عليها بصوت عالٍ، ولما انتبهت إلى أنها كانت هي المقصودة، التفتت إلى ناحية الصوت، فإذا بهما ينهالان عليها بسيل من كلمات التوبيخ والتقريع والتخويف لأن ابنتها لم تكن ترتدي الحجاب، وأجبراها على أن تعود مع ابنتها إلى البيت وتضع على رأسها الحجاب، وأخذت تدعو من الله أن يرفع عنهم هذه البلوى، ثم عادت لتطمئن على صحتها ولتعيد عليها هذا السؤال أكثر من مرة وكأنها تريد أن تؤكد لنفسها بأن موضوع مرضها ليس خطيرًا، وبدا عليها الوقوع تحت تأثير ما كانت تعانيه شقيقتها من إحساس بالشوق إليها وإلى جميع أهلها أكثر مما كانت تعانيه بسبب المرض، فاحتبس صوتها وتوقفت أكثر من مرة عن إكمال ما كانت تتحدث به معها وأخذت تتنهد، فإذا بها بدأت تبكي ما أن قالت لها بأنها يوميًا مع أولادها وزوجها لا يضعون الأكل في فمهم إلَّا بعد أن يرفعوا أيديهم نحو السماء ويدعون لها بالشفاء التام، ثم انفرطت بنوبة نحيبٍ مكتومٍ خشية أن يسمعها الجيران، ويصل بالتالي أمر المكالمة إلى عناصر أمن الخلافة.

خلال مراجعتنا اليومية للعيادة كنّا مرغمين على أن ننتظر لفترة زمنية تزيد عن الثلاث ساعات قبل أن يحين موعدنا، لكثرة النساء المصابات بمرض سرطان الثدي فالعدد يوميًا يتجاوز الخمسين امرأة كانت تنتظر دورها وعلامات الشحوب بادية على وجوههن جميعًا، فأصابنا الهلع إذ لم نكن نتوقع أن نجد مثل هذا العدد مسجلًا على قائمة انتظار الأمل في عيادة

دكتور واحد فقط، فماذا عن بقية النساء المنتظرات في قوائم الأطباء الآخرين؟ عند هذا التساؤل الذي داهمني وأنا معلق على مشجب الانتظار تشكلت في رأسي صورة قاتمة عن التركة الثقيلة التي خلفتها الحروب في هذه البلاد التعيسة والتي ستعاني منها الأجيال القادمة أيضًا.

كانت الصالة تضيق بالنساء ومن جميع مدن العراق، خاصةً تلك التي سقطت تحت سلطة تنظيم الخلافة، وما زالت ترزح تحت مخالبه مثل الموصل والأنبار وتكريت، ودائمًا ما كانت هناك وجوه جديدة نلاحظها تضاف يوميًا على قائمة الانتظار، دفعني هذا المنظر الذي اعتدت على رؤيته خلال أسبوعين إلى رسم صورة مرعبة في مخيلتي عن حقيقة تفشي هذا المرض، إذ لم يكن لدينا أي تصور عنه مهما حاولنا أن نتخيله، فأصبحت على يقين من أن ما يطفو على السطح من حقائق أقل بكثير مما يسكن في العمق ويضرب في عظام المجتمع، وتمكنت من الحصول على مجموعة بيانات كان قد أصدرها مجلس السرطان في العراق تشير إلى تزايد حالات الإصابة بالسرطان في العراق ما بين عامي (1991–2016) وكانت عدد الإصابات (5,720) وبمعدل (31,05%)عام (1991) في حين ارتفع عدد الإصابات ليصلَ إلى (25,556) وبمعدل (67.4%)عام (2016) لكل (100,000)نسمة.

بدأت تتكشف أمامنا حكايات كثيرة، التقطتها مسامعنا من أفواه النساء بعد ثلاثة أيام من مراجعتنا لعيادة دكتور جمال، كلها كانت تعكس جوانب أخرى من العذاب الذي يعاني منه المصابون بمرض السرطان، لم يكن يلتفت إليها أحد، طالما كانت تنبت مثل الصبار في أرض قاحلة، لتكمل بقسوة تفاصيلها ما كنا نراه ونسمعه من حكايات في عيادات الأطباء وممرات المستشفيات، إنها حكايات منسية مع سبق إصرار وتعمد حكومي، تختفي بين سطورها مخلوقات آدمية تنزوي بآلامها في بيوتٍ خزائنها فارغة مثل بطون أصحابها، ونوافذها مفتوحة على غموض أيامها القادمة، فالواقع موحش جدًّا ولا يبعث على الأمل بسبب ارتفاع نفقات العلاج، فالعملية الجراحية تصل تكلفتها إلى خمسة آلاف دولار وكل جلسة من

جلسات العلاج الكيمائي تصل تكلفتها إلى مئتي دولار، ومثلها جلسات العلاج بالليزر، وعادة ما يحتاج المصاب إلى عِدَّة جلسات وليس إلى جلسة واحدة وعلى الأكثر تصل إلى ست عشرة جلسة في مرحلة العلاج الكيمائي ومثلها عند العلاج بأشعة الليزر، وعلى ذلك سيكون من الصعب على الفقراء أن يخرجوا من براثن هذا المرض إذا ما نال منهم، ومن لا يملك المال عليه أن يستسلم للقدر، لأن المستشفيات الحكومية في جميع مدن العراق بعد العام 2003 تفتقر إلى الأدوية وأجهزة الفحص وإلى أبسط الخدمات العلاجية.

أذكرُ أن إحدى النساء كانت قد جلست هي وزوجها إلى جانبنا أثناء ما كنا ننتظر دورنا في العيادة، وأكثر ما لفت انتباهنا ذاك الشحوب الذي كان يصبغ لون بشرتها إضافة إلى بنيتها الضامرة بشكل مخيف، وأثناء ما كانت تتحدث معها زوجتي وتستفسر منها عن حالتها أخبرتها بأنها لولا تبرعات الجيران والأقارب لما تمكنت من إجراء العملية الجراحية لإزالة الثدي، لأنهم فقدوا بيتهم ومزرعتهم وكل ما يملكونه عندما سيطر تنظيم الخلافة على محافظة نينوى، وهذا ما اضطرهم إلى الهرب بجلدهم من قريتهم الكائنة في منطقة برطلة عند أطراف مدينة الموصل، لأن تنظيم الخلافة اعتبر أبناء أقليتها الشَّبكية كفَرة، ويستحقون الموت حالهم حال أبناء الطائفة الأيزيدية، فما كان أمامهم سوى خيار النجاة بأنفسهم، ولينتهي بهم الحال في مبنى خاص بالنازحين بمدينة أربيل، وهم يعتمدون في معيشتهم على ما تقدمه لهم المنظمات الدولية من مساعدات غذائية .

بعد أن واظبنا على مراجعته يوميًا لسحب السوائل أبلغنا الدكتور جمال في نهاية الأسبوع بأنه سيسافر بعد يومين إلى إنكلترا ليستمتع بإجازته السنوية حيث سيبقى لمدة ثلاثين يومًا إلى جانب عائلته التي تقيم هناك، وأبلغنا بأنه قد كلف أحد تلامذته من الأطباء في مستشفى ويلفر بأن يتولى عملية سحب السائل بدلًا عنه إذا ما تجمع خلال الأيام القادمة، كما أوصانا بضرورة أن لا نتأخر خلال اليومين القادمين في مراجعة الدكتور لقمان نانا كلي المختص بالعلاج الكيميائي في عيادته الكائنة في نفس الطابق ونفس المبنى

الـذي تقـع فيـه عيادتـه، وأكـد لنـا بأنـه مـن أفضـل الأطبـاء المختصـين العـلاج الكيميائي.

قـادتني رحلـة العـلاج فـي أولـى مراحلهـا إلـى اكتشـاف الوجـه الآخـر للحيـاة بينمـا كنـا نتسـابق مـع الـزمن، فـي محاولـة منـا لتفـادي عبوسـها ولسـعاتها القارسـة، علَّنـا نعثـر علـى ظـلٍّ نحتمـي بـه مـن غلاظـة مشـاعرها، ونسـترد القليـل مـن أنفاسنا المتقطعة .

لـم أسـتطع الإفـلات مـن كـابوس الأفكـار التـي باتـت تلاحقنـي، بعـد أن وجـدت نفسي أشبه بمـن يـدخل صـدفة إلـى ممـر طويـل يـؤدي بـه إلـى عـالم سـفلي يختفـي تحـت زيـف عالمنـا الـواقعي، فكنـت أصـبُّ اللعنـات علـى الحـروب وعلـى مـن تسـبب بهـا ويـدعو إليهـا كلمـا أسـتعيدُ صـور الأعـداد الكبيـرة مـن المصـابين بمـرض السـرطان مـن النسـاء والأطفـال والرجـال الـذين كنـت ألتقـيهم فـي عيـادة دكتـور جمـال وفـي ممـرات المستشـفى، وبقـدر مـا قـادتني هـذه الرحلـة إلـى داخـل نفق معتم إلاّ أنها أخرجتني من غابة أوهام كانت تسكنني.

8

سباق مع الزمن

غالبا ما أحدِّقُ في المرآة، لعلِّي أعثرُ على برهانٍ يؤكد وجودي في الهواء الحاضر خارج كوابيس الواقع، لكني لم أجد غير مسافة تنأى ما بين شهيق الليل وزفير النهار.

فمن غير الممكن أن تختلف الصورة بهذه السرعة الخاطفة!

ما جرى في أيامنا الأخيرة أشبه بتركيبة مفاجِئة، هيّأتها مقادير الحياة على غير ما كنتُ أتوقعه، بل أبعد بكثير مما يمكن أن أتخيله.

ففي كل يوم أخذت سيول الخوف تنحدر إلى أشناتك، وبدأتَ تخشى أن تتصدع جدران العائلة، وينهار أحد أركانها.

أحيانا أتساءل مع نفسي: ما هذا الذي أكتبه يوميا، قبل أن أخلد إلى النوم؟ ما معناه؟ بل ما جدواه؟

لا أستطيع أن أختزل ما يدفعني إلى ذلك بإجابة واحدة، فهناك الكثير من المشاعر مما لا تستوفيها الكلمات، وأنا شخصيًا لا أملك المقدرة على تفسيرها وفهمها أحيانا، لأن العلاقة بيننا وبكل قداستها كانت مفتوحة على دورة الأيام والليالي والسنين التي مرت علينا، ولولاها لما عرفتُ معنى الخوف، وهو يعني الحب بالنسبة لي.

فإذا لم تَخَفْ على من يشعرك بالاكتفاء في هذه الحياة الجشعة، فإنك لم تعرف حتى القليل من الحب إزاء الأشياء الأخرى.

عند محطة فاصلة توقفت الرحلة لتبدأ أخرى، ربما أكثر مشقة من التي سبقتها، و بعد أن تجاوزتَ هول الصدمة وما أحدثته فيك من ارتباك، أصبحتَ مثل السمكة وهي تبتلع الطعم، لكنك وأنت قابع في الفخ ما زلت تحاول عبر الكلمات أن تستيقظ على مناخ حياتك التي ابتكرت تفاصيلها

معهـا، بعـد أن توقفـتَ تمامًـا عمَّـا اعتـدت عليـه مـن طقـوس يوميـة، لأنـك مـا عُدتَ تستوعب ما يحدث من تغيير.

مـا مضـى قـد مضـى ولـيس لـديك إلا أن تحـاول الخـروج مـن هـذا الظهـور المختلـف الـذي تـرى نفسـك فيـه، ولا سـبيل إلا أن تقتنـع بمـا أصـبحت عليـه الآن، ولكـن إيـاك أن تفـرط بالشـكوى، واحتـفِ بمـا لـديك مـن غبطـة إزاء الشمس والنسيم والغسق، فما من جدوى إذا ما عدت إلى الوراء، وحاذر من الركـون إلـى دائـرة الشـجون، أو الخـوض فـي متحـف الحكايـات المعلقـة بـين ظلال الأمس.

فأنـت أنـت الآن فـي سـباق مـع الـزمن لأجـل أن تسـتعيد ذاتـك معهـا، فتحـاشَ الانفصـال عمـا يطفـئُ جـذوة الـروح فيـك وفيهـا، أو السـقوط فـي سفسـطات اليـأس فتحيلـك إلـى وحشـة الاضـطراب فـي هـذه الـولادة المتعسـرة لاسـتعادة الأنفاس.

أزعـم بـأني لـم أسـتطع أن أتحاشـى هـذه الهـواجس التـي باتـت تتحـرك مـع كـل عضـلة مـن عضـلات جسـمي، وتفـتح سـجالًا طـويلًا مـن الأفكـار الصـاخبة فـي رأسـي، حتـى عنـدما عـدتُ وانتظمـت بعملـي فـي القنـاة، بعـد أن انقطعـت عـن الـدوام خـلال الأيـام القليـة الماضـية لكـي أُنجِـزَ مـا تـأخّر بعهـدتي مـن بـرامج، ولأعود مبكرًا إلى البيت بفائض من الوقت لأتولى رعايتها.

بعـد أن مضـت ثلاثـة أسـابيع علـى إجـراء العمليـة لـم يخطـر فـي بالنـا أن الطبيـب المخـتص بـالعلاج الكيميـائي عنـدما راجعنـاه أول مـرة أن يطلـب منّـا إعـادة الفحـص مـرة أخـرى، وكأننـا عـدنا إلـى نقطـة البدايـة بمـا كنَّـا عليـه مـن حيـرة وقلـق: "مـن الضـروري وقبـل أن نبـدأ العـلاج الكيميـائي لا بـدَّ مـن إعـادة الفحـص، لنتأكـد مـن حقيقـة النقـاط السـوداء التـي كانـت قـد أظهرتهـا اشـعة الميمـوغرام فـي الكبـد والـرئتين قبـل أن تجـري العمليـة "، بهـذه الجملـة قطـع الـدكتور لقمـان الصـمت الـذي كـان يغلفنـا ونحـن ننتظـر مـا سـيقوله، بعـد أن انتهـى مـن مراجعـة ملفهـا الـذي يضـم الأشـعة والبيانـات المتعلقـة بوضـعها

الصحي قبل وبعد العملية، إضافة إلى التقرير النهائي الموجه إليه من قبل الدكتور جمال غفوري .

"ولكن يا دكتور سبق للطبيب الهندي الذي التقطَ لها الصورة بأشعة الميموغرام أن أزال الشك نهائيًا عن النقاط السوداء وأكد للدكتور جمال عبر مكالمة هاتفية، بأنها مجرد ذرات من الغبار"، حالما خرجت مني هذه الجملة بشكل عفوي ودون أن أفكر بما يمكن أن يكون عليه رد فعل دكتور لقمان، فإذا بعلامات عدم الارتياح ترتسم واضحة على وجهه، وأظن أن جملة عدم الارتياح ليست دقيقة في وصف رد فعله، ولا ضير من الاعتراف بأنها كانت محاولة فاشلة مني في القبض على حقيقة الصورة التي بدَا عليها، والأصح إنه كان غاضبًا، إلاَّ أنه أمسك بغضبه في محاولة منه للحفاظ على صورته الرصينة أمامنا، فحاول أن يُظهِر لنا فقط ما يشير إلى أنه فاتر الشعور وبارد العاطفة بعد أن استفزه كلامي، حينها شعرتُ بأن ثمَّةَ هفوة قد صدرت مني بحق مكانته كطبيب دون قصد، لأنني تحدثت بشأن مسالة طبية أجهلها وليست لدي أي فكرة علمية عنها، فبدوت أمامه بصورة من لا يعير أهمية لخبرته ومكانته، وهذا ما جعله يرتد إلى الخلف قليلا في مقعده.

كان من الواضح بأنه قد شعر كما لو أنني لم أضع بعين الاعتبار اختصاصه الدقيق بالعلاج الكيميائي الذي ناله من السويد فأقدمت بما يشبه التشكيك بخبرته عندما أشرت إلى ما كان قد أكده الطبيب الهندي، فما كان منه إلَّا أن ضغط بقوة على شفتيه ورفع راسه إلى ناحية سقف الغرفة لثواني معدودة، بعدها شد كتفيه إلى الأعلى وهو ينظر نحوي، ثم أعاد أوراق الفحوصات والأشعة إلى داخل المظروف ومد يده ليسلمني إياه: "خلاص، المسألة تعود إليكما، وليس لدي أكثر مما قلته".

اكتفى بهذه الجملة التي أراد من خلالها أن يَعتِقَ نفسه من الجلسة، ولم أكن أحتاج إلى وقت طويل حتى أستوعب الشرخ الذي تسببتُ به، إذ ما كان يصح أبدًا ان اذكِّرَ الدكتور بما قاله الطبيب الهندي، لأن التقرير النهائي الذي كتبه دكتور جمال كان قد أورد فيه كل ما يتعلق بتفاصيل حالتها قبل

وبعد العملية بما في ذلك موضوع النقاط السوداء، ولكن ما العمل والخطأ قد حصل وانتهى الأمر إلى ما هو عليه من توتر، وأصبح الدليل واضحًا أمامنا بان الدكتور لقمان قد تضايق كثيرًا من ملاحظتي، وأن صبره قد نفد بسرعة غير متوقعة، وهذا ما لم يستطع وجهه الذي كان متجهمًا أن يخفيه، وربما لم تعجبه طريقتي في الكلام وليس ملاحظتي التي تفوهت بها، وعلى الأكثر إنني وتحت تأثير الضغط النفسي كنت منفعلًا إلى حد ما ولم أكن منتبهًا إلى ذلك، وأرجِّحُ أن هذا هو الذي لم يستسغه.

شعرنا بعدم رغبته في الاستمرار بالحديث عندما التزم الصمت ولم تصدر عنه أي حركة وهو جالس خلف مكتبه، وكان ذلك إشارة كافية على أنه ينتظر منّا أن ننهض ونغادر، فبلغ مني الحرج مبلغًا كبيرًا، عند هذا الحد علا الذهول وجهينا أنا وهي، ومن ناحيتي كنت كمن استيقظ مصدومًا على أثر صوت مفاجئ، وفي اللحظة التي استَرَقتُ فيها النظر إليها، لمحتُ نظرة عتاب شديدة تعلو ملامحها، وبدت كما لو أنها كانت مصعوقة من سرعة ما حدث أمامها، حتى أن لسانها انعقد بينما نظرتها كانت تلتمس مني أن أتدارك الموقف بأي طريقة، فلا مجال لإضاعة الوقت .

لفتت انتباهي الصفرة الشاحبة التي كانت تعلو وجهها وهذا ما جعلني أشفق عليها كثيرًا، وأمام هذا التطور المفاجئ الذي كاد يُنهي اللقاء الأول مع دكتور لقمان بتلك السرعة الخاطفة، عقدتُ النية على أن أصحح الموقف، إذ لا خيار أمامي سوى أن أعيد الثقة التي انعدمت بيننا ربما بسبب سوء فهم من قبلي أو من قبله هو أيضا، فثمَّةَ أشياء لا نستطيع إدراكها ساعة نُقدِم عليها وربما تسوقنا إلى ذلك دوافع نجهلها، والأهم بالنسبة لي في تلك اللحظة أن تفكيري انشغل فقط في كيفية تبديد الخوف الذي استحوذ عليها وزاد من شحوبها بعد أن وجَدَتْ نفسها وسط مشهد مرتجل بشكل سيء من ناحيتي، وهذا ما أدى إلى أن تتوترَ الأجواء، خاصة وأن الدكتور بدت عليه علامات الحنق الشديد ولم يستطع أن يخفيها رغم التزامه الصمت وارتكانه إلى الهدوء، فما كان مني إلا أن أتقدم بخطوة لمعالجة المأزق: "عذرا دكتور، ربما لم أحسن صياغة الجملة عمَّا أردت أن أقوله فذهب الكلام إلى

غير محله "، ثم تابعتُ الحديث وأصبغت عبارات التقدير والتعظيم لشخصه ومكانته، علَّني أرمِّمَ ما تسببتُ به من إشكال، فأعدّتُ على مسامعه ما كان قد أسبغه عليه دكتور جمال من صفات رائعة جعلته يبدو أمامنا أفضل طبيب مختص بالعلاج الكيميائي، وهذا ما دفعنا إلى أن نتمسك به ولم نراجع طبيبا آخر غيره، وأرفقت ذلك باعتذار عن الهفوة التي صدرت عني، ثم حاولت توضيح أسباب الالتباس الذي حصل وأكدت له بان ما أردت إيصاله كان القصد منه أن أنقل معلومة كنت أتوقع بأنها لم ترد في التقرير وتتعلق بما جرى من حديث عبر الهاتف بين الدكتور جمال والطبيب الهندي حول النقاط السوداء لا أكثر ولا أقل، آنذاك اعتدل دكتور لقمان في جلسته ومال بجسمه إلى الأمام، عندها شعرتُ بشيءٍ من الابتهاج الداخلي بعد أن تيقنت من أنني قد أفلحت في إزاحة ما كان يشعر به من انزعاج بعد أن لاحظت ارتخاء عضلات وجهه واستعادته لهدوئه، وتأكدت من صدق ما توصلت إليه ما أن فتح المظروف وأخرج منه البيانات ورصفها أمامه، وبعد أن ألقى نظرة عليها قال لي : "أخي العزيز، الآن أمامنا مشكلة جديدة، لا بدَّ من إيجاد حل لها، والمشكلة لا تتعلق بوضعها الصحي، إنما بجهاز الفحص (scan pet) الذي بواسطته سوف نتأكد من حقيقة النقاط السوداء الموزعة على الكبد والرئتين، فهذا الجهاز لا يوجد في العراق نهائيًا، فقط موجود في تركيا والأردن ولبنان وإيران، وإذا كنتم تمتلكون الإمكانية المادية فعليكم أن تسافروا اليوم قبل الغد إلى واحد من هذه البلدان لإجراء الفحص".

لم تكن أمامنا أي عقبة قد تعيقنا عن السفر، لكني أحببت أن أعرف من الدكتور تكاليف الفحص بجهاز (pet scan) حتى لا أكون في موقف محرج من الناحية المادية، خاصة وأنني أسمع كثيرًا من الذين يسافرون للعلاج خارج العراق عن ارتفاع الأجور في بلدان مثل الأردن ولبنان وتركيا.

" تتراوح تكاليف العلاج ما بين 800 إلى 1200 دولار في لبنان وتركيا والاردن".

هـذا مـا اخبرنـي بـه، ولكـن مـن غيـر أن يحسـب النفقـات الأخـرى المتعلقـة بتـذكرتي الطيـران والإقامـة فـي الفنـدق لمـدة لا تقـل عـن أسـبوع والتـي لا تقـل عـن 2000 دولار، بـذلك يتوجـب علينـا أن نضـع فـي حسـابنا أن الرحلـة ستكلفنا بحدود 3000 دولار إن لم يكن أكثر من ذلك.

هكـذا ببسـاطة شـديدة وفـي أيـام معـدودة تسـتيقظُ مـن تجليـات حيـاة كانـت تشـبه بحيـرة يسـودها الهـدوء، فـإذا بـك تصـحو علـى نفخـة ريـح عاتيـة، وأنـتَ كمـا أنـت، مـا زلـت مسـتغرقا فـي لجّـة التأمـل، ولـم تعـرف طريقًـا إلـى العبـث فـي حقولٍ كنت دائمًا ما تسير إليها وتغمض جفنيك عليها.

تنظر إلى صورتك في المرآة فلا ترى ذات الشخص الذي كنت تعرفه.

هنـاك انقطـاع حـاد فـي الـزمن يفصـل بينـك وبـين الـذي يـومئ إليـك فـي المـرآة، أشبه بارتجال فنان في لحظة إلهام.

انقطـاعٌ افترقـت فيـه الأحـداث والأحاديـث، وباتـت الصـورة مكتظـة باحتمـالات مودّعـة فـي خزانـة خيـار وحيـد، ولـيس أمامـك مـن خيـارات أخـرى قـد تصـل إليهـا سـوى أن تتسـلق جـدار الأمـل وتتسـلح بالحريـة وأنـت تسـترجع فـي ذهنـك مـا جـرى، وتكتـب عمّـا لا يمكـن للكتابـة أن تسـتوعبه بكلمـات وجمـل محـددة، فأنـت تلاحـق مـا يشـبه الظـلال، ومهمـا حاولـت الإمسـاك بهـا فلـن تقـوى علـى ذلك.

فـي موضـوعة السـفر لـم أضـع ايـران فـي حسـاباتي، فقـد اسـتبعدتها تمامًـا مـن تفكيـري، رغـم انخفـاض تكـاليف العـلاج فيهـا بشـكل كبيـر مقارنـة ببقيـة البلـدان الأخـرى، لأنـي لـم أكـن بحاجـة إلـى أن أضـع نفسـي فـي مواقـف حساسـة بسـبب اسـمي الـذي قـد يسـبب لـي إشـكالات معقـدة قـد تـواجهني ابتـدأ مـن وصـولي إلـى مطـار طهـران، وأحسـب أنـي علـى عِلـم بـأن اسـم مـروان لـن يـوفر لـي الأمـان والحمايـة مثـل أسـماء أخـرى يفضـلها الإيرانيـون علـى غيرهـا، بينمـا اسـمي لا أشـك أبـدًا فـي أنـه مـن الأسـماء المكروهـة جـدًّا مـن الناحيـة الطائفيـة، علـى الأقـل لـدى جمهـور المتعصـبين والمتطـرفين ممـن يحملـون كراهيـة تاريخيـة للأمـويين، فقـد أصـبح فـي الـذاكرة المذهبيـة مرهونـا بهـم وبفتـرة حكمهـم، طالمـا

ارتبط بأكثر من خليفة تربع على عرش الخلافة الأموية، وبذلك تم تجريد الاسم من دلالاته المعجمية وانحشر في زاوية ضيقة من التوظيف المذهبي مثل أسماء أخرى، ولم تعد هناك أي فرصة لتفادي هذا التوظيف وتبعاته الحساسة في بيئة اجتماعية تكاد تنسدُّ فيها كل منافذ البراءة وتنعدم العفوية في المواقف الإنسانية خاصة إذا ما أخطأ من يحمل هذا الاسم وانزلقت قدماه وأخذته إلى الضفة الأخرى، حتى إنني وتلافيًا لكل ما يمكن توقعه من ردود أفعال مسرفة في سلبيتها لربما ينجرف إليها البعض من الموتورين طائفيًا، لم أتجرأ على زيارة بغداد منذ العام 2003 خشية أن لا يستفز اسمي البعض من المتطرفين من الذين قد يصادف وجودهم هنا وهناك، خاصة بين العناصر المسلحة التي عادة ما تقف في السيطرات الكثيرة المتواجدة على طول الطريق بين الموصل وبغداد، ولا يُعرف إذا ما كانوا ينتمون إلى مؤسسة الجيش العراقي أم إلى ميليشيات مذهبية، وكثيرة هي الحوادث التي ذهب ضحيتها أناس أبرياء كانت أسماؤهم هي السبب في النهاية المأساوية التي انتهت بها حياتهم، إذ يكفي أن يكون اسمك دليلا كافيًا على أنك مدان بسبب إشكالية تاريخية وقعت قبل أكثر من 1400 عام، وأنت لا ناقة لك فيها ولا جمل كما يقال، ولهذا امتنعت نهائيًا عن السفر إلى العاصمة، رغم أني عشت فيها مدة تزيد على العشرة أعوام، أثناء دراستي في كلية الفنون الجميلة ومن بعدها الفترة التي كنت فيها أقضي فترة خدمتي العسكرية وكانت من أجمل السنين.

غالبا ما يصعب على المرء أن يشطح به خياله بعيدًا، ليصل به إلى اكتناه ما ينتظره في الأقاصي البعيدة، مهما انصاع إلى صمته وغرق في معبد ذاته متأملا ذاته، فسرعان ما يتيه القارب الذي يقوده في ضباب الرحلة ويغرق في لجة ما تتنازعه من صور متخيلة، ورغم أني قد أفلحت في الإفلات من هشاشة خُطى مدينتي قبل أكثر من عشرة أعوام حيث كانت قد انعطفت بها أيامها إلى عتمة سحيقة أغرقتها في دوامة من الموت العبثي، واستطعت الوصول إلى ملاذ آمنٍ بعيدًا عن فوضى الرايات التي كانت تخنق سماءها، إلَّا أن مخيلتي بكل جنوحها لم تفلح في أن تقود حدسي إلى ما سأصل إليه من تخوم تستلقي عليها رياح مشبعة بالغبار، ولم يخطر على بالي أبدًا أنني

كنت أسير على أطراف طريق معبد بالوساوس والأرق، مثل الذي يسير في يقظته إلى فردوس أحلامه بينما عيناه معصوبة بضمادة من أوهام.

علمت من أحد زملائي في العمل أن السفر إلى لبنان لا يحتاج إلى تأشيرة دخول، إذ يكفي فقط أن نقطع تذاكر من أي مكتب طيران، وما أن تهبط الطائرة على المدرج ونضع أقدامنا على أرض مطار رفيق الحريري حتى تُختَم جوازاتنا بتأشيرة الدخول مقابل مبلغ لا يتجاوز 75 دولارًا، لذا قررنا أن نسافر إلى لبنان ونجري الفحص في المركز الطبي التابع للجامعة الأميركية بدل أن نسافر إلى تركيا التي كانت خيارنا الأول في البداية، لكني اضطررت لاستبعادها بعد أن راجعتُ مبنى القنصلية التركية في أربيل ، واتضح لي بانها قد توقفت عن منح العراقيين تأشيرات دخول منذ ما يقرب الثلاثة أشهر، بسبب الانتقادات الشديدة التي تعرضت لها حكومة أنقرة من قبل الاتحاد الأوربي، والضغوطات التي مورست عليها على أثر أفواج اللاجئين الذين سمحت لهم بالعبور من شواطئها وبشكل غير شرعي إلى جزيرة ليسبوس اليونانية منذ منتصف العام 2015، ومن ثم أكملوا رحلتهم مشيًا على الأقدام باتجاه الدول الأوربية، فكان حدثًا ملحميًا لم يسبق للعالم الغربي أن واجهه، وهذا المشهد بصوره الصادمة كشف ستر الأنظمة العربية وعرّاها، وسلط ضوءًا ساطعًا على حقيقة البؤس الذي يرزح الانسان تحت مخالبه في عدد من بلدان المنطقة العربية والإسلامية مثل سوريا والعراق وأفغانستان وإيران، وإلَّا ما معنى أن يغامر مئات الآلاف بحياتهم، نساء وأطفال وشباب وشيوخ، ويقذفوا بأنفسهم في عرض البحر تاركين أوطانهم خلف ظهورهم؟

تشير أرقام الأمم المتحدة عام 2018 إلى أن(70) مليون شخص شردوا من أوطانهم في جميع أنحاء العالم بسبب القمع والصراعات السياسية.

أنا شخصيًّا كنت أنتظر مثل هذه الفرصة، والتي ربما لن تتكرر كل مائة عام، لكنها وللأسف جاءتني في الوقت الضائع.

النساء عالم غريب مثل قارة مجهولة يصعب على الرجال سبر أغوارها، وكم سيصبح العالم موحشًا ورهيبًا إذا ما غابت عنه المرأة، بل سيتوارى

تمامًا عن الوجود، وإذا ما تنازلنا نحن الذكور عن كبريائنا قليلًا ساعتها نستطيع الإقرار بأنهن مساحة مجهولة من الأسرار، لا تختزلها خصلات الشعر المتطايرة في الهواء، ولا سحر العيون السود، ولا الجسد الجميل وهو يبعث الضوء في عتمة الليل، وبقدر ما تُشعل فينا أنوثة المرأة صور الدهشة والجمال والرقة، بقدر ما تحمل في ضعفها البدني قوة داخلية تتفوق بها على قوة الرجل العضلية، ومهما حاول أن يستخدم دهاءه فلن يستطيع احتواء غابات هذا العالم، فلا غرابة أن تكون الأفعى ومنذ القِدَم بملمسها الناعم ولدغتها القاتلة صورة رمزية عن هذه الثنائية، في معنى وقوة حضورها، ويكفيها سحرها الخاص وهي تنثر الدفء في أي مكان تهب عليه نسائمها، ولعل الأبرز في سماتها أنها دائمًا ما تكون مشغولةً في كيفية التعبير عن عطائها الإنساني لبيتها وزوجها وأولادها وكل الذين ترتبط معهم بصلة ما.

انا شخصيًّا ومن ناحيتي استطاعت شريكة حياتي بحنكتها وحسن تدبيرها، وهذا ما تتميز به عني، أن توفر مبلغا من المال لابأس بقيمته، كانت تستقطعه من راتبي الشهري، مع أنه بالكاد يكفيني للإيفاء بمتطلبات العيش في مدينة مثل أربيل ترتفع فيها تكاليف المعيشة إلى درجة كبيرة، حتى إن أحد أصدقائي المغتربين في أوربا عندما زارها، قال لي بأن الغلاء فيها لا يفرق شيئًا عن الغلاء في بريطانيا .

المبلغ الذي ادخَرَته كان بمثابة سفينة إنقاذ لنا، وينطبق عليه المثل الشائع "الفلس الأبيض ينفع في اليوم الأسود"، وقبل أن ينال منها المرض لم يكن ضمن ما كنا نخطط له أن يكون هذا المبلغ سبيلا لمواجهة الحالات الطارئة التي قد نتعرض لها في المستقبل، إنما كان هدفنا منه تغطية نفقات ابننا الوحيد لإكمال دراسته الجامعية خارج العراق من بعد أن ينهي دراسته الإعدادية في السنة القادمة 2017، وفي الحقيقة لم نضع في حساباتنا فكرة أن يدرس خارج العراق أبدًا، إلاَّ بعد أن وجدنا إمكانية قبوله في الكليات الحكومية في إقليم كوردستان غير واردة في تلك الأيام، باعتبارنا كنّا نازحين ولسنا من سكان الإقليم، ولنا في سجل دائرة النازحين والمهجرين

صفحة ورقم منذ العام 2007، ففي يومٍ ما من العام الدراسي 2014 أخبرني ولدي بأن معاون المدير قد اجتمع بهم في ساحة المدرسة وقال لهم بأن القوانين حتى هذه اللحظة لا تتيح قبولهم في الكليات الحكومية داخل الإقليم عندما ينهون دراستهم في المرحلة الإعدادية، ولن يكون أمامهم سوى خيار الانتساب إلى الكليات الأهلية أو أن يكملوا دراستهم خارج العراق.

لوهلة شقَّ عليَّ أن أستوعب كلام المعاون، لذا قررت أن أذهب بنفسي في اليوم التالي إلى المدرسة لمقابلته والاستفسار منه شخصيًا، إلَّا أنني سرعان ما تراجعت عن نيتي، استجابة لمشورة زوجتي بعد أن طلبت مني التريث قليلًا: **"لماذا تستبق الأمور!**، فما تزال أمامه ثلاثة أعوام حتى ينهي دراسته للمرحلة الثانوية، ومن الممكن أن يتغير هذا القانون بين ليلة وضحاها خاصة مع ازدياد أعداد العوائل العربية النازحة إلى الإقليم بعد أن احتلَّ تنظيم داعش مدن الموصل وصلاح الدين والأنبار والحويجة، فالوقت ما يزال مبكرًا للتفكير بموضوع الكلية، وربما قد يكمل دراسته الجامعية في الموصل إذا ما تحررت، فلا أحد يا عزيزي بإمكانه أن يتكهن بما تخبئه سماء العراق من مفاجآت، وربما قد يمر العراق بظروف قاهرة في الأعوام القادمة، لا سمح الله، ترغمنا مع آخرين على مغادرة العراق نهائيًّا **"**.

9

البحث عن مستشفى الجامعة الاميركية

كنت مشوش الذهن قبل يومين من موعد سفرنا إلى بيروت، لأني لم أكن أملك أي معلومات كافية عن مستشفى الجامعة الأميركية تزيح عني الشك بمصداقيتها وتجعلني لا أحسبها ضمن عديد المؤسسات الصحية في المنطقة العربية التي أصبحت مجرد إسفنجة لامتصاص أموال الناس المرضى، رغم أني على دراية تامة بأن علاقتنا بها لن تتعدى جهاز الفحص (PET SCAN)، إذن لماذا هذا الإفراط في التفكير والوساوس من جانبي! ربما يعود ذاك القلق إلى أنني عندما أكون مرتبطًا بموعد سفر عادة ما أسقط في أعماق حالة غير طبيعية من انعدام الوزن، سببها الانتظار، حيث أبدو فيها غير مهيأً لاتخاذ أي قرار، وفكرة السفر لوحدها دائما ما تسبب لي إرباكًا شديدًا لا أستطيع الإفلات منه، تفقدني القدرة على التركيز بأي موضوع، ولا أستطيع أن أنشغل حتى بالأشياء المهمة التي عادة ما أكون على ارتباط يومي بها، فمثلا إذا ما حاولت القراءة فسأبقى ساعات أقرأ نفس الأسطر من غير أن أفهم منها جملة واحدة، كل شيء يبدو معلقًا في الفراغ، فكيف الحال إذا كان السفر مرتبطًا بقضية لا تبعث في النفس أي شعور بالفرح، وكأن الرحلة ليست إلى بيروت إنما إلى أرض مقفرة سأقف فيها وحيدًا تصفعني الرياح ؟، ومنذ أن طلب منا دكتور لقمان إعادة الفحص للتأكد من النقاط السوداء حتى بدأ كلانا يخمن أسوأ الاحتمالات، فليس هناك من برهان بين أيدينا يفندها، وإلَّا لماذا هذا الإصرار من قِبله على إعادة الفحص لو لم يكن هناك لديه ما يبعث على الشك؟.

أوغَلَ كلانا في تخمينات مبتورة تبحث عن إجابات، كل واحد منّا على انفراد، وتوارينا خلف شطحات مخيلتنا دون أن نصل إلى باب مفتوح.

أغلب الأطباء لهم عالمهم الذي لا نستطيع أن نفهمه، ولا يسمحون لنا أن نفهم ما يدور في رأسهم من أفكار، فنحن دائما تحت رحمتهم، شئنا ذلك أم

أبينا، وعلينا أن نسلم بما يقولونه، لأننا لا نفهم ما يفهمونه، ولا نقوى على مجادلتهم، لأنهم يعرفون عنّا أكثر بكثير مما نعرف عن أجسادنا، ويرون ما لا نراه ولا ندركه، وأحيانًا لديهم ما يكفي من العلم لتخمين الفترة المتبقية لنا على هذه الأرض، فالأجهزة التي يتعاملون معها أصبحت قادرة على أن تحدد لنا ما ينبغي علينا أن نفعله وما لا نفعله في أيامنا القادمة، لذا علينا أن نطيعهم وننفذ ما يأمروننا به، وإذا ما عاندنا ما يطلبونه منا فسنبقى تحت طائلة الخوف لأننا لم نلتزم بإرشاداتهم.

محاولة إبعاد مثل هذه الهواجس عن تفكيري شغلتني كثيرًا، لأنها على وشك أن تكبلني بحبالها المشدودة إلى بؤرة من المخاوف، بينما بيروت لديها كلام الفصل، وهي لا تبعد سوى مسافة ساعتين من الطيران المتواصل وعندها سينتهي هذا الدّوي في الرأس، وتصبح كل الأشياء واضحة، ولم يعد هناك من خلل في نظام الكون، ولكن لا جدوى، فالهروب من غلبة الوساوس غير مجدٍ أحيانا خاصة إذا كانت متعلقة بحياة إنسان بينك وبينه ذرات هواء تتنفسانها معاً، وكلما حاولتُ أن أطردها من ذهني وأتعلق بفكرة متفائلة أفشل في محاولتي، كما لو أنها لعبة الأفعى والدرج، ولم أجد سبيلًا للخروج من هذه الوساوس سوى الاتصال بالزميلة المهندسة التي سبق أن أصيبت بنفس المرض وذهَبَت إلى لبنان للعلاج قبل عدة أعوام، وهي الآن حسب ما وصلني من معلومات في حالة صحية مستقرة.

وقبل أن أشرع في الاتصال بها، بينما كنت جالسًا في صالة الاستقبال على الكنبة، رفعت رأسي قليلًا ونظرتُ إلى الساعة المعلقة على الجدار، وكانت تشير إلى السابعة مساء، عندها وجدت بان الوقت أمسى ملائمًا لإجراء مكالمة هاتفية، فاغلب العراقيين في أشهر الصيف يحرصون على أن يأخذوا قسطًا من النوم عندما تشتد الحرارة بعد الظهر، ونحن الآن في الأيام الأولى من شهر حزيران وعادة ما يستيقظ النائمون في مثل هذه الساعة، ويكونون بأمس الحاجة لاحتساء قدح من الشاي حتى يفيقوا من سطوة النوم الثقيل الذي عادة ما يكبس على الإنسان في هذا الوقت من

النهار، وقبل أن أتصل بها كنت أرجو في داخلي أن أسمع منها كلامًا يبعث على الاطمئنان، لأنني لم أكن أتحمل سماع المزيد من الأخبار المتعبة.

الاتصال بزميلة ناجية من المرض

بحثت عن اسمها بين عشرات الأسماء المخزونة في ذاكرة الهاتف، وكنت أخشى بيني وبين نفسي من أن لا تردَّ على المكالمة، فهذه أول مرة أتصل بها بعد أن أخذت أجازة مفتوحة من القناة الفضائية قبل ثمانية أعوام على أثر إصابتها بالمرض وغادرت أربيل عائدة إلى مسقط رأسها في قرية تابعة لمدينة دهوك.

ومثلما توقَّعت بقيت نغمة الهاتف ترن وأنا أنتظر الرد ولكن ما من رد، عندها وجدت أن من الأفضل أن أكتب لها رسالة نصيّة لكي تطمئن بعد أن تتعرف على اسمي وعلى سبب الاتصال، فكتبت لها: "أرجو أن تكوني بخير، أنا المخرج مروان ياسين زميلك في العمل، قبل قليل اتصلت بكِ، لأني أود أن أحصل على بعض المعلومات المهمة عن المستشفى الخاص بالجامعة الأميركية، لأنك حسبما افترض قد وصلتك معلومة من الزميلة فرقد ملكو بأن زوجتي قد أصيبت بنفس الحالة التي سبق أن مررتِ بها وإننا نعتزم السفر إلى بيروت بعد غدٍ على الأكثر، لذا أحيطك علمًا بأني سأتصل بك بعد قليل للاستفسار عن بعض المعلومات"، ثم ضغطت على إشارة الإرسال.

ساد صمت للحظات، قبل أن ترن نغمة هاتفي الجوال، نظرت إلى الشاشة، فوجدت اسمها.

لم تبخل علي بأي معلومات، وقدَّمت شرحًا وافيًا عن مستوى الخدمات الممتازة في المستشفى إلَّا أنها أقرت بأنها مكلفة جدًّا، وليس بإمكان جميع الناس أن يتحملوها، ولكن ليس باليد حيلة طالما لم يكن العلاج في حينه متوفرًا في أربيل والعراق عامة، فلا الكيميائي متوفر ولا أشعة الليزر، واقترحت عليَّ أن أراجع نفس الطبيب الذي سبق أن عالجها هناك، وعلمت منها بأنها بعد أسبوع من إجراء العملية الجراحية في أربيل، كانت قد

سافرت إلى بيروت وبقيت هناك لمدة تزيد عن سنة كاملة وستة أشهر، لأنها كانت مضطرة على أن تكمل جلسات العلاج الكيميائي وعددها اثنتا عشرة جلسة، توزعت على عدد أشهر السنة، ومن بعدها إحدى وعشرين جلسة علاج بأشعة الليزر، في كل أسبوع جلسة واحدة، واستجابة لنصيحة الطبيب اضطرت للبقاء لمدة ثلاثة أشهر بعد العلاج لأجل أن تحظى بالراحة والهدوء، فقد أوصاها بأن تحاول السير يوميًا لمدة لا تقل عن ساعة من الزمن على شاطئ البحر، وأن تمارس التمارين الخفيفة حتى تستعيد لياقتها وقواها الطبيعية، ثم عادت وأكدت لي لو كان العلاج متوفرًا مثلما هو اليوم في أربيل لما اختارت البقاء في بيروت وتحملت أعباء مالية كبيرة.

شعَرت زوجتي باطمئنان كبير على أثر المكالمة التلفونية، وأنا أيضًا خرجت من هوّة ما كنتُ عليه من أفكار أخذت بي إلى منحدر لا نهاية له، خاصة بعد أن وجدنا أن الحالة النفسية التي كانت عليها الزميلة المهندسة لا تشير إلى أنها كانت تعاني من أي أثار سلبية نتيجة للمرض أو العلاج، فصوتها وحيويتها أثناء حديثها كانا يبعثان على الإحساس بالتدفق وبأنها كانت مغمورة بسعادة حقيقية، فقد مضى عليها أكثر من ثمان سنوات بعد إصابتها وإجرائها للعملية الجراحية، ومما عمَّق لدينا الإحساس بهذا الشعور عندما أكدت لنا بانها قد أنهت كافة مراحل العلاج، بما في ذلك حبوب التوماكسوفين التي بقيت تتناولها لمدة خمسة أعوام يوميًا، وبين فترة وأخرى تحرص على أن تجري فحوصات دورية، وكلها أشارت إلى أن وضعها بات طبيعيًّا ومطمئنًا.

بعد انتهاء المكالمة تنهدت زوجتي تعبيرًا عن شعورها بالراحة، لأنني كنت قد تعمّدت أن أفتح سماعة الهاتف حتى تستمع بنفسها، ولا يبقى لديها شك من أن الشفاء ممكن جدًا وليس أمرًا بعيد المنال.

يحتاج الإنسان إلى قشة يتعلق بها ليخرج من عتمة الشعور باليأس إذا ما أحاطه من كل الجهات وسدَّ عليه منافذ النور، وربما كلمة يلتقطها بشكل عابر وهو يسير سادرًا في لجّة الأصوات التي تحاصره، وتمنعه من سماع ما يشعر به في أعماق روحه، فيكون لهذه الكلمة فعل السحر الذي يعجز

عنه الحكماء، وربما تصدر عن شخص لا يخطر على البال، وليس بالضرورة أن يكون هذا الشخص متعلمًا أو ذا مكانة، وربما لم يقصدها هو أيضا، لكنها صدرت عنه في لحظة عفوية، وقد يستهلك طالب علم ومعرفة سنين طويلة في التأمل ولن يصل إلى جوهر ما توصل إليه من حكمة إنسان يعيش على هامش الحياة، فإذا ما أردنا أن نجتاز عتمة الجهل بالأشياء ونخرج من هلوسات الأفكار الهشة والضبابية نحتاج أن نفتح نوافذ عقولنا ونبقيها مشرعة على جميع الجهات، فالوصول إلى شاطئ الأمان لا يمرُّ عبر طريق واحد.

في صباح اليوم التالي نهضتُ مبكراً وأخرجت جوازات السفر الخاصة بنا نحن الثلاثة من الخزانة حتى أضعها في داخل حقيبة جلدية صغيرة، لأني عزمت على أن أتجه إلى مكتب لحجز تذاكر الطيران يقع في ناحية عنكاوا، ثم أذهبُ من بعدها إلى عملي في القناة .

بعد أن انتهيت من تناول الفطور على عجل، اتجهت إلى غرفة النوم حتى أغير ملابسي، فإذا بولدي يقف عند الباب ويخبرني بأنه لن يأتي معنا إلى لبنان، وأنه يفضل البقاء في البيت، ولمَّا طلبت منه أن يوضح لي الأسباب كان جوابه واضحًا: "أنتما ذاهبان لغرض العلاج، وبحاجة ماسة إلى أصغر عملة نقدية بسبب ارتفاع تكاليف العلاج، لذا ليس هناك سبب معقول يرغمني على السفر معكما، كما أنني سأبقى هنا لحراسة البيت".

فشلت كل محاولاتي معه لكي يعدل عن موقفه، لأننا ماكنا نريد أن نبقى مشغولي البال عليه بينما هو باق لوحده في البيت، وبقدر ما أحالني موقفه إلى أن أكون في حيرة من أمري إلا أنني في أعماقي شعرت بشيء من الفخر، إذ لم أكن أتوقع أن ترتفع لديه روح المسؤولية إلى هذه الدرجة، رغم أنه لم يتجاوز الخامسة عشرة من عمره، وكان قد انتهى توًّا من امتحانات البكالوريا، حينها أدركت بأن السنين تحرق أعمارنا ونحن غافلون عنها، وعلى ما يبدو فإنني قد وصلت إلى المحطة التي لم تكن تخطر على بالي أني سأصلها بوقت مبكر، فقد أصبح ولدي رجلًا يعبر عن رأيه ويتمسك به بينما هو في نظري ما يزال طفلا يحبو، وهذا ما يدفعني إلى أن

أقاضي رأيه بالامتثال له طائعًا، ورغم أني ما كنت مرتاحًا لبقائه وحده في البيت إذا ما سافرنا، إلا أن سعادتي به كانت كبيرة بعد أن وجدته وقد أصبح على أعتاب أن يصبح رجلا يُعتمد عليه في تحمل المسؤولية.

ها هي اذن علامات الزمن تفرض حضورها واضحة مثل بقية الأشياء التي أواجهها يوميًا، وما من مجال لتفادي هذا التغيير، مثلما من غير الممكن أن لا أسمع صوت الباعة الجوالين وهم ينادون على بضائعهم يوميًا أو أن أتفادى انسكاب خيوط الشمس الساخنة وأنا أمشي في شوارع العراق .

هكذا تصرُّ الحياة على أن تذكرنا بين فترة وأخرى عبر إشارة منها بأننا قد استهلكنا سنينًا من أعمارنا التي باتت تتراصف خلفنا في دفتر الذكريات، بينما ما زلنا في داخلنا نشعر وكأننا لم نغادر أجمل فترة من أعمارنا، ونعاند أنفسنا، فلا نريد لها أن تُطوى، ربما لأن أغلبنا لم يعش حياته كما كان يحلم، وما زال الكثير من أحلامه ينبثق مثل ينبوع في داخله يغذي عطشه إلى الحياة رغم انكشاف البياض في شعر رأسه.

وصلت مبكرًا صباح يوم الأحد إلى مكتب الحجز الأنيق الذي يقع في الشارع الرئيس لناحية عنكاوا على الطريق المؤدي إلى مقر عملي في القناة الفضائية، ولم يكن اختياري له عن طريق الصدفة، إنما كنت قاصدًا التعامل معه لأن صاحب المكتب سبق له أن عمل معنا محررًا للأخبار قبل أن يستقيل ويفتتح هذا المشروع، وما أن دخلت سألت عنه الموظفة الشابة التي كانت لوحدها جالسة خلف مكتبها، فأخبرتني بأنه قد سافر إلى بودابست في رحلة عمل لعدة أيام .

جلست على كرسي إلى جانب مكتبها وطلبتُ منها أن تحجز لي تذكرتين، ذهابًا وإيابًا إلى بيروت يوم الثلاثاء القادم، مع حجز بفندق قريب جدًّا من مستشفى الجامعة الاميركية، عندها أطلعتني عبر الإنترنت على خارطة الفنادق التي تقع في المنطقة المحيطة بالمستشفى وأشارت إلى واحد منها، وكان الأقرب إلى مبنى المستشفى، وبعد أن انتهيت من الحجز اتجهت إلى مبنى القناة الفضائية، الذي يبعد مسافة خمس دقائق مشيًا على الأقدام لأحيط

الإدارة علمًا بموضوع السفر وأقدِّم بناء على ذلك طلبًا رسميًّا للموافقة على منحي إجازة لمدة أسبوعين حتى بدون راتب إذا كان هناك ما يمنع ذلك.

كانت الساعة تشير إلى العاشرة صباحًا وشمس حزيران مصرة على أن تنزل مثل السياط على الرأس رغم ان الوقت ما يزال مبكرًا قبل أن تحلَّ ساعات الظهيرة، حيث حرارتها تدفعنا إلى أن نغمض أعيننا تلافيًا لانعكاس أشعتها الساطعة وهي تسقط على الأرض، وبينما كنت أسير على الرصيف مختنقًا من ندرة الهواء وأنا أحاول الاحتماء بأي ظل لجدار يصادفني، كنت على يقين من أن أي شخص عابر لا يعرفني إذا ما صادف أن أنتبه إلى وجودي فمن المرجح أنه إذا ما خطر في باله أن يخمن عمري فسيضيف إليه عشرين عامًا فوق الرقم الحقيقي، بناءً على ما كان يثقل رأسي من أفكار في تلك اللحظات.

موعد إقلاع الطائرة في تمام الساعة الخامسة عصرًا من يوم الثلاثاء القادم، أي بعد يومين، وإلى أن يحين هذا الموعد كانت الدقائق تمضي ثقيلة بالنسبة لي وكأنها قد حُقنت بمخدر ولم تعد تقوى على الجريان، وكم كنت أرجو أن ينقضي الوقت سريعًا مثل رمشة عين ليحين موعد السفر، ليس لأني كنت متلهفًا وسعيدًا بهذه الرحلة، إنما لأني كنت خاضعًا لسطوة الأفكار التي كانت تتناهبني حول النقاط السوداء والتي لن يُكتب لها أن تغيب عن تفكيري إلَّا بعد أن يحسِم حقيقتها جهاز(PET SCAN)، ربما لو كانت الرحلة في ظرف آخر، لتداخلت فيها مشاعر الفرح والبهجة، لأنني سأرى بيروت التي كنت أحلم برؤيتها مذ كنت شابًا مراهقًا في منتصف سبعينات القرن الماضي أتابع أخبارها عبر ما يصل من لبنان يوميًّا من مطبوعات وإصدارات حديثة إلى شارع النجفي في مدينتي الموصل، حيث مكتباته العامرة بالصحف والمجلات والكتب، وكنت أجمع الفلس فوق الفلس حتى أتمكن في نهاية الأسبوع من شراء مجلة أو صحيفة لبنانية لأنني كنت مندهشًا من انفتاح الحياة البيروتية وحداثتها وارتفاع سقف التعبير عن الحرية فيها وخاصة في الصحافة السياسية، بينما كنا نحن نعيش عصرًا آخر لايتسنى للنَفَس ان يخرج منّا إلا بعد ان نتلفت يمينًا و يسارًا خشية ان

يرصدنا المخبرون، فلم أتوقف عن شغفي برؤية البحر وشارع الحمرا والكثير من أحيائها ومعالمها ومسارحها وفنانيها، حتى إنني عرفت عنها أكثر مما كنت أعرفه عن بغداد، ودائمًا ماكنت أتساءل، هل سيُكتب لي في يوم قريب أن أقف مقابل صخرة الروشة؟ ولكن في الآخر لنا كأسنا وللدنيا كأسها، وبكل الأحوال الغلبة لها في هذا الشرق المهووس بغلق النوافذ والمنافذ والأبواب، ومرت السنوات عجافًا وابتلعتنا دروبُ الحياة وكانت كلها تؤدي إلى محرقة الحروب وليس إلى بيروت، ثم جاءت سنوات الحصار فإذا بنا ندور في حلقة مفرغة باتت تكبر يومًا بعد آخر، إلى أن حفر الزمن بمعاوله أثارًا واضحة علينا، وألقى بنا على رمال ساخنة اكتوت بها أرواحنا قبل أجسادنا، ولم نعد نمتلك ما يكفي من العمر ولا الفضول للوصول إلى ماكنا نحلم به من مدن وأفاق، بدَا الأمر لي هكذا بينما كنت أتفقد ما في داخل الحقيبتين من ملابس وحاجات شخصية سنحتاجها خلال إقامتنا القصيرة في بيروت لمدة لا تزيد عن أسبوع، ولهذا لم أكن على تلك الحماسة التي كنت عليها قبل أربعين عامًا، فقد ذوت جذوة الحب لهذه المدينة التي كانت حلمًا جميلًا ظل يسكنني، ولم يتبق منه ما قد يبعث على الإحساس به، كما أن بيروت لم تعد بيروت، فقد تلفعت هي الأخرى بثياب سوداء وباتت مثل أي مدينة شرقية تدفن رأسها في رمال التاريخ.

كان يتوجب علينا الوصول إلى مطار أربيل قبل موعد انطلاق الطائرة بساعتين على الأقل، وما أن حانت الساعة الثانية بعد الظهر حتى بدأنا في الاستعداد لمغادرة البيت، وقبل أن نحمل الحقائب شعرت وكأني بدأت أفقد السيطرة على مشاعري بينما كنت أحاول أن أجد كلمات مناسبة أوصي بها ولدي للحفاظ على سلامته وسلامة البيت أثناء فترة غيابنا، وضرورة أن يبقي هاتفه مفتوحًا دائمًا، أمّا والدته فلم تستطع أن تتمالك نفسها، وانفرطت دموعها وهي تحتضنه، فأعادني هذا المشهد إلى نفس اللحظات قبل شهر، عندما كنّا نعتزم التوجه إلى المستشفى لكي تجرى لها العملية الجراحية، ولكن الاختلاف بين المشهدين، أن محمدًا ولأول مرة سيكون بعيدًا عنّا مئات الكيلومترات وهذا ما لم تكن تحتمله هي مقارنة بي، وأنا أجد لها العذر إذا ما كانت تحمل له هذه العاطفة بقدر أكثر مني، فهي لا تستطيع أن

تحتمل غيابه عنها إذا ما تأخر ربع ساعة عن موعد وصوله إلى البيت بعد خروجه من المدرسة يوميًا، لأنها عانت الكثير قبل أن تُكتَبَ له الحياة بعد أن تعرضت مرتين وبشكل متتابع لعملية إسقاط، ومن جرائها فَقَدْنا ما كنا ننتظره بفارغ الصبر، ففي الإسقاط الأول كان عمر الجنين قد وصل إلى خمسة أشهر وفي الثاني إلى أربعة أشهر، ثم شاءت ظروف غامضة لم يحصل فيها حمل لمدة أربعة أعوام، أجتهد في تفسير أسبابها عدد من الأطباء الذين راجعناهم ولكنهم لم يصلوا إلى نتيجة تفضي لعلاجها، وكل واحد منهم كان له تشخيصه وتحليله ووصفاته العلاجية ولكن دون جدوى، إلى أن أطلَّ محمد متدفقًا بحيوته ونشاطه فأشاع البهجة في أركان البيت، وبعث فيها الأمل والإحساس بالحياة بعد أن عبست بوجهها طيلة أربعة أعوام ولم تجد إلا في الدعاء والصلاة وقراءة القرآن عزاء لها، لكنها ورغم الحسرة التي كانت تكبتها في داخلها ما أن ترى أطفالًا يمرحون، لم يكن يصدر عنها أي نأمة بما يشير إلى أنها كانت غير راضية عن ما كتبه لها الله من قسمة، رغم أنني شخصيًا كنت عازمًا على أن يكون لي نصف دزينة من الأولاد، وبقيت محافظة على اتزانها وحكمتها وهذا ما كنت أفتقده أنا شخصيًّا، وبتلك التجربة التي عاشتها ولم تدفع إيمانها للاهتزاز، اكتشفتُ ما بيننا من فروقات في الطباع والأفكار، فهي امرأة قنوعة ولا تُشمُّ منها رائحة تذمر مهما ضاقت عليها صروف الدهر، بينما أنا رجل جزوع ملول، وإذا ما وجَدَتني أعبِّرُ عن سخطي إزاء ما قد يصادفني من عقبات، كانت ترجوني أن أكف عن ذلك وأن أحمد الله على كل شيء، وما زلت حتى هذه اللحظة أحسدها على هذه القناعة التي تملكها، رغم ما مرت به من أوجاع أخذت منها الكثير من صحتها، فقبل أن تصاب بسرطان الثدي كان قد داهمها فجأة مرض الروماتزم الرثوي وأصاب جميع مفاصلها، ولم تكن تستطيع الوقوف على قدميها لفترة لا تزيد عن عشر دقائق، إذ كانتا تتورمان وتصبحان مثل أقدام الفيل وبقيت على هذه الحال لمدة عام كامل، وفشلت كل الأدوية في الحد من تمدده، إلا بعد أن لجأنَا إلى الطب البديل، فاعتمدنا طريقة الحجامة لمدة عام كامل، حيث واصلت عليها في أيامٍ وأشهرٍ معينة من السنة، ولمَّا خفَّت أوجاعها بنسبة كبيرة جدًّا وباتت

تستطيع أن تمارس عملها في البيت بشكل طبيعي، ارتأت أن تجري فحصًا في المختبر لقياس نسبة الروماتزم في جسمها، فكانت المفاجأة عندما وجدناها قد تراجعت إلى 21 % وهي النسبة الطبيعية للإنسان بعد أن كانت 56 % لكن الروماتزم لم يشأ إلاَّ أن يترك أثرًا في أصابع يديها إذ انحرفت قليلًا عن استقامتها، كذلك قدمها اليمنى بدَا عليها شيء من الاعوجاج، حتى أنها لم تعد تسير بشكل طبيعي، وهذا ما يشكو منه معظم المصابين به، ولا زلتُ أذكر أن إصابتها بهذا المرض كانت عام 1999 بعد ولادة محمد بستة أشهر، ونتيجة للأدوية التي كانت مُلزَمَةً بتناولها، نصحها الطبيب محمد طاهر رسول، وهو أشهر الأطباء المختصين بهذا المرض في الموصل، بأن لا تفكر نهائيًّا بالإنجاب مرة أخرى، وخيّرني أنا شخصيًّا ما بين الحفاظ على حياتها أو التفكير بطفل آخر، فاخترتها هي.

10

ولادة جديدة بعد منتصف الليل

هذه هي المرة الأولى التي نتركه وحيدًا في البيت بينما نغادر إلى خارج العراق، لم يخطر على بالنا في يوم ما أن نمتلك الشجاعة على تحمل مثل هذه الخطوة، فقد اعتدنا منذ خمسة عشر عامًا على أن نكون ثلاثتنا معًا، أشبه بمثلث لا يكتمل وجوده وشكله إلا إذا التقت أظلاعه الثلاثة واستندت رؤوسها إلى بعضها، فحضوره كان بمثابة لمسة رمزية من السماء مسحت بدفئها كل الأوقات التي لم تكن تغمض فيها أجفاننا إلا بعد أن يثقلها السهر من كثرة التفكير.

إنه خيط المحبة المتين الذي أعاد الحياة إلى علاقتنا التي كادت أوراق أغصانها الخضراء أن تجف، فكتب بميلاده بداية جديدة لها، ومع إشراقة إطلالته إلى الدنيا شَعَر كلانا كما لو أننا استعدنا دهشتنا الأولى أمام نور الشمس واخضرار العشب ونسمة الهواء، وكل الأشياء التي تحيط بنا من سماء ونجوم وضياء وجبال وبشر وأشجار وحجر وأصوات، كل شيء من حولنا أصبح بيننا وبينه لغة سرية نتواصل بها، ومن خلالها نتبادل مشاعر المحبة دون شروط، ولم يعد في هذا الكون ما يبعث على القلق، وبهدوء تام انتظمت حركة الموجودات من غير أن يكون بينها تنافس وأحقاد، هكذا بدَا العالم ما أن أطلق صرخته الأولى وهو مغمض العينين معلنًا قدومه في الخامس والعشرين من شهر كانون الاول 1999 في مستشفى الخنساء للولادة بمدينة الموصل، بعد أن كنّا قد افتقدنا لهذا الإحساس المدهش بجماله طيلة السنين التي كنا ننتظر فيها أن تهبط علينا إشارة تحف حياتنا بنور الطفولة وأن تُكتَب للجنين القادم فرصة الحياة، وأن لا تنطفئ الروح فيه قبل أن يخرج إلى نورها مثلما حدث في المرتين السابقتين.

لن انسى أبدًا كيف ضج قلبي بفرح طاغ لا شبيه له في تمام الساعة الواحدة والنصف بعد منتصف ليلة الخامس والعشرين من شهر كانون الاول عندما

كنت مع عاصم زوج أختي غير الشقيقة جالسَين في سيارته بينما كنا ننتظر خارج مبنى المستشفى، ورغم انخفاض درجة الحرارة في تلك الليلة شعرت بدفء الحياة ما أن نَقَرت والدتي بسبابة كفها على زجاج نافذة السيارة، ولما التفتنا ناحيتها وجدناها تبتسم، لحظتها كان بي شوق عظيم لمعرفة الخبر الذي جاءتنا به، خاصة وأن علامات السرور كانت قد جعلت وجهها مشرقًا في تلك الساعة، حيث كان الظلام مخيّمًا على الشارع الطويل الموازي لمبنى المستشفى إلا من خيوط ضوء واهنة كانت تهمي من مصباح معلق في نهاية عمود كهرباء يبعد عنا مسافة عشرين مترًا.

"مبارك رزقك الله بولد " قالتها لي والدتي ولم تنتظر حتى أفتحَ باب السيارة، حينها شعرت بالدم يجري في عروقي، وإذا بي أذرف دمعة ساخنة وأعجز عن النهوض من على المقعد، عندها ربَت زوج أختي على كتفي وقال: "وأخيرًا سأناديك أبو محمد".

لم يكن مجيئه سهلاً بعد أن طال انتظاره أربعة أعوام بأيامها ولياليها، كانت أنفاسنا فيها تتقطع بسكاكين اليأس ونحن معلَّقَون بحبل واهن من الرجاء، في زمن كانت فيه الحياة داخل العراق تئِنُّ من وطأة الجوع الذي بات يفتك بأحلامنا بسبب الحصار الدولي، ولن أشكَّ أبدًا في أن الكثير منّا كان يتمنى في بعض الأوقات أن يودع الدنيا على أن يستمر الحال مرهونًا في غياهب المجهول.

مع مرور الوقت بدأ أملنا يضعف شيئا فشيئا بإمكانية حصول الحمل، مثلما يضعف نظر الإنسان كلما يتقدم به العمر وتتوغل في جسده الشيخوخة، ولن يكون أمامه إلا أن يمضي طائعًا بهدوء إلى آخر رحلةٍ في سفر الجسد، ومن غير أن تكون أمامه أي فرصة للرجوع إلى الوراء.

كم حاولنا أن نحتمي بجدار الأمل، في زمن غاب عنه الأمل حتى لا ننهار من قسوة الشعور بالألم، ومن جانبها هي لم تكن تحتاج إلى من يرشدها للاستعانة بالله، لأنها دائمًا ما كانت تشعر بوجوده معها في كل لحظة، وغالبًا ما كنت أصحو في عُقبى الليل وقبل أن يطوي رداءه وينسل بنعومة فاسحًا الطريق لرائحة الفجر، لأجدها مقرفصة على أرضية غرفة النوم

تقرأ القرآن، إلى أن تسمع آذن الفجر، عندها تتوقف عن القراءة، ثم تطبق دفتي القرآن وترفعه قليلًا لتقبله، ثم ترفعه درجة أعلى حتى يلامس جبهتها، كما لو أنها تلتمس من الله بهذه الحركة أن يحقق لها مرادها ويمسح عنها أوجاعها.

أما من ناحيتي، فقد تسمَّر الزمن في مكانه مُعلّقًا مثل صورة فوتوغرافية على جدار، حتى إنني وصلتُ إلى مرحلة تهاوت فيها الظلال التي كنت أحتمي بها في جبهة الحياة، وبدأت أسمع صوتًا في داخلي يهمس لي بأنَّ القدر لم يعد يلتفت إلينا وأشاح بوجهه عنا، رغم أن الفرصة كانت آنذاك لم تزل مؤاتية، إذ كان عمرها واحدًا وثلاثين عامًا، وأنا لم أتجاوز الواحد والأربعين، فإذا بالحلم الذي تمسَّكتُ به سنين طويلة وكنت عازمًا على أن أبعث فيه الحياة وذلك بإنجاب نصف دزينة من الأطفال قد تحول إلى ما يشبه سحابة من دخان بعد أن تكرر الاسقاط مرتين متتاليتين، ولم يكن بين الأولى والثانية إلا فترة زمنية لم تتجاوز الستة أشهر، وهذا ما أثبت لنا وللأطباء بأنه لا يوجد أي سبب يمنع الحمل للأعوام الأربعة الماضية.

قضية الإسقاط المتكرر جعلتنا نرتمي في بؤرة من الحيرة لم نستطع الخروج منها، وأكثر ما أحزنني شخصيًّا أن ملامحهما كانت قد بانت، ومن السهولة ملاحظة الشبه الواضح بيني وبينهما، فقط الاختلاف كان في لون بشرتهما التي بدت أبعد ما تكون عن لون بشرتي السمراء، وأقرب ما تكون إلى بشرة أخوالهما التي تميل إلى البياض، وأذكرُ جيدًا أنني في المرتين شعرت بقواي تنسلُّ مني، وعروقي تتيبس، ورأسي يكاد ينفجر من شدة الإحساس بقسوة اللحظة، حتى إنني لم أمتلك ما يكفي من الشجاعة حتى ألقي عليهما النظرة الأولى والأخيرة إلا لثوانٍ معدودة، بينما جسدي كله كان يرتعش وأنا أتقدم نحوهما لأقبّلَ وجنتيهما قبل أن يتولى أخواي "غير الشقيقين" غسان وخالد، مسؤولية غسلهما وتكفينهما، ومن ثم الذهاب بجثتيهما بسيارة غسان لدفنهما في مقبرة وادي عكاب التي تقع في الشمال الغربي من مدينة الموصل، وفي المرتين كانت والدتي تقول لي نفس الجملة: " لا تحزن ولا تجزع، لأن أي طفل يموت فهذا يعني أن الله قد

اصطفاه من بين البشر ليكون من طيور الجنة، وسيشفع لوالديه يوم القيامة".

لم نستطع إيقاف نزيف الأسئلة التي بقيت بلا أجوبة، ولم يستطع جميع الأطباء الذين راجعناهم أن يجدوا تفسيرًا مقنعا لأسباب عدم حصول الحمل لمدة أربعة أعوام بعد الإسقاط الثاني، وكل واحد منهم كان يقدم لنا فرضية تختلف عن فرضية الآخر، ومع كل رأي لطبيب كانت الأدوية تتراكم في الثلاجة حتى تحولت إلى صيدلية مصغَّرة.

في لحظة ما شعرنا بأن لا جدوى من الدوران في هذه الحلقة المفرغة ونحن نطرق أبواب عيادات الأطباء، ولهذا اقترحت عليها أن نكفَّ نهائيًا عن مراجعتهم، فأنا شخصيًا لم أعد قادرًا على أن أواصل التشبث بأطراف حلم أمسى وقعه قاسيًا عليّ كلما تعلقت به، رغم إدراكي التام بأن الفراغ الذي تشعر به كان قاتلًا طالما هي تبقى وحيدة في البيت طيلة ساعات النهار أثناء ما أكون في العمل، فما من شيء يمكن أن يملأ حياة المرأة سعادة وبهجةً مثل الأطفال، وبوجودهم تشعر بكيانها الإنساني كأنثى، ويتعزز حضورها الاجتماعي، فالأطفال بالنسبة لها بمثابة السقف العاطفي الذي تحتمي به دون تحفُّظ أو شروط تخضع لها، ومن خلالهم تستمد طاقة سرية تدفعها لأن تتحمل كافة الصعوبات التي قد تواجهها في حياتها الزوجية، فهم الشريان الذي يمدّها بنسغ الحياة ولن تستطيع أي علاقة مهما كانت قوية في عواطفها الصادقة أن تحلَّ بدلًا عن علاقتها بأطفالها، حتى الزوج غير قادر على أن ينافس هذا الحب الفطري بين الأم وأولادها مهما كان يحمل لها من آيات المحبة.

أحاطت بنا أفكار غريبة في مرحلة ما من الانتظار، لم نكن نقتنع بها سابقًا خاصة من ناحيتي، فأصبحنا نؤمن مثل غيرنا بأننا قد وقعنا تحت سلطة الحَسَد، ربما من أقاربي أو من أقاربها أو من الجيران، هكذا غدونا نذهب في تفكيرنا إلى مناطق هشَّة لن تصمد أمام المنطق من بعد أن عجز المنطق نفسه عن أن يقدم لنا ما يشفي غليلنا، فتحولت حياتنا إلى دوامة تنهل من الغيبيات، وبصعوبة بالغة كنت أتقبل الدخول في شراك هذه الغيبوبة العقلية

والدخول في دهاليز العقل الجمعي بكل ما فيه من خرافات، لكن ليس باليد حيلة أحيانًا، ولم أستطع الهروب من هذه الدائرة المغلقة في وقت من الأوقات، خاصة بعد أن دخلنا في مرحلة أوشك فيها الأطباء على رفع الراية البيضاء، فما كان أمامي إلا أن أستجيب لرغبتها في اللجوء إلى بعض الشيوخ المعروفين في الموصل ممن يقرءون التعازيم ويقصدهم الناس لأسباب شتى مثل سيّد توحي، ورغم ذلك لم نتلقَّ أي علامة تشير إلى أن الفرصة قادمة، لذا طلبت منها أن تسلم أمرها لله، عندها تقبلت الأمر ولم تقل سوى جملة واحدة: " الحمد لله على كل شيء".

الغريب في مصادفات ما واجهناه أن هذا الشعور بالإذعان والاستسلام لم يدم فترة طويلة، وهنا كانت المفاجأة التي ضربت عرض الحائط بكل تخمينات الأطباء، ودفعتنا إلى تنظيف الثلاجة من جميع الأدوية ورميها في برميل النفايات وفعلًا جاءت نتيجة الفحص في المختبر بعد شهرين من انقطاعنا عن مراجعة الأطباء لتؤكد لنا بأن الأمل بمجيء محمد إلى الحياة قد أصبح حقيقة، وبقينا في حالة من الشده، وبينما كان ينظر أحدنا إلى الآخر ولسان حاله يقول في داخله: "هل يعقل هذا!"، حينها أيقنت بأن لعبة الحياة والموت ليس لنا فيها أي إرادة، ولا يمكن للإنسان أن يتدخل فيها حتى وإن فعل ذلك، فهي أمر لا يعيه ولا يدركه مهما بلغَ به العلم والمعرفة شوطًا بعيدًا، وسيبقى عند حد معين يتخبط بأفكاره مثل من يدخل دهليزًا معتمًا يسير في ظلماته ولن يصلَ إلى جواب عن أسئلته التي دائما ما يكررها: لماذا؟ وكيف؟ ومتى؟

لكل هذه الأسباب كان قلقنا إزاء محمد من الصعب على الكلمات أن تصفه ونحن نتركه وحيدًا في البيت، دون أن نعرف ماذا يخبئ لنا القدر في رحلتنا إلى بيروت خاصة من ناحية والدته، لأنها كانت في وضع صحي ونفسي لا يسمحان لها أن تفكر بأي شيء سوى البحث عن إشارة أمل تطمئنها بالشفاء.

كنَّا على يقين من أن الوقت ما زال مبكرًا جدًا حتى يتحمل مسؤولية البقاء لوحده، فهو في نظرنا لم يتعد مرحلة الطفولة وما يزال يعتمد علينا في أكله

وشربه وفي كل صغيرة وكبيرة من حياته الشخصية، بل إننا لم نكن نسمح له ما أن يعود من المدرسة يوميًا أن يغادر البيت إلى أي مكان برفقة أصدقائه، وبنفس الوقت لم يكن هو الآخر يشعرنا بأنه متضايق من هذا الاهتمام المفرط أبدًا، بل كان حريصًا على طاعتنا وإظهار مشاعر المحبة لنا، وأظنه يومًا بعد آخر أصبح منسجمًا مع هذا النظام، رغم أنه كان يتصل بأصدقائه عبر الهاتف ويتفق معهم على اللقاء في إحدى صالات العرض السينمائي في "فاملي مول" إذا ما تم الإعلان عن البدء بعرض فيلم جديد، ولكنه لم يكن حريصًا على الخروج من البيت دائمًا، وجل وقته كان يقضيه باللعب عبر الإنترنت مع أصدقائه، ولهذا لم يشكل سفرنا مشكلة بالنسبة له، ولن يشعر بالفراغ أو الوحشة.

ولكي يطمئننا أصرَّ على إنه لم يعد طفلًا، خاصة بعد أن نجح في امتحانات البكالوريا واستلم النتيجة، رغم أنها لم تكن بعلامات جيدة تتناسب مع قدراته العقلية ومستواه العلمي الذي كان عليه طيلة مراحل الدراسة، ولكنني أعلم جيدًا بأن سبب تراجع مستواه يعود إلى ارتباك حالته النفسية بعد أن أصيبت والدته أثناء استعداده لأداء الامتحانات النهائية.

ركبنا سيارة أجرة من أمام باب البيت في الليلة التي سبقت أول أيام شهر رمضان عام 2016 متجهَين إلى مطار أربيل ، وما أن تحركت السيارة حتى استدار محمد الذي كان يقف عند عتبة الدار لتوديعنا، ودخل بعد أن أغلق الباب الخارجي خلفه، ولم ينتظر إلى أن تختفي السيارة بعد أن تنحرف في اتجاهها وتدخل الفرع المؤدي إلى الشارع العام.

الإحساس بالغربة لا ينتظر منك أن تفتح له الباب حتى يدخل إليك، إذ سرعان ما تجده يقتحم كيانك وأنت مذهول وعاجز عن مقاومته، فيستولي عليك الصمت لأن الشعور به ينبثق ويتمدد في خلاياك وفي شراييك، فتشعر كما لو أنك معتقل وتخضع لسيل متلاحق من الأسئلة التي تحشرك في دائرة من الاتهامات وأنت لا تعرف بماذا أنت متهم، ودون أن يتيح لك فرصة الإجابة، فيفتح عليك نيران أسئلته، وأنت تبدو تائهًا وهائمًا في دروب بعيدة كما لو أنك خاضع لحالة من الخدر.

لا أظن أن هناك ما هو أصعب من الشعور بالغربة عندما يستولي على الإنسان وينال منه، عندها ينكمش على ذاته ويحتبس في داخله الصوت، فلا يقوى على أن يبوح بما في داخله، وحتى لو صرخ بصوت عالٍ فلن يسمعه أحد، إنها صرخة في وادٍ عميق، سيرتد صداها ولكن لا أحد سيسمع الصدى سواه.

في تلك الساعة ونحن في السيارة نتجه إلى المطار تلبسني الشعور بالغربة وتوغل عميقًا في مديات الروح، بعد أن هبط علي بشكل غامض ما أن صفع وجهي الهواء الساخن الذي كان يندفع من خلال النافذة المفتوحة على يميني بينما ذراعي كانت تتكئ عليها، لم أصل سابقًا إلى قوة الإحساس بمثل هذا الشعور كما في تلك اللحظة، مع أنني أعيش غريبًا منذ ثلاثة عشر عامًا، أي المفروض أن أكون قد اعتدت على أن وجودي بعيدًا عن الأهل والأقارب والمعارف منذ فترة زمنية طويلة ولم يعد وجودي الاغترابي وسط بيئة ليس بيني وبينها تاريخ اجتماعي، وليس بيني وبين من يجاورني من الناس في المنطقة التي أسكن فيها أي صلة، حتى إن اللغة الكوردية التي لم أستطع تعلمها ربما بسبب التقدم في العمر ما كانت عائقًا أبدًا في التواصل مع الآخرين، لأن معظم الكورد يجيدون التحدث باللغة العربية، ولهذا لم أشعر بالغربة طيلة السنين التي قضيتها في أربيل.

أحيانا كان الحنين يجتاحني مثل طوفان بين فترات متباعدة، إذا ما صادف أن سمعت أغنية عراقية، خاصة عندما أستمع إلى صوت المطرب الموصلي محمد حسين مرعي وهو يغني "عايل يالأسمر عايل، صَبَّح ضعنكم شايل" ولهذه الأغنية بلحنها وكلماتها وطريقة أدائها ارتباط سري وعجيب بوجداننا الجمعي نحن ابناء مدينة الموصل، ومايزال صوت "بلبل الحدباء "كما يحلو للموصليين ان يطلقوا على المطرب محمد مرعي، قادرًا على أن يفجر في داخلي حنينًا خطرًا بعذوبته إلى كل الاشياء التي احببتها في حياتي والتي قطفها الزمن من شجرة الحياة اليانعة وامست راقدة في صفحاته المطوية، ابي الذي لم تره عيني، جدتي العظيمة "فهدو"التي ربتني، خالي محمد ايوب الدليمي الذي كان مثل طائر يغرد في صحراء

قاحلة إلى ان اعدمته السلطة عام 1993 بذريعة التآمر على قلب نظام الحكم، أصدقائي الذين غادروا الحياة، عبدالرزاق ابراهيم وفريد عبد الطيف، شوارع وأزقة الموصل القديمة التي استحالت في ما بعد وتحت عنوان تحرير المدينة من سلطة الخلافة إلى كومة أنقاض تئن تحتها ضحكاتنا وأمانينا وأعوامنا التي ارتوت من مياه المحبة، الساعات الطويلة التي كنا نقضيها في قاعة الربيع ونحن نتمرن على عروض مسرحية، سنوات المراهقة الجميلة أيام الدراسة الإعدادية بكل ما فيها من عبث وتمرد وتقليد لموجة الهيبيز في الشَّعر والثياب، ليالي السهر الطويلة على ضفاف نهر دجلة برفقة الأصدقاء من المسرحيين والشعراء.

غالبا ما يتكفل الدمع بغسل جدران الروح مما علق بها من مشاعر الأسى، ثم ينتهي كل شيء بعد ثوان معدودة ونعود إلى طبيعتنا فنمارس حياتنا وكأن شيئا لم يكن، وعلى الرغم من قسوة المشاعر التي يفجرها الحنين إلا أنه لا يترك فينا جروحًا عميقة، وكأنَّ له لمسة سحرية يداوي بها ما أصاب براءتنا بفعل وقاحة الزمن، بينما مشاعر الغربة تترك فينا إحساسًا بالعجز رغم الجحيم الذي يسكننا.

في طريقنا إلى المطار لا أتذكر الآن كيف بدأ الحديث بيني وبين السائق الكوردي، بالشكل الذي رسم الطريق أمامي واضحًا لكي أفصح له عن سبب سفرنا إلى لبنان، مع أن الأمر لا يبدو مستغربًا، فعادة ما تنفتح الأحاديث مع سائقي التاكسيات دون تحضير مسبق، وتنزاح الحواجز معهم شيئا فشيئا، ربما لأنني كنت مهمومًا وبحاجة ملحة لكي أفضفض عما يرقد بداخلي من هواجس لأي شخص كان إذا ما وجدته مصغيًا لي، خاصة وأن الأيام الماضية التي رافقت فيها زوجتي كنت وحيدًا ولم يكن معي أي شخص حتى أقاسمه الهموم، فكان الشعور بالغربة يجرحني بقسوة، والمهمة التي كان علي أن أتحملها بدأت تكبر، مع أنني مدرك تمامًا بأن المسؤولية أولًا وآخرًا تقع على عاتقي شخصيًا ولا ينبغي أن أنتظر مساندة تهبط علي من هنا أو من هناك، وكل الخيارات كانت مغلقة أمامنا، ولم يكن ممكنًا أن يحضر أي شخص من الأهل أو الأقارب من الموصل ليكون إلى جانبنا،

بعد أن سقطت المدينة تحت سلطة تنظيم داعش، وكانت أخبار العنف التي يتعامل بها التنظيم مع الناس تشي بحالة الرعب الذي أمست عليها حياتهم، ومما عمق هذا الشعور أشرطة الفيديو المتقنة الصنع التي كان التنظيم يحرص على أن يبثها عبر موقع اليوتيوب بين فترة وأخرى مستعرضًا فيها عمليات إعدام لمواطنين من سكان الموصل لمجرد أنهم خالفوا تعليماته، حتى إنه في يوم 2015/8/7 عُلقت على جدار مبنى الطب العدلي قائمة بأسماء 2072 شخصًا معظمهم من العرب السنَّة أقدم على إعدامهم، مثلما فعل مع البقية من أتباع الأديان والمذاهب والقوميات الأخرى، ولم يكتف بإعدامهم بل رمى بجثثهم في حفرة عميقة تسمى "الخسفة" تقع بالقرب من ناحية حمام العليل التي تبعد 27 كم جنوب شرق مدينة الموصل، وكانت تلك المقاطع الفديوية بمثابة رسائل إنذار بالغة الوحشية حطمت أي أمل بنجاة أكثر من ثلاثة ملايين نسمة كانوا يرزحون تحت سلطة الرعب.

أبدى السائق تعاطفه معنا بينما كنت أستعرض له ما جرى لنا خلال الأيام القليلة الماضية، فنصحنا بمراجعة مستشفى (نانا كلي) في أربيل بعد عودتنا من السفر، وقال لي بأنه مستشفى حكومي خاص بأمراض السرطان، وستجدون فيه رعاية جيدة، وكل ما تحتاجونه من أدوية وعلاجات.

اقتربنا من نقطة سيطرة تابعة للمطار، فتوقفت السيارة بانتظار أن يصلنا الدور بعد أن يتم تفتيش عدد من السيارات التي كانت أمامنا.

نزلنا من السيارة عندما طلب منا الشرطي المسؤول عن التفتيش، وطلب من زوجتي أن تتجه إلى كرافان خاص لتفتيش النساء يقع على بعد مسافة عشرين مترًا من نقطة السيطرة .

بعد انتظار لم يدم سوى دقائق معدودة أصبحنا داخل صالة المطار في الباحة المؤدية إلى مكاتب تدقيق الجوازات ووزن الحقائب، وقبل أن يصلنا الدور لم يخامرني الشك في أننا سنحتفظ بالحقيبتين لتكونا معنا في الطائرة ولن يتم شحنهما مع الحقائب الثقيلة للمسافرين لأن وزن كل واحدة منهما لم يتجاوز العشرة كغم.

رفعتُ الحقيبتين عن الأرض وتكفلت بحملهما، ولم أسمح لها عندما حاولتْ أن تساعدني في حمل واحدة منهما، ثم اتجهنا إلى البوابة رقم 2 المخصصة للرحلة رقم 325.

تم تفتيشنا بشكل دقيق، ثم استلمنا حقائبنا واتجهنا إلى صالة الانتظار حيث كان يتوجب علينا الجلوس فيها قبل نصف ساعة من موعد إقلاع الطائرة، ولأنها لم تتعود أن تجلس على كرسي لفترة طويلة من الوقت بسبب مرض الروماتزم، طلبتُ منها أن تمدَّ ساقيها للأمام وترفعهما قليلًا ليستقرا فوق حقيبتي السفر بعد أن كنتُ قد وضعتُهما على الأرض واحدة فوق الأخرى لتكونَا بمستوى ارتفاع الكراسي التي نجلس عليها.

على الرغم من أن صحتها لم تكن تحتمل الحركة لأنها تسبب لها الإرهاق إلا أنني لاحظت على محياها ملامح تعبر عن شعور بالراحة وهي تتواجد في مكان جديد غير مألوف لديها، لم يسبق لها أن مرَّت به من قبل، وهذا ما انتبهتُ إليه مذ دخلنا المطار إلى أن جلسنا في صالة الانتظار، حيث وجدتها تراقب كل شيء حولها بعينين يلتمعُ فيهما بريق الدهشة، وتحاول أن تستوعب تفاصيل المكان الفخم والأنيق الذي بدَا عليه مطار أربيل وما يسوده من انتظام دقيق في الإجراءات. في تلك الأثناء لفت انتباهي سلوك غير مريح عبَّرت عنه شابة محجبة لم تبلغ العشرين من عمرها كانت تجلس قبالتنا وعلى مسافة ليست بعيدة عنا برفقة والديها وأخيها الصغير الذي لم يتجاوز العاشرة من العمر، فعلى الرغم من أنها كانت تتباهى بجهاز الآيباد الذي كانت تحمله بيديها بطريقة استعراضية إلا أنها بين لحظة وأخرى كانت تسترق النظر إلينا بطرف عينيها وتبتسم بطريقة ساخرة ثم تهمس في أذن شقيقها الذي بدوره يبدأ بالنظر ناحيتنا ومن ثم يشاركها الابتسامة بنفس طريقتها، لربما كانت تعتقد بأن سلوك زوجتي وهي تمدُّ ساقيها على الحقيبتين ينمُّ عن تخلف، هكذا بدَا الأمر لي، فأزعجني سلوكها واستفزني، لكني وتلافيًا لأي رد فعل لربما قد يصدر عني لا يحتمله الظرف المكاني الذي كنا نتواجد فيه، حاولت قدر المستطاع أن أتجاهلها، وأن لا أدعَ زوجتي تنتبه إليها، ولهذا عملت على أن أشغل انتباهها بالحديث

عـن المطـار الـذي كنـا نتواجـد فيـه وسـرعة إنجـازه بعـد العـام 2003 بفتـرة قياسـية وليكـون بـنفس المواصـفات التـي نجـدها فـي مطـارات الـدول المتقدمـة وأسـهبت بالحـديث فـي محاولـة لإبقـاء انتباههـا مشـدودًا نـاحيتي إلـى أن يحـين موعد السفر.

ولمَّـا وجَّهـت الإذاعـة الداخليـة للمطـار نـداءها إلـى مسـافري الرحلـة رقـم 325 وطلبـت مـنهم التوجـه إلـى البوابـة المؤديـة إلـى الطـائرة المتوجهـة إلـى بيـروت، حملـتُ الحقيبتـين، وسـاعدت زوجتـي بـالنهوض، وبـدأنا بـالتحرك نحـو البوابـة، ثـم دفعنـي الفضـول إلـى أن أسـتدير برأسـي للخلـف وأتجـه بنظـري إلـى ناحيـة الفتـاة لأرى فـي مـا إذا كـان حدسـي مصـيبًا أم لا، ومثلمـا توقعـت، فالمفاجـأة كانـت قـد لجمَـت ابتسـامتها السـاخرة، كمـا لـو أنهـا قـد تلقـت صـفعة لـم تكـن تتوقعهـا، لمَّـا رأت زوجتـي تضـع يـدها علـى كتفـي للاسـتناد عليـهِ، وكـان مـن الواضـح لكـلِّ مـن يراهـا أنهـا كانـت تغالـب نفسـها، لأنهـا تجـد مشـقة بالغـة فـي تحريك قدميها.

11

أقرب ما تكون إليه

بَـدَت فـي دهشـتها التـي اسـتيقظت علـى وجههـا الشـاحب، كمـا لـو أنهـا طفلـة تكتشـف الأشـياء لأول مـرة بينمـا كانـت تتـابع الفضـاء الشاسـع الـذي يمتـد بـلا نهايـة أمـام عينيهـا، فـي أول رحلـة لهـا بالطـائرة، فارتسـمت علـى وجههـا بهجـة، مثـل شـعاع ينبثـق مـن داخلهـا، كانـت كافيـة لأن تبـدد التعاسـة التـي كنـا نـرزح تحتهـا منـذ عـدة أيـام وتمـنح مـن يراهـا شـعورًا قويًّـا بالطمأنينـة بـأن الحيـاة تسـتحق الاحتفـاء بهـا، رغـم مـا نمـرُّ فيهـا أحيانـا مـن انتكاسـات حـادة، حتـى إنهـا قالـت متعجبـة أن بإمكانهـا أن تلمـس الغـيم بأصـابعها، لـولا النافـذة الزجاجيـة التـي كانـت تحـول دون ذلـك، فمـا كانـت تتخيـل فـي يـوم مـا أن تتأمـل مشـهدًا كهـذا بتلـك المسـاحة الهائلـة مـن البيـاض الناصـع، فحسـدتْ نفسـها لأن الفرصـة واتتهـا لتعـيش مثـل هـذه التجربـة بكـل سـحرها، خاصـة وأنهـا كانـت معلقـة علـى ذاك الارتفـاع الـذي جعلهـا تشـعر كمـا لـو أنهـا أقـرب مـا تكـون إلـى الله، وقـد تبـدى لهـا وجهـه، بنـوره الآسـر فـي يقظـة تلـك الآيـات التـي كـان بصـرها يقتنصـها، بكـل مـا تحملـه مـن صـفاء مبهـر تجلـى بحضـوره النـادر فـي زاويـة قصية من هذا الكون.

دائمًـا مـا كانـت أمالهـا تنـأى بهـا بعيـدًا عـن هـوس البشـر فـي المشـهد الأرضـي بكـل مـا يحملـه مـن تـوحش غرائـزي، وتمضـي بكـل جوارحهـا إلـى حكايـات غامضـة مرتبطـة بالسـماء ومـا يقـف وراءهـا مـن قـوة خفيـة تمسـك بأسـرار هـذا الكـون، ودفاعًـا عـن نفسـها عنـدما كنـت أوجِّـهُ انتقـادًا لهـا باختيارهـا الهـروب مـن الحقـائق الواقعيـة الملموسـة بالالتجـاء إلـى الغيبيـات، كـان جوابهـا الـذي تعيـده علـى مسـامعي مـرارًا وتحـتفظ فـي محتـواه بكـل مـا لـديها مـن إصـرار، بـأن موقفهـا يعبـر عـن إيمانهـا، وعـن إحسـاس عميـق لـديها لا تسـتطيع أن تتجاهلـه، وهـو أقـوى بالنسـبة لهـا ممـا تـراه وتلمسـه فـي الحيـاة مـن صـور وظـواهر أعتبرها أنـا أدلـة ماديـة ومنطقيـة، وهـذا مـا يـدفعها إلـى أن تبنـي أمالهـا بعيـدًا عـن اضطرابات النفس الإنسانية ونوازعها وهوسها بما هو حسي وملموس.

لـم يكـن هـذا الموقـف قـد تولـد فـي داخلهـا بعـد أن مـرت بتجربـة مـرض الروماتزم الـذي أنهكهـا منـذ العـام 1999، ولا بعـد أن دخلـت تجربـة سـرطان الثـدي، أظـن بـأن انفتاحهـا علـى هـذا العـالم المشـبع بصـمت السـماء وغموضـها يعـود إلـى سـني طفولتهـا الأولـى وإلـى المحـيط الاجتمـاعي الـذي شـحذ خيالاتهـا بمـا هـو أبعـد مـن الواقـع، فهـي لـم تكـن تأبـه بـالفرص التـي يمكـن أن تضـعها فـي طريقهـا خيـارات الـدنيا بكـل مـا فيهـا مـن مغريـات ومبـاهج، وهنـا تحديـدًا يكمـن جانـب مهـم مـن الافتـراق بينـي وبينهـا، فأنـا لا أحـب التحليـق بعيـدًا عـن المحسوسـات، بينمـا هـي فـي كـل عمـل تُقدِم عليـه كانـت تبحـث عـن ممـر روحـي يفصـلها عـن الواقـع أمـلا فـي أن تشـعر بالاطمئنـان الـداخلي، فكثيـرًا مـا تنفـرد مـع نفسـها فـي حالـة مـن الشـرود والتيـه عمـا حولهـا، وتمضـي علـى هـذه الحـال سـاعة مـن الـزمن تبتعـد فيهـا عـن ذاتهـا لتقتـرب منهـا أكثـر، وهـي غارقـة فـي حالـة مـن التوحـد معهـا، وحينمـا أجـدها علـى هـذه الصـورة بعـد كـل صـلاة تؤديهـا، أغـض النظـر عنهـا، ولا أحـاول أن أثيـر أي جلبـة فـي البيـت، حتـى لـو كنـت أود أن أستفسـر منهـا عـن شـيء مـا لحـاجتي الماسـة إليـه، فأنـا لسـت معنيًّـا بمـا يـؤمن بـه الآخـرون، ولا أسـمح لنفسـي أن أشـتبك فـي جـدل معهـم حـول مـا إذا كـانوا يلـوذون بمكـان صـحيح أو خطـأ، فـالمهم بالنسـبة لـي فـي مـا يتعلـق بقناعـات البشـر أن يشـعروا باطمئنـان داخلـي فـي خيـاراتهم الذاتيـة، طالمـا لا يتسـببون لـي وللآخـرين بـأذى، وأكثـر مـا يشـعرني بعـدم الاطمئنـان عنـدما أجـد مـن يحـاول استنسـاخ الآخـرين علـى هـوى مـا يطمـئن هـو إليـه مـن قناعـات، خاصـة عنـدما يغلفهـا بـأطر عقائديـة، ولـم أصـل إلـى هـذه الدرجـة مـن الاسـتيعاب إلا بعـد تجـارب مريـرة مـع آخـرين، وحتـى أصـل إلـى مـا وصـلت إليـه مـن فهـم استغرقتُ وقتا طويلا .

مـذ كانـت طفلـة فـي مرحلـة الدراسـة الابتدائيـة لا تتـذكر أبـدًا أنهـا قـد تخلفـت عـن أن ترفـع نظرهـا نحوهـا الأعلـى فـي الأوقـات الخمسـة للصـلاة، هـذا مـا سـبق أن قالتـه لـي، لأنهـا كانـت تـرى مصـدر الإلهـام والأسـرار لكـل مـا هـو موجـود علـى الأرض يكمـن هنـاك، فـإذا مـا شـاء الإنسـان أن ينـأى بنفسـه عـن الموجـودات التـي تحـيط بـه فـي حياتـه الماديـة والتـي عـادة مـا تأكـل مـن جـرف روحـه ينبغـي عليـه أن يتوجـه بوجدانـه إلـى حيـث مـا يكـون الله حاضـرًا، وإذا مـا شـعر بـالقهر

والجور قد لحقا به فلا بدَّ من أن يمد يديه نحوه طالبًا منه العدل والإنصاف وليس من غيره، وإذا ما نال مبتغاه فلا ينبغي أن يتردد في أن يعبَّر له عن شعوره بالامتنان.

"أشعر بنبضي يتسارع كما لو أن قلبي سيطفر من مكانه"

هذا ما قالته وهي ترحل بعيدًا في نظرها من خلف زجاج النافذة، كما لو أن المسافة بينها وبين الله باتت أقرب مما كانت تحلم به، ولفرط سعادتها بدأت تردد أدعية وصلوات وتسابيح مع نفسها، وأسرّت لي بأنها لم تكن تحتفظ في قلبها في تلك اللحظات إلا بمطلب واحد "أن ألمس إشارة في روحي تجعلني أطمئن من أن الله راضٍ عني"، هذا ما أفصحت عنه لما سألتها بماذا كانت تهمس بينها وبين نفسها.

"ربما لديكِ هذا الشعور لأنك أول مرة تركبين الطائرة وتكونين على هذا المستوى من الارتفاع".

بهذه الجملة حاولتُ أن أخرجها من هذا الإفراط في التخيل والتحليق بعيدًا عن الواقع، وأن تتعامل مع ما تراه ليس باعتباره تجربة خارقة لن تتكرر، وذكَّرتها بأن هناك ملايين من البشر مثلها ربما يكونون الآن على نفس الارتفاع لكنهم لا يجدون أنفسهم قد أصبحوا أقرب مسافة إلى الله، ولا يعدون ما يمرون به تجربة روحية، إنما هو مجرد انتقال في المكان مثلما يركبون سيارة أو قطار أو باخرة أثناء سفرهم من مكان إلى آخر، فلماذا هذا التوغل العميق في التخيل بما لا يستحق كل هذا الجنوح والشطط في الأفكار والتأملات التي أبعد من أن تكون منطقية؟

" احتفظ بأرائك لنفسك، لأن إيمانك ضعيف أصلاً" .

كنت مدركا من أن إجابتها ستكون بهذا المعنى، ولم يكن ممكنا أن أنجح في إقناعها أبدًا، فالمسافة التي نختلف فيها كانت تبدو واضحة بيننا طيلة الأعوام التي عشناها معا، فكيف بها ونحن على مثل ذاك الارتفاع الشاهق الذي كنا عليه، وغالبًا ما كانت علاقتنا تشهد عواصف من الجدل خاصة إذا ما نشأ نقاش حول هذه الموضوعات، ولهذا كنتُ أتحاشى أي محاولة

لتقليص المسافة الفكرية بيننا، لأنني على يقين من أن المهمة ستكون مستحيلة، لأنها من غير الممكن أن تغير موضعها للدفاع عن قناعتها، وستبقى تتمسك بما لديها من ثوابت لا تقبل أن يصل الجدل إلى حدودها، بل لديها الاستعداد في أن تفرط بأي شيء بما في ذلك علاقتنا الزوجية ولا تتخلى عما تؤمن به، فالعلاقة بينها وبين الله لا تقبل النقاش بأي صورة، ولن تقبل في أن نُدخِلَها في النقاش تحت عناوين مثل حرية الرأي وتبادل الأفكار وتحت أي ظرف، فهذه منطقة محرمة، وغير مسموح بالوصول إليها من وجهة نظرها، ولا علاقة يمكن أن تجمعها بأي حوار مهما كانت صيغته، ثقافية أو دينية، أو أي محاولة للفهم عبر فك طلاسمها، بل تعد الخوض فيها ما يحمل معنى الاستعداد للتأرجح ما بين الإيمان والكفر، والخروج من دائرة الرضا والقبول إلى دوامة من الشعور بالفراغ الروحي والسقوط في هاوية الشك، فالمسالة إذن بالنسبة لها أشبه بالسؤال الشكسبيري الذي جاء على لسان هاملت: "أن تكون أو لا تكون تلك هي المسألة "، فإما أن تكون مؤمنا دون نقاش ودون الدخول في معمعة الأسئلة أو أنك ستضع نفسك في حاضنة اللا إيمان مهما كانت نواياك طيبة، فهي شخصيًّا قد وجدت نفسها بوقت مبكر في المكان الذي تبحث عنه، دون أن تتعب عقلها بالتقصي عن حقيقة وجوده من عدمه، إنه مكان اكتملت فيه الحقيقة طالما وجدت نفسها فيه مستيقظة بعقلها وحواسها، ولن تفلح مراوغات الدنيا بنعمتها ونعومتها وسحرها من تخديرها والنأي بها عنه، فكانت متصلبة جدًّا خلف قناع من الأفكار التي تستلهم منها حقيقة وجودها، وهي مكتفية بها، ولأني بطبيعتي لا أقف طويلًا أمام هذه الموضوعات ولا أنشغل بمثل هذا الجدل الفلسفي، ليس لأني لا أملك قدرة على فهمها واستيعابها إنما لأني لا أجد في استمرار النقاش فيها أي جدوى، لهذا لم يحصل أن تدهورت علاقتنا بسبب اختلافنا، بل لأننا احتفظنا بهذه المسافة بيننا واضحة وآمنة، تمكنَّا من أن نبعد التصدع عن حياتنا الزوجية.

التقطتُ لها عددًا من الصور بجهاز الهاتف دون أن تنتبه وكانت تبدو بغاية السعادة وهي تنظر من خلف النافذة وتضع كفها على فمها وعيناها مفتوحتان على وسعهما علامة على ما تشعر به من ارتباك وامتنان أمام آية

من آيات الخلق في هذا الكون العجيب، ثم تهز رأسها يمينًا وشمالًا بحركة موضعية خفيفة تعبيرًا عن هذا الشعور الذي كان يتلبسها، ولما انتبَهتْ إلى أنني كنت ألتقط صورًا لها، ارتسمت ابتسامة عريضة على وجنتيها عكست شعورًا عميقًا بالفرح لم أره يتجلى فيها منذ أن شخَّص الطبيب إصابتها وخيم القلق والحزن علينا ثلاثتنا.

وصلنا مطار رفيق الحريري في تمام الساعة السابعة والنصف مساءً، وتفاجأت بأنه مطار صغير جدًّا مقارنة بمطار أتاتورك في اسطنبول الذي سبق أن مررت به مرتين.

بعد أن انتهينا من إتمام إجراءات الوصول، استأجرنا سيارة تاكسي لتوصِلنا إلى فندق "كوين سويت" الذي يقع في شارع الحمراء وعلى بعد مسافة لا تتجاوز خمس دقائق عن مستشفى الجامعة الأميركية.

صُدمت من كثافة العمران في بيروت، حتى إنني وجدتها مدينة موحشة، وأعترف بأنها خلَّفت في داخلي شعورًا بالخوف منها، ولم أستطع أن أستبعد الإحساس بأن ما فيها من حيوات كانت تئن تحت وطأة الازدحام الكثيف بالأبنية والعمارات إلى حد الاختناق وفي مساحات ضيقة جدًّا، إنها مدينة ليس فيها فضاءات مفتوحة تبعث على الشعور بالهدوء والاستقرار، كان مظهرها القاسي مفاجئا لي، لم أر سوى مدينة تذبل فيها المشاعر الإنسانية أمام هذه الشراسة في البنيان، وميلًا مفضوحًا إلى تدمير أي فرصة للتخيل وذلك بجعل الإنسان ينزوي محشورًا وراء كتل كونكريتة لا تعبّر عن ميل للتباهي بالثراء فقط، بقدر ما تعكس جشعًا طبقيًّا يتعاظم حضوره في سلوك ومواقف أصحابه، مثل امرأة لا تكتفي بجمالها الذي خُلقت عليه فتصر على أن تمشي عارية لتستعرضه أمام الملأ.

بيروت المدينة، لم تعد تصلح أن تكون ملاذًا للروح الهائمة بالتحليق في فضاء الحرية، ومن تسنت له فرصة العيش فيها فهذا يعني أنه قاد على أن يسحق عظام من يقف أمامه، إنها أشبه بحلبة دموية يتصارع فيها المتنافسون بكل ضراوة وعبثية حتى يعيش أحدهما بعد أن يموت الآخر، فلا مكان فيها للضعفاء الذين يتحاشون اللعب مع الموت، وعلى الرغم من

أنها تبدو رقيقة في الصور المتخيلة التي ترسمها الأغاني إلا أنها في حقيقتها الواقعية غليظة وخشنة في ملمسها، إنها نموذج للعواصم العربية الكبرى التي اختفت منها المدنيّة، مثل بغداد وصنعاء وطرابلس ودمشق والقاهرة، فتحولت إلى كيانات عشوائية لم تعد تنبعث منها رائحة الأزهار بعد أن تلوث هواؤها بضغائن تجار السياسة.

هي مدينة ضاقت الحياة فيها بأبنائها، من الشعراء والفلاسفة والأدباء والفنانين، ولم تعد تمد ذراعيها لهم لتحتويهم، فهل بيروت اليوم هي ذاتها التي كانت قبل نصف قرن وهي تحمل رائحة المراكب والسفن التي كانت تأتي إليها وتنطلق منها إلى كل جهات الارض؟.

لم أجدها تلك المدينة المعبأة بالتفرد الحضاري، كما كانت في مخيلتي، ولم تمنحني الإحساس بأنها مثل حورية البحر، وهذا الشعور تولد في داخلي بينما كنت أصغي لسائق التاكسي الشاب، وهو يوجز لي تاريخ الأماكن التي كنا نمر بها والشخصيات التي كانت جزءًا من ذاكرتها، وما إن انتبهت إلى وجه حسن نصرالله موشومًا على ساعده الأيسر، لم أعد معنيًا بما يقوله، والتزمت الصمت، وتركت له فرصة الاستمتاع لوحده بالحديث، مكتفيًا بتوزيع نظري على جانبي الطريق.

وبينما كنت أتطلع من خلال السيارة إلى المدينة التي كانت في يوم ما غاية ما كنت أحلم بالوصول إليه، تساءلت مع نفسي: أين الجمال في مثل هذه المدينة؟ وكيف يحتمل الناس العيش فيها! إنها تعبير صارخ عن حقيقة المدن العصرية التي تسلب من الإنسان شعوره بالحرية، وتقذف به إلى لحظة زمنية من الاهتياج والتوتر، كما لو أنه يعود إلى الغابة، بكل الوحشة التي تصاحبه فيها عندما يكون بداخلها، فصمت الغابة معادل لضجيج وزعيق الأصوات في مدينة مثل بيروت، وذهبت مخيلتي بعيدًا عنها إلى مدينتي العراقية التي ولدتُ فيها وأجريت مقارنة بينهما، بينما كان السائق ما يزال يثرثر بالتاريخ من وجهة نظره، واحتفظت بيني وبين نفسي بأفضلية ما تفيض به مدينتي من مجازات طويلة يتردد فيها صوت الحياة، مثلما يجري ماء دجلة في شرايين شوارعها وفصولها من غير أن يحدث فيها

ضجيجا، وبإمكانك وأنت الغريب أن تعثر على الراحة فيها، ولن تتأخر هي أيضًا في أن تشعرك بالدفء والحنين إليها إذا ما ابتعدت عنها، مع أنها مدينة ليس لها تاريخ سري في المتعة مثل بيروت، وإيقاع حياتها ينضبط على توقيتات الأذان.

السفر يسبب الإرهاق، حتى لو استغرقت الرحلة زمنا قصيرًا، ولهذا ما إن وصلنا إلى الفندق حتى اغتسلنا، وتمددنا على السرير لنستريح، لكننا وبسبب التعب دخلنا في نوم عميق، ولم نصحُ منه إلا بعد ساعتين.

اتصلت عبر الهاتف بموظف الاستقبال وطلبت منه أن يرسل لنا وجبة عشاء خفيفة، وأثناء ماكنا ننتظر وصول عامل الخدمة، تقدمتُ نحو نافذة المطبخ المطلة على الشارع الجانبي الذي يقع فيه الفندق، كان الليل قد أسدل ستارة خفيفة من العتمة على المدينة ولم يكن ينفذ منها إلا خيوط من الضوء تصدر من مصابيح معلقة على أعمدة الكهرباء ومن نوافذ الشقق السكنية في عمارات متلاصقة إلى بعضها البعض حد الاختناق، ولم يأسرني في تفاصيل هذا المشهد سوى حالة الهدوء التي كانت تعم أرجاء المكان، باستثناء أصوات رجالية كانت تخترقه قادمة من كشك صغير يقع مقابل باب الفندق، يقدم للزبائن أكلات لبنانية خفيفة مثل بابا غنوج، فتة، حمص بطحينة، كبة محشية، ولم يكن في الكشك سوى عاملين يقدمان الطلبات لثلاثة أو أربعة زبائن يجلسون حول منضدتين صغيرتين.

بقيت أتأمل المنظر من الأعلى، ووجدته يعكس وجهًا آخر للمدينة التي كنت قد شعرت بالنفور منها قبل ساعات، حيث كانت تبدو حميمية من خلاله، ولا أشكُّ في أن مثل هذه اللحظات غالبًا ما تبعث فيّ شعورًا بالتواصل والألفة مع المكان حتى لو كان أجنبيًا، ولا يتوغل التوجس بيننا إذا ما وجدتني فيه لأول مرة، حتى إنني أشعر بأن الزمن في مثل هذه الأماكن يبدو الأقرب إلى الحياة ببساطتها ويتخلى عن أقنعته التي يرتديها في الأماكن الأخرى التي تنحجب فيها الرؤية ويسودها العمى، بفعل الضوء الساطع المنعكس على واجهات مبانيها الشاهقة، بينما هنا، عند هذا الكشك يميل الزمن إلى أن يطوق بذراعيه كل الحيوات الموجودة ويبعث فيها دفئًا،

لتكتسب حضورًا إنسانيا أليفا يستيقظ منها بهدوء، وهو ينساب في ملامح من يشكلون تفاصيل المشهد الإنساني، ومثل هذه الأمكنة التي تكتب حضورها ببساطتها تشبه ما كنا قد تآلفنا معه من لذائذ العيش البسيط في بيوتنا وأزقتنا وشوارعنا وأسواقنا في الموصل القديمة والتي أجهزت عليها حرب التحرير في ما بعد، لأن السيناريو المُعَد مُسبقًا كان يقتضي أن ترصد عدسات الفضائيات محوها من الوجود، وقطع ظفيرة الشعر الطويلة التي كانت تنسدل على ظهور فتيات المدينة وهن يفتحن أذرعهن لنسمات الربيع، واحتضار الشقوق في الجدران التي تآخى الزمن معها وغفَا عند عتبات بيوتها، لتنسلَّ منها الأغاني صامتة ولترقد تحت الأحجار رقدتها الأخيرة.

كان ممكنًا أن أبقى هناك في ما كنت غارقًا فيه من تأمل لولا الطرقة الخفيفة على باب الغرفة، فتحت الباب واستلمت وجبة العشاء من عامل الخدمة.

12

يوم الهروب

عليك أن تختار، إما أن تمضي للأمام غير عابئ بالمخاوف أو تنجرف إلى فكرة الصمت، باعتبارها أضعف وسيلة لمعاندة جريان الزمن، فأنت في كلا الحالتين ستغادر الأمنيات والأحلام في آخر المطاف، لتغتسل روحك بعد أن ينطفئ الجسد في أعماق الأرض، ولن تتاح لك فرصة أن تودع المخاوف والمباهج، ولا أن تمسح عينيك بتراب الأماكن التي دائمًا ما تحتفظ برائحتها تحت جفنيك، فلماذا إذن تنتظر وصول المعجزات، طالما لن تهبط عليك بالمظلات، ولن تعرف طريقها إليك لترتمي بين أحضانك؟.

حتى وأنا في بيروت، لم أستطع أن أتجاهل في فجر اليوم الأول روتين النهوض الصباحي، الذي اعتدت عليه مذ وصلنا هاربين إلى ناحية عنكاوا في أربيل مطلع العام 2007، قبل أكثر من ثلاثة عشر عامًا، بعد أن حالفني الحظ في إنقاذ نفسي وعائلتي من خطر الاغتيال في الموصل من قبل تنظيم القاعدة.

مذ ذاك اليوم وأنا بغاية الحرص على أن تنتعش علاقتي مع الزمن، فلم أبخل على نفسي متعة أن أناجي الغيم والأشجار، وألامسُ الضوء وهو يتغلغل في زوايا العتمة.

ما زلت أذكر تفاصيل ذلك اليوم، خاصةً عندما اجتازت الشاحنة التي أقلتنا حدود مركز مدينة الموصل مع الأثاث البسيط لشقتنا الذي استطعنا نقله فيها، ووصلت بحدود التاسعة صباحًا عند أول حاجز لقوات البيشمركة الكوردية، بالقرب من بلدة برطلة، حتى وجدتني مشبعًا بإحساس من يُكتَبُ له عمر جديد، فتنفست الهواء بعمق، مثل سجين يخرج إلى النور بعد أن كان محكومًا بالإعدام فيسعى بكل ما يحمله من شهوة للحياة إلى أن يعانق كل ذرة في الفضاء، ويمتص ما فيها من رحيق، حتى إن السائق الذي كنت أجلس إلى جانبه في قمرة القيادة شعر بما كان يصدح في روحي من

أغاني، وما كان يتوهج فيها من فرح مفاجئ أحال القمرة إلى سفينة هائلة تشق عباب البحر، فالتفتَ ناحيتي وقال لي: "اطمئن، الآن عبرنا مرحلة الخطر".

لم أجد نفسي إلا وأنا أحتضن ولدى الذي كان يجلس بيني وبين زوجتي، فقبَّلته من خدّيه مثل من يقبِّل غريقًا ليمنحه الحياة، ثم مددتُ يدي وأمسكت بكف زوجتي التي كانت تجلس صامتة إلى جانب النافذة معزولة عمَّا حولها من صخب، تفكر بما ينتظر حياتنا القادمة، وما ستشهده من تحوّلٍ، فبدت كما لو أنها كانت ضائعة في غابة من الحيرة، لأنها لم تستطع أن تفتح نافذة في تلك العتمة التي كانت تغلف الأفق أمامها، لتستشف الصورة التي سنكون عليها في اليوم القادم، وكما حكت لي في ما بعد فإن مشاعر الحسرة كانت تتناهبها لأنها ستفارق أهلها وربما لن تراهم لفترة طويلة، وما كانت تبصر في داخلها أي علامة تشير إلى أن ما ينتظرها في جوف المجهول سيبعث فيها الاطمئنان، خاصة وأنها ما زالت تحت تأثير المكالمة الهاتفية التي جرت بينها وبين شقيقها الأكبر أثناء ما كانت الشاحنة تقطع الطريق المحتقن بصمته الموحش والمعبأ بالمجازفات ما بين دورة اليرموك والجسر الثالث الذي سيفضي بنا من الجانب الغربي إلى الجانب الشرقي من الموصل، حتى إنها لم تستطع حبس دموعها بينما كانت تتحدث معه عبر الهاتف وتخبره بصوت خافت بما أقدمنا عليه من خطوة بالرحيل عن المدينة والتوجه إلى أربيل ، ولم تنسَ أن تحمِّله أمانة أن ينقل سلامها ومحبتها لوالديها، وأن يدعو لنا بالسلامة والنجاة، وبسبب ضعف الإشارة وتقطّع الصوت لم تستطع أن تسمعه بشكل واضح وهو يتحدث إليها، لكنها شعرت بالصدمة التي نالت منه وكان تأثيرها واضحًا في صوته الذي أخذ يتكسر مثل عشب يابس وهو يحاول أن يسيطر على مشاعره التي ارتفعت درجة حرارتها قبل أن ينقطع الاتصال الهاتفي بينهما، وما أن انقطع الاتصال حتى حامت غمامة من الحزن على وجهها، وبصعوبة واضحة ابتلعت ريقها بعد أن أحسّت حلقها وقد نشف تمامًا من اللعاب.

ضغطتُ على كفها بكل ما لديّ من قوةٍ أظنها كانت توازي ماكنتُ أشعر به من خوف على سلامة حياتنا طوال الطريق منذ أن انطلقت بنا الشاحنة بحدود الساعة السادسة صباحًا من أمام العمارة السكنية الكائنة في مجمع شقق اليرموك، لأننا كنّا بغاية الحرص على أن ننتهي من تحميل ما لدينا من حاجيات وأغراض دون أن نثير أي جلبة، ومن ثم الانطلاق قبل أن يصحو سكان العمارة، حيث كانت شقتنا تقع في الطابق الثالث منها، نظراً لأن الوشاية كانت قد نقضت العهد مع الأخلاق نهائيًا وأحكمت قبضتها على طباع البشر، وتبددت الطمأنينة مع الجار والصديق والأقارب بشكل مرعب، ولم يعد ممكنًا أن نجني الثقة في زمن ارتبكت فيه القيم فأمست المسافة ما بين الفرد والآخر أرضا قاحلة تنمو فيها الدسائس والأكاذيب التي كان كثير من العراقيين يتبرعون بها للجماعات المسلحة تعبيرًا عن أحقاد شخصية.

ازدحمت في رأسي الذكريات مثل حقل من الزهور العطرة، فكانت تفيض برائحتها مع كل ركن من أركان مدينتي التي كنت أودعها بصمت من خلف زجاج النافذة الأمامية للشاحنة، لكنها سرعان ما تختلط مع هاجس الخوف كلما كانت تتقدم باتجاه مبنى بدالة أبي تمام للاتصالات التي تطل على شارع بغداد، فهناك الكثير من قصص الموت والرعب المرتبطة بهذا الشارع، الذي يمتد بشكل مستقيم لمسافة طويلة تبدأ من دورة اليرموك وتنتهي عند بوابة مدينة الموصل التي تفضي إلى الطريق المؤدي باتجاه العاصمة بغداد، فبين ليلة وضحاها أمسى مسرحًا مفتوحًا لمواجهات دموية مسلحة، دائما ما كانت تقع ما بين تنظيم القاعدة والقوات الأميركية، حتى إن الناس بدؤوا يطلقون عليه شارع الموت، فكان الوقت يمرُّ في زواياه معبأً بالترقب ومشحونا بإشعاعات الهلع وهي تحبس أنفاس الناس في التاكسيات وباصات النقل الخاص عندما يذهبون صباحًا إلى عملهم ويعودون مساء إلى بيوتهم .

تحوّل الشارع إلى لحظة زمنية داكنة انتظمت فيها أنفاس الإنسان على إيقاع الرصاص الذي كان يغترف من آبارٍ معبأة بمشاعر الحرمان والكراهية

والتكفير، وتفشَّت فيه صور الموت مختلطة مع رائحة البارود، فنقشت الحرب ملامحها القاسية بكل بشاعتها على واجهات البيوت والأبنية الحكومية مثل دائرة الماء والبلدية والبنك، وانزاحت عنها ظلال الأشجار المزروعة في الجزرة الوسطية التي كانت تمتد على طوله، ولم تعد الحياة تجرؤ على نثر خصلات شعرها خلف النوافذ ولا أن تطلق ضحكتها أمام واجهات المطاعم والمقاهي التي أمست ملاذًا للقطط والكلاب السائبة وجثث القتلى، مِن المدنيين ومنتسبي القوات العسكرية والشرطة، فغدَا أشبه بمقبرة تسكنها الأشباح بعد أن كانت الحياة تضج في أركانه طيلة ساعات الليل والنهار، لأنه كان المحطة الرئيسة التي تنتهي فيها رحلة شاحنات النقل القادمة من تركيا وسوريا وهي محملة بالبضائع، قبل أن يتم تفريغها بشاحنات عراقية لتنطلق في ما بعد إلى بغداد ومدن العراق .

ما أن استقر بي المقام في عنكاوا حتى اندفعت بكل ما لدي من حماس لتجاوز الشروخ التي أصابت حياتي وأتلفَت ما كان لدي من أحلام، فبعد أن استأجرت شقة وجهزتها بالمستلزمات المنزلية الأساسية، من طباخ غازي وثلاجة وجهاز تلفزيون، لم يكن يدور في بالي سوى أن أستوعب نِعَمَ الوجود بملء روحي وعقلي، ولأجل ذلك كنت مستعدًّا أن يكون مسكني خاليا من أي صورة للترف، فما عاد يهمني أن تكون شقتي خالية من الأثاث، ولهذا اكتفيت كما هي عاداتنا في بيوتنا القديمة بأن أفرش أرضية غرفة الاستقبال بمجموعة من البسط السميكة التي اشتريتها من سوق الأغراض المستعملة .

حاولت أن أعوض ما فاتني في أيام الرعب التي عشتها في الموصل، وبدأت استمتع بكل ثانية بنسيم الهواء وحرارة الشمس وصوت العصافير وخفقة أجنحة الفراشات، فكنت حريصًا على أن أستيقظ مبكرًا كل يوم لتستفيق روحي على ضوء الفجر وهو يلامس كل ما هو كائن على الأرض، ولهذا كان أمرًا طبيعيًا بعد أول ليلة في الفندق أن أدفع الغطاء عني في تمام الساعة السادسة صباحًا دون أن أحتاج إلى منبه يوقظني، وإن كانت الأصوات الخفيفة القادمة من الكشك كافية لتشعرني بأن الحياة بدأت

تـدبُّ فـي الخـارج، وتـذكرت بـأنني سـوف لـن يكـون باسـتطاعتي أن أمـارس الهرولـة لسـاعة مـن الـزمن خـلال الأيـام القليلـة التـي سنقضـيها فـي بيـروت كمـا اعتـدت أن أفعـل يوميًـا فـي المتنـزه الـذي يقـع قبالـة بيتـي فـي أربيـل ، وفكـرت أن أعـوّض عـن ذلـك بـأن أؤَدي تمـارين رياضـية خفيفـة داخـل الغرفـة، فـالمهم أن لا أنقطـع عـن ممارسـة الطقـس الـذي سـبق أن عاهـدت نفسـي الالتـزام بـه بعـد أن تمكنـت مـن إنقـاص وزنـي خمسـة عشـر كغـم وأصـبح خمسـة وثمـانين، وإنْ كانـت العمليـة قـد اسـتغرقت وقتًـا طـويلًا جـدًّا لـم يكـن يتناسـب مـع مـا فقدتـه مـن وزن .

مـا أن هممـت بمغـادرة السـرير حتـى أثـار انتبـاهي جلوسـها سـاكنة علـى الكرسـي بـالقرب مـن خزانـة الملابـس، ولـم يكـن يصـدر عنهـا أي صـوت، وفـي الواقـع مـا كـان لـي أن أتفاجـأ إذا مـا وجـدتها قـد سـبقتني فـي الاسـتيقاظ، لأننـي أدرك مـدى حرصـها علـى أن تـؤدي صـلاة الفجـر قبـل أن تشـرق الشـمس، شعرت كمـا لـو أنهـا كانـت تفكـر بـأمر كـان يثقـل عليهـا، أو أنهـا كانـت تشـكو مـن ألـم، وربمـا لـم تكـن ترغـب فـي أن تنتزعنـي مـن النـوم حرصًـا منهـا علـى أن لا تبـدد الراحـة التـي كنـت أتـدثر بهـا بعـد أن نـال منـي التعـب بسـبب مشـاق السـفر، لكنها مـا أن شـعرت بـاني قـد اسـتيقظت حتـى بـادرتني بسـؤال لـم يكـن يخطـر فـي بالي أبدًا.

"في أي اتجاه تتوقع أن تكون القِبلة؟"

لـم تتـرك لـي فرصـة أن أعبـر عـن دهشـتي وأنـا أنظـر إليهـا، عنـدما وجـدتها تعيـد طـرح السـؤال علـيَّ أكثـر مـن مـرة، فمـا كـان منـي إلا أن أقاطعهـا لأذكرهـا فقـط بـأنني لا أعـرف أكثـر ممـا هـي تعـرف، فلـيس مـن المعقـول أن تسـتعين بـي لمعرفة اتجاه القِبلة!

عنـدها حركـت رأسـها لتقـول لـي بـأن لا وقـت للمـزاح، ومـن الضـروري أن أساعدها في تحديد الاتجاه.

"وما لضير إذا ما صليتِ بأي اتجاه؟ فالمهم نيّة الإنسان، وليس الشكليات" .

بطبيعة الحال لم يعجبها كلامي، ولأنها كانت في وضع صحي لا يسمح لها بالانفعال، اكتفت قائلة: "أرجوك، الموضوع لا يحتمل المزاح".

ولأني على يقين من أنها دائمًا ما تأخذ الأمر على محمل الجد في مثل هذه الموضوعات التي تتعلق بشؤون العبادة والدين، ولن تتسامح أبدًا مع أي صيغة لا تُعلي من شأن الالتزام الجاد بها، لذا كان لا بدَّ أن أؤَكد لها بأنني لم أكن أمزح، وأن عليها تفويض أمرها إلى الله طالما هي في بلد غريب، وأوضحت لها بأنه ليس من المعقول أن أتصل بالاستعلامات في مثل هذا الوقت لمعرفة اتجاه القِبلة، وعليها أن تتوقع بأن لا يكون جميع العاملين في الفندق مسلمين، فنحن في لبنان، وليس في مكان آخر من ديار المسلمين .

آنذاك وجدتها كما لو أنها قد اقتنعت من أنني لم أكن أمزح معها، وما من خيار أمامها إلا أن تصلي وبأي اتجاه.

وقبل أن تبدأ في الصلاة اتجهت إلى خزانة الملابس وبدأت تفتش فيها ولأنها كانت شبه فارغة باستثناء ثيابنا التي علقنا بعضها بداخلها والقسم الآخر رتبناها على الرفوف لم تستغرق عملية البحث سوى ثوان معدودة.

" ليس من المعقول عدم وجود سجادة في الغرفة!" كان يبدو عليها الانفعال عندما استدارت وخاطبتني بهذه الجملة.

" لسنا في زيارة للسعودية، نحن في لبنان، في لبنان يا عزيزتي، هل نسيت ذلك؟ " بإجابتي هذه، لم تستطع أن تمنع نفسها من أن تبتسم وتهز رأسها وهي تردد مع نفسها: " لا أملَ يرتجى منك".

ثم سَحَبَتْ من الخزانة القميص الذي كنت أرتديه أثناء الرحلة، وفرشته أمامها على الأرض، وبدأت في الاستعداد للصلاة، وقبل أن تبدأ التفتت ناحيتي وكأنها تذكَّرت أمرًا ما، فخاطبتني: "وأنتْ..ألا تصلي؟ لعل الله يسهل علينا أمرنا، خاصة وأننا في بلد غريب ".

ولأنني لست متعنتًا في هذا الموضوع، وليس لدي مشكلة في أن أصلي، أجبتها بأنني سأصلي بعدما تنتهي هي، فإذا بها ترفع يديها باتجاه سقف

الغرفة بشكل مبالغ به وهي تردد: " الحمد لله، اللهم اهدهِ يا رب العالمين ".عندها لم أجد نفسي إلا وأنا أطلق ضحكة خفيفة، بينما كنت أتجه ناحية شرفة المطبخ.

"من يسمع هذا الكلام، سوف يعتقد بأنني شخص بلا إيمان".

"وما الذي سيحصل، حتى لو سمعكَ اللبنانيون كلهم، ألسنا في لبنان؟ "

لم أتمالك نفسي من الضحك، وعدت أدراجي وألقيت بنفسي على السرير، بينما هي بدأت في الصلاة ورفعت من صوتها وهي تردد: "الله أكبر"، وكانت بمثابة إشارة واضحة منها بأن أكف عن الضحك احترامًا وإجلالًا لطقس التعبّد، فما كان مني إلا أن أكتم ضحكتي وأنهض معتدلًا بجسمي، وأعود من حيث أتيت متجهًا إلى شرفة المطبخ، بعد أن جذبتني رائحة المأكولات اللبنانية التي كانت تنبعث من الكشك.

عشت لحظة ترف حقيقية لدقائق معدودة، انفصلت فيها عن هجير أيامي، شعرتُ بها وهي تنهمر في كياني كله، بينما كنت أستمتع بنسمة هواء باردة كانت تتهادى في الفضاء، مع أننا في منتصف شهر حزيران، فوجدت نفسي هائما بألفة الأشياء التي كانت تلتقطها عيناي وهي تغرق في صمت المكان، شرعت في التقاط عدد من الصور الفوتوغرافية بكاميرا هاتفي الجوال للعمارات الشاهقة التي كانت تواجهني وأنا أطل عليها من خلال الشرفة، والتقطت صورًا أخرى للشارع الفرعي الذي كان يقبع فيه الفندق بعد أن لفتت انتباهي أناقة الحدائق المنزلية للبيوت الصغيرة التي كانت تتراصف على جانبيه، ولعل ألوان الزهور المتنوعة التي كانت مزروعة في سنادين تنتظم على شرفاتها الحديدية أكثر ما استوقفني في ذلك المنظر.

حاولت أن أمضي بعيدًا بمخيلتي، مجتازًا المسافة التي كانت تفصلني عن ولدي الذي كان يغطُّ في نوم عميق في مثل تلك الساعة، لأنه اعتاد أن يسهر في أيام العطلة الصيفية إلى ساعات متأخرة من الليل وهو يلهو مع أصدقائه بألعاب ألكترونية عبر الإنترنت، ولهذا كان يصحو في أغلب الأيام بعد الساعة الواحدة بعد الظهر، ويمكنني أن أؤكد بأنني لم أكن أشعر

بالسنين وهي تزحف متسللة إلى خلايا جسمي إلا بعد أن وجدته فجأة ينهي دراسته الإعدادية، آنذاك تقوست الأشياء أمامي، لأنني كنت أتجاهل الزمن وأحرمه متعة النيل مني، رغم الخراب الذي صادفني، خاصة بعد أن انتهيت من أداء الخدمة العسكرية مطلع تسعينات القرن الماضي بعد حرب الخليج الثانية، فبعد أن نزعت ملابسي العسكرية، ورميتها في التنور الطيني الذي اعتادت جدتي أن تخبز به، وجدت نفسي وسط فضاء عارٍ، لا سماء تستره ولا أرض تحميه من السقوط، لم يكن يشبه ما كنت قد حلمت به قبل دخولي كلية الفنون الجميلة، كل شيء وجدته يتبخر من حولي بشكل متسارع، وبدأت النهارات تتشابه مع عتمة الطريق الذي كانت تمضي إليه البلاد، وتراكمت السنين على كتفيّ مثل الأتربة، وما من شيء كان يربطها إلى بعضها إلا حكايات لا يمس الموج أقدام أبطالها ولا الحمام يميل بهديله إليها ولا ضوء القمر ينهمر على نوافذها، كانت حكايات لا تصلح لكي يغفو الأطفال على وقع كلماتها، ومع ذلك لم تشتبه عليَّ الحياة، وظل الزمن يقفز خارج تقويمي الشخصي، إلا بعد أن ارتأى ابني البقاء في البيت، وفَضَّلَ عدم مرافقتنا إلى بيروت، وكانت تلك إشارة على أنه قد أصبح قادرًا على التحليق والطيران لوحده، ولم أعد أستطيع اللحاق به، وعلي أن أستعد لمواجهة صورتي في مرآة الزمن والاقتناع بالأخاديد التي حفرها على ملامحي.

شعرت بالحاجة إلى أن أسمع صوته بينما كانت أمه ترتب الأغطية على السرير قبل أن تستعد لتبديل ثيابها، لأن موعد الذهاب إلى مستشفى الجامعة الأميركية لم يحن بعد، فالساعة ما زالت تشير إلى الثامنة صباحًا، أي إننا أمامنا ساعة من الزمن، ولكني تراجعت عن فكرة الاتصال به بعد أن تذكرت بأنه ما يزال نائمًا، فاستثمرت الوقت المتبقي وغادرت الغرفة لكي اشتري فطورًا صباحيًا من الكشك الذي يقع مقابل الفندق، مع أنها ما كانت تريد أن تفطر، لأن ذاك اليوم صادف الأول من شهر رمضان، لكني أرغمتها على أن لا تصوم، لأن حالتها الصحية قد تتدهور إذا ما أصرت على رأيها.

لـم أكـن خائفًـا علـى ولـدي بعـد أن تركنـاه لوحـده فـي البيـت، لأن المنطقـة التـي نسـكن فيهـا فـي أربيـل كانـت تجـاور مبنـىً حكوميًـا، لـذا كـان الحـي يخضـع لمراقبـة دائمـة عبـر الكـاميرات، ولزيـادة الاطمئنـان عليـه اتصـلت عبـر الهـاتف بـاثنين مـن أصـدقائي، أكـرم أسـوفي ومحمـد خيّـون، وأخبـرت كـل واحـد منهمـا بموضـوع سـفرنا، وطلبـت منهمـا أن يبقيـا علـى اتصـال دائـم بـه أثنـاء فتـرة غيابنا، تلافيًا لأي مفاجآت قد تحدث، ولربما قد يحتاج إلى مساعدة بأمر ما.

بعـد أن اتهينـا مـن تنـاول الفطـور كانـت السـاعة تشـير إلـى التاسـعة صـباحًا، طلبـتُ منهـا أن تتأكـد مـن كـل البيانـات الخاصـة بحالتهـا المرضـية قبـل أن نتوجه إلى المستشفى.

13

تحديق في الفراغ

ما أرهقها وحرمها من الإحساس بطعم الأشياء أنها لم تستطع أن تتخلص من مخاوفها، حتى أنها بدأت تفقد القدرة على التركيز، وأخذ النسيان يستعرض حضوره في ذاكرتها بشكل لافت، لأنها لم تكن قادرة على أن تنشغل بأي موضوع لربما قد يساعدها على أن تتحاشى التفكير الدائم بتلك النقاط السوداء على الكبد والرئتين، ولهذا كانت في أغلب الأوقات أشبه بشخص تائه يراوح في مكانه ولا يعرف إلى أي اتجاه يمكن أن يتحرك، فمن النادر أن لا أجدها ساهمة في فراغ رمادي لا حدود له، تحدق مستغرقة في نقطة ثابتة لا تحيد عنها، خاضعة لسلطة صمت يمتد بها لفترات طويلة من الوقت.

كان رأسها أشبه بملعب تشتبك فيه الأسئلة، دون أن تعثر في أعماقها على إجابة تطمئنها وتخرجها من عتمة كانت تطبق عليها، فما كان منها في بعض الأحيان إلا أن تمسك رأسها بكفيها، وتضغط برؤوس أصابعها عليه بكل ما تبقى لديها من قوة، لعلها تخفف من شدة الألم الذي كانت تشكو منه بسبب الإفراط بالتفكير، فهي في قرارة نفسها كانت تدرك جيدًا بأن السقوط في هذه الحلقة من دوامة الأفكار سيمتص رحيق الخضرة من أغصان روحها، هذا ما أفصحت عنه قبل أن نغادر الفندق باتجاه المستشفى، ولم أفلح في طمأنتها، رغم تأكيدي مرة وأخرى على أهمية كلام الطبيب الهندي عندما تحدث للدكتور جمال غفوري عبر الهاتف في مركز ميديا وقبل إجراء العملية الجراحية بأن النقاط السوداء على الكبد والرئتين مجرد ذرات من الغبار.

أمضيت الطريق كله ما أن خرجنا من الفندق وأنا أستعين بكل ما يخطر على بالي من أفكار وحكم وأمثال وحكايات أجدها مناسبة حتى أغير مما رسخ في عقلها من وساوس، وجعلها في حالة مواجهة مع نفسها، الأمر

الـذي أخـذ الكثيـر مـن صـحتها، حتـى أنهـا لـم تعـد تعـرف معنـى الابتسـامة، فاسـتحالت إلـى صـندوق مقفـل مفتاحـه مفقـود، ومـع ذلـك لـم أدع اليـأس يجـد وسـيلة للوصـول إلـى الموضـع الـذي كنـتُ عليـه، وبقيـت متعلقًـا بأمـل ضـعيف لإخراجهـا مـن هـذه الهـوّة التـي سـقطت فيهـا ولا تسـعى إلـى الخـروج منهـا، فقـد كـان مـن الصـعب علـي أن أجـدها تمضـي فـي ذاك الاسـتغراق البعيـد عـن طبيعتهـا العفويـة وروحهـا المرحـة والمتفائلـة التـي وسـمت شخصـيتها فـي جميـع الظروف .

كانـت تسـير إلـى جـانبي، لكنهـا أبعـد مـا تكـون عنـي وعمـا حولهـا، ونحـن نـروم الوصـول إلـى مستشـفى الجامعـة الأميركيـة التـي بـدت واضـحة فـي نهايـة الشـارع عنـدما نظـرت باتجاهها ولمحـت القطعـة الإعلانيـة الكبيـرة علـى واجهـة المبنـى الكبيـر مشـيرة إليهـا، ولـم تكـن تبعـد عنـا سـوى مسـافة لا تتجـاوز خمـس دقائق سيرًا على الأقدام .

سـرعان مـا وجـدتها تتخلـف عنـي بمسـافة لا تزيـد عـن بضـع خطـوات، وهـذا مـا كنـت قـد تآلفـتُ معـه منـذ أكثـر مـن خمسـة أعـوام، ولـم أعـد أتضـايق منـه، لـذا دائمًـا مـا أكـون مضـطرًا إلـى أن أتوقـف حتـى تلحـق بـي ثـم نعـاود السـير جنبًـا إلـى جنـب، وكثيـرًا مـا كنـت أتأمـل حالتهـا وهـي تمشـي بـبطء وتثاقـل واضـحين فينتـابني شـعور بـالألم إزاء مـا وصـلت إليـه صـحتها بسـبب الروماتزم ومـن ثـم سـرطان الثـدي بعـد أن هجـم عليهـا ليضـعها فـي خضـم معركـة شرسـة أكبـر ممـا يمكـن أن يحتملـه جسـدها، حتـى أنهـا كانـت تبـدو امـرأة فـي الثمـانين مـن عمرهـا ولـيس فـي الأربعـين إذا مـا تابعهـا مـن الخلـف أي شـخص وهـي تمشـي، فمـن غيـر الممكـن أن تسـير بشـكل طبيعـي بعـد أن نـال الاعوجـاج مـن قـدمها اليمنـى وأخـذت تعـرج بسـبب مضـاعفات الروماتزم، ولهـذا كـان مـن الصـعب عليهـا أن تجاريني في مشيتي الطبيعية أو أن تسرع في حركة أقدامها.

أكثـر مـا يسـتفزني فـي مـا يتعلـق بحالتهـا عنـدما أجـد نظـرات الآخـرين تلاحقهـا وخاصـة النسـاء، وكـأنهن لـم يسـبق لهـن أن رأيـن امـرأة تعـاني مـن عـوق فـي قـدمها، ولـم أجـد سـببًا مقنعًـا يـدعوهن إلـى التحـديق فيهـا علـى تلـك الصـورة المسـتفزة كمـا لـو أنهـن يتفحصـن شـيئًا غريبًـا لـم يسـبق لهـن أن شـاهدنه،

والغريب في الأمر أنهن يتصرفن كما لو أن ردة فعلهن بغاية البساطة والطبيعية، ولا يدعو إلى الاستهجان، ودائمًا ما أتساءل: لماذا لا يبدو عليهن ما يشير إلى أنهن يراعين حالتها النفسية ويتجنبن الانسياق وراء أي فعل قد يسبب لها الحرج أو جرحًا في كرامتها؟ رغم أنها لم تكن تعير أهمية لما يجري من حولها بشكل مطلق، إذ ليس من طبيعتها أن تراقب الآخرين، ولم أجدها مستفزة في يوم ما من تلك الوقاحة التي يظهرنها عديد النساء إزاء مشيتها، وعلى العكس من ذلك دائمًا ما كنتُ هدفًا لسهام نقدها، فهي تعيب عليَّ بأني أتمعَّن في متابعة ما يدور حولي من نماذج بشرية، والتقاط ما يميزها سواء في شكلها أو هندامها أو طريقة مشيها أو أسلوبها في الكلام، وتجد في ذلك إمعانًا في معصية ما يأمرنا به الله، مع أني لم أكن أقصد الإساءة بقدر ما أود الاحتفاظ بمثل تلك الانطباعات في ذاكرتي، لربما تعينني في عملي سواء في الكتابة أو في البرامج التلفزيونية التي أتولى إعدادها وإخراجها، إلا أنها لم تكن تقتنع بمثل هذه التبريرات، لأن سلوكي من وجهة نظرها يتقاطع مع تعاليم الإسلام التي تحضُّ المرء على أن يكف نظره عن الآخرين، وتزيد على ذلك فتقول بأن استمراري بهذه التصرفات يجعلني أتحمل خطاياهم وذنوبهم.

أذكر أنني في يوم ما، وبينما كنّا في أحد مولات أربيل نتسوق حاجيات منزلية، وجدت نفسي في موقف لا أحسد عليه، جعلني موزعًا بين مشاعر مضطربة توزعت ما بين الشعور بالحنق والإهانة والغضب، بعد أن فقدتُ القدرة على التغاضي وتحمّل ما اعتبرته سلوكًا مهينًا يكشف عن تنمُّر صدَر عن زوجة شابة، بعد أن لفت انتباهها الطريقة التي كانت تمشي بها زوجتي، ولم تكتفِ بذلك بل همست في أذن زوجها وبدأ الاثنان يكركران بضحكهما وهما يتابعان سيرها وهي تعرج في مشيتها أثناء ما كانت تتجول في المول وتنتقي ما نحتاجه من سلع غذائية ثم تضعها في العربة الصغيرة التي كانت تدفعها أمامها، حاولت أن أجد سببًا مقنعًا لموقفهما، لكني لم أجد أي دافع منطقي ومقبول سوى أن هذا السلوك يعبر عن انحراف في الوعي والأخلاق لدى الإنسان إذا ما استمتع بتوجيه الإساءة والانتقاص للآخرين لمجرد أن فيهم عوقًا جسديًّا، ولا ينساق إلى هذا المنزلق إلا عندما يكون

مغترًا بهيئته ويجدها خالية من العيوب والنواقص، فيدفعه هذا التوهم بكماله وجماله إلى أن يرى في نفسه ما ليس فيها، فيعجز عن رؤية حقيقتها الداخلية بما تخبئه من بشاعة وغرائز ربما يتساوى فيها الشخص مع الحيوان بتوحشه، وبينما كانت زوجتي قد ابتعدت عني مسافة عدة أمتار لتستطلع أسعار الحاجيات التي تنوي شراءها، كنت أقف بعيدًا عنها أتطلع إلى الأجهزة الألكترونية، في حينه أصابتني حالة من التوتر لأنني شعرت بجرح في كرامتي، رغم إنها لم تكن منتبهة لسلوكهما وكانت منشغلة تمامًا بالبحث عما نحتاجه من سلع، وقررت أن أتجه إليهما وأنا معبأ بطاقة من الغضب لم أستطع كبتها ومداراتها، لكني انتبهت على صوتها وهي تناديني، فتوقفت عما كنت عازمًا عليه.

لا أستطيع أن أنسى حالة الشعور بالقرف التي تلبستني في ذلك الموقف بعد أن اكتشفت مدى ما يحمله الإنسان من قسوة إزاء أخيه الإنسان خاصة إذا ما كان في حالة تشوّه أو ضعف خلقي.

كثيرة هي المواقف التي نواجهها في حياتنا اليومية وتكشف عن عمق الخلل الأخلاقي الرازح فينا والمستتر تحت طبقات من الرياء أمام المجتمع، لكن ردود أفعال الناس إزاء بعضهم البعض وفي مواقف مختلفة تفضحها وتعريها، بما في ذلك حالات التنمّر، خاصة عندما يتعلق الأمر بأولئك الذين يعانون من عيب خَلقي، ومن ناحيتي حاولت قدر المستطاع أن أستوعب ردود الأفعال التي تعبر عن تنمر خاصة عندما نتواجد في أماكن عامة، وأرغمت نفسي بمرور الأيام كلما خرجنا معًا في مشوار على أن أعتاد على مثل هذه الأفعال التي تفتح جرحًا في كرامة الإنسان المعاق، ومما ساعدني على ذلك أنها لم تكن تولي أهمية لهذا الموضوع، لأنها دائما ترى نفسها رابحة في هذه المعركة غير المتكافئة بين من هو معاق ومن يجد نفسه كاملًا، وقناعتها التي ما تنفك ترددها بأن ضعف إيمان الآخرين بالله هو الذي يدفعهم إلى ارتكاب الخطأ بحق غيرهم، كما أنها لا تستطيع أن تعترض على ما كتبه الله لها، فالعوق الذي أصابها لا يشكل بالنسبة لها عقدة نفسية أو عقوبة بقدر ما تعتبره امتحانًا لإيمانها، وأستطيع أن أجزم

بأنها استطاعت أن تجتاز أصعب السنين في هذه التجربة، فمنذ العام 2000 كان الروماتزم قد بدأ يرسخ حضوره بمفاصلها بصمت خفي ويستنزف طاقتها مخلفا وراءه يومًا بعد آخر تدميرًا داخليا في بنية عظامها، ولم تكن تتكشف آثاره بشكل واضح وسريع، إنما كان يتوسع ويتمدد شيئا فشيئا من غير أن يثير الانتباه، وهنا لا فرق بينه وبين السرطان في خبثه، وهذا ما جعل عظامها تتيبس وتصبح هشة، فأصبحت حركتها بالتالي أبعد ما تكون عن حركة الإنسان في حالته الطبيعية، حتى إنها ومنذ عدة أعوام لم تعد لديها الرغبة في أن نرفِّه عن أنفسنا بالخروج من البيت والتوجه إلى المتنزهات العامة، لأنها كانت تعاني كثيرًا في سيرها، ويزداد وجع قدميها ما أن نعود إلى البيت، ولهذا لم أكن مستغربًا عندما وجدتها على تلك الحالة التي بدت فيها غير مبالية بما كان عليه الطقس في بيروت من اعتدال ونحن في شهر حزيران، فنحن في العراق لم نعتد في صباحاتنا الصيفية على أن نستقبل نفحات من الهواء البارد خاصة بعد أن تهجم علينا أشعة الشمس بوقت مبكر مثل أي ضيف ثقيل يأتي دون سابق موعد، فرائحة البحر وما تمنحه من طراوة على ملامح الناس والأشياء وحركة الحياة لا يمكن للغريب القادم من مدن القيظ إلا أن تتسلل إليه وتعلق بحواسه، ورغم أن أشعة الشمس كانت تحاول تأكيد حضورها إلا أنني كنت أشعر بحرارتها أشبه بهفهفة ريح ناعمة، فكان من الطبيعي أن يغمرني إحساس شفيف بحلاوة اللحظة التي كنت أعيشها، خاصة وأن مدننا في العراق كانت تستيقظ في مثل تلك الأيام على لفحات ساخنة من هواء مشبع بذرات من الرمال قادمة من قلب الصحراء، ولما سالتها عن رأيها بطبيعة المناخ اكتفت بكلمة واحدة "لطيف" ولم تزد عليها كلمة أخرى، لأنها كانت منفصلة عما يحيطها، في محاولة منها أن تستجمع مشاعرها المضطربة التي كانت تتشظى كلما اقتربنا من المستشفى التي باتت تبعد عنا مسافة تقل عن خمسين مترًا.

نولد ونموت عشرات المرات في مسيرة حياتنا، وبين الموت والميلاد هناك لحظات نتحرك فيها ونحن نحترق بغيوم داكنة سوداء تضلل كل خطوة نخطوها، أحيانا ننجح في استرجاع أشلائنا ونعيد إليها صوتنا، ونفلح في أن

لا نستسلم للروائح المتعفنة التي تسد علينا سبل الخروج من محطات الانتظار، نحن هكذا ما أن تضرب أقدامنا الأرض ونستفيق من سماء طفولتنا البريئة، حتى نجد أنفسنا في غيبوبة أبدية لا نصحو منها إلا عندما يوشك ناقوس النهاية أن يقرع.

لم أستطع أن أقفز من أرجوحة التفكير التي أخذتني من حيث كنت أجلس معها داخل المستشفى ننتظر نتيجة فحص الدم، فقد طلِبَ منها ذلك قبل أن تدخل إلى غرفة جهاز الفحص الاشعاعي "PTE SCAN" وخلال فترة الانتظار لفت انتباهي وجود الكثير من المراجعين العراقيين الذين جاؤوا من بلد النفط والخيرات ليتلقوا العلاج في لبنان، فمن نجَا منهم بحياته من نيران الحروب اصطاده السرطان، فقد تحول العراق إلى لعنة سرطانية تطارد الجميع.

انتابتني رغبة كبيرة في أن أصرخ لعلّي أستطيع أن أحدث شرخا في هذا التآكل الذي أصابنا، حتى أننا لم نعد نوقن بإمكانية الخلاص .

بقيت أنظارنا خلال ساعة من الزمن ترنو إلى الشاشة المعلقة على الجدار والتي كانت تعرض أرقام من ينتظرون استلام نتيجة فحص دمهم، وأثناء ذلك مالت ناحيتي وهمست في أذني بأن الدم والسوائل قد تجمعت في مكان العملية الجراحية، ولا بدَّ من سحبها اليوم، لأنها بدأت تشعر بثقل يدها اليسرى ولم تعد تستطيع أن ترفعها أو تحركها بسهولة.

"هل تستطيعين أن تتحملي إلى أن تنتهي من أخذ الأشعة ؟ "سالتها لأتأكد فقط من قدرتها على التحمل.

"نعم أستطيع".

استلمنا النتيجة بعد ساعة من الانتظار، واتجهنا إلى موظفي الاستعلامات لنسألهم عن كيفية الوصول إلى غرفة الفحص بجهاز "PTE SCAN"وعلِمنا منهم بأنها توجد في الطابق الذي يقع تحت الأرض، وبعد بحث واستفسار

بين الممرات الطويلة التي تشبه الملاجئ المحصنة في الحرب العالمية الثانية وصلنا إلى غرفة الفحص وسلمنا البيانات إلى فتاتين تديران مكتب الاستعلامات الخاص بجهاز الفحص، واحدة كانت محجبة والأخرى سافرة، وكان من ضمن البيانات التي سلمناها رسالة من الدكتور لقمان الذي سيشرف على علاجها الكيميائي ما أن نعود إلى العراق مباشرة، كانت موجهة إلى إدارة المستشفى يؤكد لهم فيها على إجراء الفحص بجهاز pte" "scan أكملت الفتاة المحجبة تسجيل المعلومات في الكومبيوتر استنادًا على الرسالة ونتيجة فحص الدم وبقية البيانات الأخرى التي جلبناها معنا من العراق، ثم طلبت مني أن أذهب إلى قسم الحسابات حتى أسدد مبلغًا بقيمة 650 دولار ثمن الفحص، ومن ثم العودة والانتظار إلى أن يحين موعدنا.

جلسنا على مسطبة مقابل غرفة الفحص لفترة من الزمن تصل إلى أكثر من نصف ساعة، وكان من المفروض أن نجد التزامًا وانضباطًا في السلوك ما يعزز الثقة من أننا في مكان يليق باسم الجامعة الأميركية، ولكن ما مَثُل أمامنا من مزاح بين الموظفتين الشابتين لم يكن إلا شكلًا من أشكال الاستهتار الذي لا ينسجم مع وظيفة المكان، آنذاك تعززت لدي قناعة لم أستطع استبعادها، بأن لبنان والعراق أقرب شبها بالفتاتين في تأرجحهما بين الحداثة والتقليد.

كان باب غرفة الفحص مواربًا ويقع على مسافة قريبة منا، لذا كان من السهولة أن نرى جانبًا من جهاز الفحص، وبقيت زوجتي تمدُّ رأسها إلى الأمام حتى تتمكن من أن تعاينه بشكل جيد، فإذا بها ترفع حاجبيها إلى الأعلى وتظهر عليها ملامح الاستغراب بينما كانت تهزُّ رأسها وكأنها ليست مصدقة ما كانت تراه.

التفت ناحيتي وقالت: "هذا الذي أراه أمامي ما هو إلا صورة طبق الأصل عن جهاز ال CTE SCAN الموجود في أربيل ، والذي سبق أن فحصني به الطبيب الهندي، فهل هذا معقول**!؟**".

"ولـم لا ؟ ربمـا التشـابه بينهمـا مـن حيـث التصـميم، بينمـا مـن حيـث الوظيفـة يختلفان " .

نادت عليها الفتاة غير المحجبة وطلبت منها التوجه إلى غرفة الفحص.

منـذ أن أصـيبت فـي نهايـة شـهر أيـار حاولـت قـدر المسـتطاع أن أخفـي عنهـا كـل مـا كنـت أحملـه مـن قناعـات متشـائمة، وبـدلًا عـن ذلـك بـدأت أمضـي فـي طريـق آخـر يخلـو مـن النبـوءات التـي تجعـل النهايـات لا تبعـث علـى التفـاؤل خاصـة مـا يتعلـق بالحيـاة فـي العـراق، حتـى إننـي عملـت علـى شـطب القنـوات الإخباريـة مـن قائمـة اهتمامـاتي، كـل ذلـك فـي محاولـة منـي لإشـاعة منـاخ مـن الهـدوء فـي البيـت، لأننـي أعلـم جيـدًا أن متابعـة الأخبـار السياسـية أكثـر مـا سـمَّم حيـاتي، وفتحـت قروحًـا فـي مسـامات وجـداني، وجعلتنـي أهـدر الكثيـر مـن الجهـد والوقـت دون جـدوى، فـالتغيير فـي هـذه البقعـة مـن الكـرة الأرضـية عبـارة عـن خرقة يمسح بها الساسة أحذيتهم.

أيقنـت مـن أن علاقتـي بهـا بـدأت تخطـو نحـو منطقـة عاطفيـة أكثـر عمقًـا، لا علاقـة لهـا بالإشـفاق عليهـا لأنهـا مريضـة، بقـدر مـا اكتشـفت بـأن مـا يبقـى مـن المسـيرة الحياتيـة هـي الـروابط الأسـرية التـي يؤسسـها الإنسـان، ولـن تجـدي نفعـا كـل النجاحـات المهنيـة التـي مـن الممكـن أن يحققهـا إذا لـم يفلـح فـي بنـاء أسرة متماسكة يسودها الحب.

عنـدما خَرجَـت مـن غرفـة الفحـص بعـد نصـف سـاعة بـدت علامـات الاسـتغراب علـى وجههـا أشـد وضـوحًا، فبـادرت هـي بالحـديث: " لـيس هنـاك أي فـرق بـين هـذا الجهـاز وجهـاز الفحـص cte scan الموجـود فـي أربيـل ، أكثـر مـا أخشـاه أن يكون هناك خطأ ؟".

"لا أعتقد، لأن التقرير الذي كتبه د.لقمان كان واضحًا".

علـى مـا يبـدو فـإنني قـد تطوعـت مـن ذاتـي لتبديـد وساوسـها، مـع أنـي لـم أكـن متأكـدًا فـي مـا إذا كـان هنـاك خطـأ فـي الموضـوع، ولا أدري لمـاذا لـم نحـاول

في حينه أن نستفسر من الطبيب نفسه الذي كان يعمل على الجهاز، على الأقل حتى نقطع الشك باليقين، وبينما كنا نتجادل حول موضوع الجهاز نادت علينا الفتاة المحجبة وأبلغتنا بأن النتيجة ستظهر بعد ثلاثة أيام، ولما اعترضت على طول الفترة، أجابتني بأن من الممكن أن أتحدث مع الطبيبة المسؤولة عن القسم، وأشارت إلى غرفة قريبة منّا.

وبعد جهد بذلته مع الطبيبة المسؤولة عن تسليم التقارير استطعت أن أقنعها بأننا لا نستطيع الانتظار، ولا بدَّ أن نستلمه في اليوم التالي ووعدتني بأنها ستبذل جهدها حتى نتمكن من استلامه في تمام الرابعة عصرًا.

بقي لدينا فائض من الوقت ذاك النهار، وكانت الساعة تشير إلى الحادية عشرة صباحًا عندما نظرتُ إليها ووجدتها متعبة فكان لا بدَّ من إجراء عملية سحب للدم والسوائل، وسرعان ما تمكنا من الوصول إلى الطبيب هاشم معتوق حتى يتولى عملية السحب، كانت عيادته تقع في مبنى كبير ملحق بالمستشفى، وبعد أن اطلع على مكان العملية، سألنا عن اسم الجراح العراقي الذي تولى إجراءها، وأبدى إعجابه الشديد بدقة عمله، ثم رفع سماعة الهاتف الموضوع على مكتبه وأجرى اتصالًا هاتفيًا، وعاد مرة أخرى يستفسر منها عن صحتها وفي ما إذا كانت تعاني من أية مشاكل وفي تلك الأثناء دخل شاب إلى الغرفة يرتدي رداء أبيض خاصًا بالأطباء، طلب منه الطبيب معتوق أن يتولى بنفسه عملية سحب الدم، ثم استدار ناحيتنا ليطمئننا مشيدًا بكفاءة الطبيب الشاب خاصة وأنه يشرف شخصيًا على رسالة الماجستير التي يواصل التحضير لها.

عندما خرجنا قاصدين البحر مشيًا على الأقدام كان جبين الشمس يلوح من نافذة الغرفة في الفندق معلنا اقتراب فترة العصر على الأفول، أخبرنا عامل الاستعلامات بأن من الممكن أن نصل إلى الكورنيش من غير أن نستعين بسيارة أجرة لأنه يبعد مسافة لا تزيد عن عشر دقائق.

دائما ما كنت أعتقد بأن العلاقة بين الإنسان والمكان ليس من السهولة أن تتشكل ويكتمل حضورها في طبيعته وثقافته وردود أفعاله، فهي تحتاج إلى مشاركة وتفاعل وجداني أكثر مما تحتاج إلى سنوات طويلة من الإقامة،

ومن الممكن هنا الحديث عن انطباعاتي الشخصية حول هذه المدينة التي كنت أزورها للمرة الأولى، ومع ذلك فإن قناعتي لا يتوفر فيها قدر كبير من المصداقية، لأنني لمستُ المدينة من السطح، ولم تتكامل الظروف بعد حتى تنبسط العلاقة بيني وبينها، ولتنشأ بيننا لغة عفوية في التعامل، فأنا بالكاد تعرفت إليها وجهًا لوجه منذ ساعات، رغم أني أعرف عن تاريخها الكثير، ولكني لا أستطيع أن أنكر بأنني لم أستلم أي إشارة حب تجاه هذه المدينة التي كانت في يومٍ ما، الملاذ الذي كنت أتمنى أن أبدأ منه حياة جديدة، إذا ما غادرت العراق، وهذا ما صدمني منذ أن وطأتُ أرضها قبل يومين.

طيلة الطريق الطويل المؤدي إلى البحر لم أجد فيها ما يدفعني إلى أن أندهش، فليس فيها من أبنية معمارية تمنحني الشعور بأنني في مكان لن أجد ما يشبهه في مدينة أخرى، إنها نسخة من مدن كثيرة منتشرة في هذا العالم، فهي ليست مثل صنعاء على سبيل المثال المدينة اليمنية التي تفرض حضورها بخصوصية طرازها المعماري الذي يعود إلى مئات السنين أو إيطاليا التي لا تستطيع فيها إلا أن تستنشق رائحة عصر النهضة بكل فخامته في النصب والتماثيل التي تواجهك أينما استقرت عيناك في الشوارع والساحات العامة، أما بيروت فلن ترى فيها أكثر مما تراه من تصحر في المدن العربية الأخرى، فخلف تلك الأبنية والعمارات الحديثة لن تعثر على قصص تفتح الأفاق أمامك نحو المستقبل .

البحر هو الشيء الوحيد الذي جعلني أستسلم لجاذبيته ما أن رأيت أشعة الشمس بلونها الذهبي وهي تنعكس على أمواجه، فكان الماء بذاك المدى الشاسع قد شكل مساحة حرة من المشاعر الناعمة مثل نعومة الرذاذ الذي ترسله الأمواج لدى اصطدامها بالصخور الراسخة عند الشاطئ، وخلال لحظات أزاحت رائحة البحر، الحواجز النفسية التي أحالت بيني وبين بيروت.

وقفت مسحورًا أمام صخرة الروشة، ورحلتُ بمخيلتي معها إلى سنين بعيدة من التاريخ مرت بها هذه المدينة التي كانت في ما مضى بوابة العبور نحو

العالم المتمدن، ولطالما بقيت أبوابها مفتوحة أمام المغامرين والحالمين بعالم أفضل، أطلتُ النظر طويلًا وأنا أتأمل الصخرة وهي تقف شامخة وسط الماء مثل كائن أسطوري عملاق، غير عابئة بالأمواج، وكانت بمثابة شاهد على التاريخ، إلا أن متعتنا أفسدتها امرأة بدينة ملحاحة بينما كنا نتكئ بأذرعنا على السياج الحديدي نتأمل البحر، فما أن لمحتنا حتى اقتحمتنا ونحن نحلق بمخيلتنا مع سحر المكان، فانتزعتنا من صفاء تلك اللحظة الآسرة وهبطت بنا على الأرض إلى حيث الكورنيش الذي كان يعج بحركة الناس، بدت المرأة في لون بشرتها المائل إلى سمرة داكنة أقرب ما تكون إلى الغجر، وما عزز ذلك الإحساس تلك الوشوم التي كانت تزين ذقنها وكفيها إضافة إلى سِنِّها الذهبي الذي كان يلمع بين بقية أسنانها الأخرى، ظلت تحوم حولنا لإقناعنا بقدرتها على قراءة الكف، ولكننا لم نعرها اهتمامًا، إلا أن زوجتي أشارت بحركة من رأسها بأن أمنحها أي مبلغ بسيط، لكني رفضت، لقناعتي بأنها امرأة تحترف الشحاذة مثلما هي تحترف النصب والاحتيال، ولم نفلح بالخلاص منها إلا بعد أن ابتعدنا عنها وغادرنا المكان.

قبل موعد عودتنا إلى أربيل بيوم واحد، قررت أن نذهب إلى الطبيب الذي سبق أن أجرى العملية الجراحية لزميلتي المهندسة في القناة الفضائية والتي سبق أن زودتني برقم هاتفه وعنوانه.

أحيانًا لا تحتاج إلى وقت طويل حتى تكتشف حقيقة بعض الأشخاص، ومن الممكن أن تصل إلى أعماقهم بكل سهولة حين تلتقيهم أول مرة، وكأنك تعرفهم منذ فترة طويلة، وهذا ما حصل مع الطبيب رضا الطفيلي ما أن التقينا به في عيادته، فما أن علِم بأننا من مدينة الموصل أبدى تعاطفه معنا، ولم يكن يحتاج إلى أن يجاملنا، خاصة بعد أن وجدته يحمل ذاكرة عاطفية تطغي عليها مشاعر المحبة إزاء العراق، حيث سبق له أن زار النجف وكربلاء أكثر من مرة، وبعد أن اطلع على التقرير الخاص بالفحص الذي أجريناه يوم أمس أكد لنا بعدم وجود أي إشارة على أن النقاط السوداء هي عقد سرطانية، وبذلك تطابق رأيه مع رأي الطبيب الهندي في أربيل، آنذاك

استوت في جلستها، وكان من السهولة ملاحظة البريق الذي بدأ يشعُّ من عينيها.

14

نوستالجيا

قبل أن يحين موعد إقلاع الطائرة التي سنعود على متنها إلى أربيل أحالنا الانتظار الطويل إلى الشعور بحالة من الإرهاق والضجر، ولكن الذي خفف عنا هذا الشعور تلك الأحاديث التي فتحت أبواب الحنين على مصراعيها، مع عائلة مسيحية أصولها من محلة السّاعة في مدينة الموصل القديمة، صادف أن جلست بالقرب منا، فاستحال الوقت معها إلى حيوات وأمكنة استعدنا صدى تراتيلها وأنغامها من أنفاق الزمن، بعد أن نفضنا عنها تراب النسيان، وما أصاب ملامحها الوديعة من خدوش وتشويه خلال العقدين الأخيرين، فأشرقت بدفء أيامها وأخذتنا معها إلى مباهج عفوية لم تعد الحياة تلتفت إليها.

كانت العائلة مكونة من أب وأم تجاوزَا العقد السادس من عمرهما، وبرفقتهما ابنتاهما اللتان كانتا في سن المراهقة، إضافة إلى ابنهما الشاب الذي لم يتجاوز العشرين من عمره، وبسبب قسوة سنين الحصار الدولي على العراق في تسعينات القرن الماضي اختارت الهجرة إلى الولايات المتحدة الأميركية، وهي في ذاك اليوم كانت تروم السفر إلى أربيل لزيارة الأهل والأقارب للاطمئنان عليهم بعد أن اضطروا للنزوح إلى إقليم كوردستان أثر احتلال الموصل من قبل تنظيم الخلافة .

تأملنا معًا سجل ذكرياتنا الموصلية المشتركة وما يضمه من صور بقيت عصية على النسيان رغم تراكم الغبار على جمال لحظاتها، ومازالت كلما احتجنا إلى إيقاظها تبعث فينا القشعريرة ما أن تتسلل رائحتها العطرة إلى ستائر الذاكرة، وكل واحدة من تلك الصور كانت تشير إلى حكايات محمّلة بنسمات ربيع موصلي لم نجد مثيلًا له في أي مكان وصلنا إليه في غربتنا، وما أن تمس شغاف القلب حتى تُشعِل فيه اللوعة.

حكايات تضم بين تفاصيلها وشخوصها وأزمنتها مساحًة من الطمأنينة لا حدود لأفاقها، وما عاد عالمنا اليوم قادرًا على أن يشيعها بين سكانه، بينما كانت أزقة الموصل القديمة وشوارعها تمنحها دون شروط مسبقة.

تدفق الحديث متوهجا بمذاق اللهفة والحنين، وكأنَّ الذي بيننا وبينهم عِشرة تمتد إلى سنين طويلة وليس لقاءً عابرًا جمعتنا به الصدفة في محطة انتظار ببلد غريب، ولا أدري كيف مضى بنا الوقت سريعًا مثل سرعة الضوء، ونحن نحلق بمتعة أخيلتنا بعيدًا عن حركة خطوط الملاحة الجوية ضاربين عرض الحائط قوانين الجاذبية الأرضية، فحطت بنا أجنحة الذكريات عند عتبات تشتاق إليها العيون قبل الأفئدة، لكنها مضت بأفراحها وبراءتها إلى غير رجعة، وفقدنا الطريق الذي يؤدي إليها بعد أن استحال الفجر الجديد الذي وعدتنا به أفانين السياسة إلى ليل طويل يخشاه الحالمون والعشاق والشرفاء.

الهروب نحو الماضي في أحاديثنا كان شعوراً مثقلًا باليأس، ما انفك ينأى بنا مسافات بعيدة ونحن نرى نداءات الحياة وهي تنطفي في مدينتنا التي كانت في ما مضى مملكة متوجة بانسجام ألوانها المتنوعة، فكتبنا في صالة الانتظار ونحن نقرض الوقت، قصائد شوق لسماء كانت تمطر آمالًا، فتستحيل المتاهات في دروب المحبين إلى فراديس.

آوينا إلى الصمت في ما تبقى من الوقت ونحن ننتظر موعد الإقلاع عن الأرض والتحليق في الفضاء بعد أن تعبت مخيلتنا من لملمة شظايا مرآتنا المكسورة في الواقع، بينما كانت شاشة تلفزيونية كبيرة معلقة على جدار في صالة الانتظار تعرض وعبر نقل مباشر من قِبَلِ قناة الميادين موكبًا حاشدًا للشيعة وهم يؤدون طقوسهم الخاصة التي عادة ما يفيض منها البكاء واللطم أثناء إحيائهم لذكرى مقتل الحسين، وتساءلت مع نفسي وأنا أراقب ما يجري في تفاصيل المشهد الكربلائي: على من تبكي هذه الجموع؛ على نفسها أم على الحسين؟.

في اللحظة التي خرجنا فيها من مطار أربيل واستقلينا سيارة أجرة ونحن نروم العودة إلى البيت، غمرني إحساس غريب من غير أن يكون بيني

وبينه موعد مسبق، ولم أكن أتوقع أن يخطفني على تلك الصورة المحمَّلة بالشوق، ويكشف عما كان مخبوءًا من مشاعر حب إزاء علاقتي بهذه المدينة، مع أنني غريب عنها وعن أهلها، ولم أختر العيش فيها بإرادتي لتكون الوسادة التي أسند إليها رأسي حتى أنام مطمئنا، بعد أن أمست حياتي قبل أكثر من ثلاثة عشر عامًا في مدينة الموصل على حافة الخطر.

عندما خرجت بنا السيارة من محيط المطار ودخلنا الشارع الطويل الذي يمر بمحاذاة شقق زكريا، انتبهت إلى أن حيويتي عادت لي، كما لو أني قد عثرت على شيء ثمين كنت قد فقدته، فأيقنت بأن هذه المدينة كانت تمكث معي دون أن تعلن عن نفسها، وإنني لا أستطيع الإفلات من إغوائها رغم أني لا أتقن لغة أهلها، ففي بعض الأحيان قد ينال السهو منّا، فيسبب ضررًا في ذاكرتنا، عندها تنسدل غشاوة على أعيينا وتسقط في دائرة النسيان علاقة وثيقة تمثل جانبًا من حقيقتنا، كانت تربطنا بشخص أو مكان أو مدينة أو شيء ما.

كنت مندهشًا منيّ، لأني كنتُ متعجِّلا بشكل لافت لاستعادة الرائحة الخاصة للمدينة التي آوتني عقدًا ونيف من الزمان بعد أن ألبستني ثوب الأمان، اخترقني هواؤها ونفذ إلى كل خلية من جسدي، وكأني استعدت نفسي، وشعرت بقوة داخلية تحرضني على أن أستعين ببراءة الطفولة لأمدَّ يدي إلى الخارج حتى ألمس روحها في الهواء الساخن، وجدران الأبنية وسيقان الأشجار المزروعة على الأرصفة وفي كل ما كان يمر أمامي سريعًا وأنا أتطلع إليها من خلف زجاج نافذة التاكسي، في تلك الظهيرة الحزيرانية التي وصلنا فيها إلى البيت كانت المدينة وتحت ثقل القيظ تركن إلى هدوء عجيب، لم يبدده إلا فرحنا بلقاء ولدنا الذي استقبلنا بشكل طبيعي وهو ينزل الدرج من الطابق الأول وعيناه شبه مغمضتين من أثر النوم، كما لو أننا لم نغب عنه خمسة أيام، وكم شعرت بالامتنان للصديقين أكرم أسوفي ومحمد خيون، بعد أن أخبرني بأنهما كانا على اتصال دائم به للاطمئنان عليه أثناء غيابنا.

بعودتنا إلى أربيل فإن أربعة أسابيع تكون قد انقضت من هذه التجربة التي أحالت حياتنا إلى ما يشبه الكابوس، حيث وجدنا أنفسنا نقاتل ولوحدنا في معركة لم يكن متاحًا لنا فيها أن نخلد إلى الراحة، حتى أن أيامنا بلياليها وصباحاتها بدت مبعثرة على دكة الارتداد إلى الخلف مهما حاولنا أن نمسك بالزمن لعلنا نستفيق من الغيبوبة التي قلّمَت أغصان أمنياتنا.

ما مضى كان المحطة الأولى وليست الأخيرة في هذه الرحلة المعبأة بالقلق، ولا شك في أننا تمكنا فيها من انتزاع الحياة قبل أن تسقط بين أنياب القدر المحتوم، والتقطناها بأسنانا وأظافرنا مع أن هواجس مرعبة كانت تتسلل إلينا ما أن تنفرد الذات بذاتها، وأظهرت هي شخصيًّا قدرة غير متوقعة على أن تقف في مواجهة الرعب الذي كان يحيط بها في كل ثانية، خاصة عندما كانت تختلي بنفسها، وتبدأ محاولاتها في تحطيم حواجز الغيب التي كانت تفصل بينها وبين ما يخبئه الغد من مفاجاءات، وغالبًا ما كانت تقطع في هذه الرحلة المتخيلة مسافة طويلة من الافتراضات التي عادة ما كانت تنطفئ وتشتعل فيها الروح دون أن تصل إلى ضفة الأمان، ومع ذلك لم أجدها ترفع الراية البيضاء رغم ما كان يصيب دفاعاتها من أضرار.

ابتدأ من اليوم الذي أعقب عودتنا من بيروت كان عليها أن تقف عند خط البداية لتبدأ ماراثونها مع العلاج الكيمائي، وما جمعناه من معلومات عن هذه المرحلة فرض عليها أن تتسلح بالشجاعة القصوى لأنها أدركت حجم ما ستكابده من أوجاع، وستكون أمام صفحة جديدة ستترك عليها آثارًا نفسية ستلازمها فترة طويلة قبل أن تتجاوزها وتصبح في إضبارة أرشيفها من هذا المرض إذا ما حالفها الحظ.

عصر اليوم التالي كنا على موعد مع دكتور لقمان في عيادته بمركز ميديا، وكما اعتدنا في زياراتنا السابقة كانت صالة الانتظار مزدحمة بالنساء، حتى بدَا المشهد على تلك الصورة روتينيا، ولم يعد يشكل صدمة لي رغم ما يحمل بين تفاصيله من إشارات غير مطمئنة، كلها تؤكد على انتشار مرض سرطان الثدي بشكل مخيف بين نساء العراق، ومع ذلك كان من الصعب أن أتقبله باعتباره أمرًا مألوفًا، لأن من غير الممكن أن يقبله العقل ولكنه

سيبقى هكذا على ما يبدو، طالما كانت أبواب البلاد مشرعة أمام متاهة الفساد، وبعد انتظار زاد عن ساعة من الزمن حان موعدنا مع دكتور لقمان، الذي لم يكن يتخلى أبدًا عن صرامته التي تتناسب مع نحافته الشديدة وطوله الفارع وهيئته التي لا يظهر منها أي ملامح تعاطف مع المريض، رغم أنه في حقيقته على العكس مما يبدو عليه، فقد كان يملك إرادة قوية تجعله يتحمل ساعات طويلة من العمل دون أن يبدر منه أي انفعال مع أنه عادة ما يكون محاطًا بالعديد من المرضى الذين لا يتمتعون بأي قدر من الأمل، وغالبًا ما يخضعون لسطوة إحساسهم باقتراب نهايتهم، وإن فرصتهم في اقتناص يوم جديد قبل أن يأتي أجلهم المحتوم لا سبيل إلى تأكيدها، ولعل أكثر ما يلفت الانتباه إليهم أن الصمت الذي كان يغلفهم قد استحال إلى عالم يحيط بهم، وأصبح جزءًا من حياتهم، وكأنه تعبير عن شعور بالاستسلام لمشيئة القدر.

قدمنا له مغلفا ورقيا يحتوي على نتائج الفحوصات التي أجريناها في لبنان، وقبل أن يفتح المغلف ارتسمت على وجهه ابتسامة شحيحة، ثم توجه بالسؤال إلى زوجتي ليطمئن على صحتها، بعدها فتح المغلف وبدأ في قراءة التقارير الخاصة بالفحص، فإذا به يرفع رأسه عن ما كان بيده وأخذ ينظر إلينا، ثم هز رأسه بحركة موضعية خفيفة كمن تفاجأ بأمر لم يكن يتوقعه، عندها وجدت زوجتي تنظر نحوي وكأنها كانت تستنجد بي، في محاولة منها لفهم ما صدر عنه من ردة فعل عبّرت عن صدمته مما قرأه، خاصة عندما رفع يديه إلى الأعلى فاتحًا كفيه، وكأنَّ لسان حاله يقول لنا: "ماهذا ؟" .

وقعنا في حيرة من أمرنا بعد أن رجع بكرسيه إلى الخلف، وبقي يوزع نظراته بيننا، وبدَا واضحًا أنه كان مستاءً بقدر ما كانت تعلو ملامحه علامات الاستغراب، لكنه تصرف في تلك اللحظات كمن يخاتل استياءه وغضبه، حتى لا يتسبب بأي أذى نفسي لمريضه، ولهذا رسم ابتسامة مبتسرة على وجهه، ولم يكن من الصعب ملاحظة ما حصل من تغير في

مزاجه، وما كان يشعر به من أسفٍ، عندما أخذ يهز رأسه أكثر من مرة وهو يزم شفتيه.

لم نفهم الحالة العبثية التي وجدنا أنفسنا فيها، ولأنه لم يكن يسعى إلى أن يضعنا في دائرة مقفلة من الحيرة، قطع علينا تساؤلاتنا الداخلية وقال لنا: "للأسف، لم يكن هناك أي جدوى من رحلتكم إلى لبنان".

"لماذا ؟" سألتُه بعد أن شعرت وكأنني قد سقطت فجأة في بقعة مظلمة وأحاول أن أتشبث بأي شيء حتى أخرج إلى النور.

" لأن الفحص لم يكن بجهاز ال pet scan الذي أوصيت به في التقرير إنما تم بجهاز ال cet scan وهو نفس الجهاز الموجود لدينا في المركز والذي يعمل عليه الطبيب الهندي".

"كان لدي إحساس في حينه، بأن هناك خطأ ما قد حصل، حتى إنني تحدثتُ مع زوجي حول ذلك" استدركت زوجتي بإجابتها في محاولة منها لترميم الخطأ الذي وقعنا فيه والذي لم يعد ممكنا تصليحه، وهذا ما عبَّر عنه الدكتور أيضا حين حسم الأمر بسرعة وقال: " لنطوِ هذه الصفحة الآن، وعلينا أن نبدأ بالعلاج الكيمائي بأسرع وقت"، ثم وجَّه كلامه إليها: "يتوجب عليكِ أن تراجعي مستشفى نانا كلي صباح يوم غد الثلاثاء، وسأكون موجودًا هناك، حتى نفتح ملفا باسمك ويخصص له رقمًا".

كانت صدمتنا كبيرة بعد أن واجهَنا الدكتور بما وقَعنا به من خطأ في لبنان، خاصة وأن أي وسيلة لمعالجته كانت غير ممكنة بل ليست مجدية، لأن الوقت لم يكن يمضي لصالحنا أبدًا، وهذا ما أكَّد عليه أكثر من مرة وأعاده على مسامعنا، حتى إننا وبعد أن عدنا إلى البيت في ذلك المساء لم نستطع أن نتناول العشاء، وبقينا لفترة من الوقت نتداول ما أوقعنا أنفسنا فيه من إشكال، فكنّا مرّة نلقي باللائمة على أنفسنا وأخرى نبرؤها، وظلَّ الشعور بأننا قد خُدعنا مسيطرًا علينا، ولم نستطع أن نتخلص منه، فضلًا عن إننا في رحلتنا كنا قد تحملنا خطورة السفر ومشاقه، إضافة إلى أن مجموع تكاليف الرحلة التي وصلت إلى 2200 دولار ذهبت كلها هباء منثورًا،

وبقدر ما شعرنا بأننا نتحمل المسؤولية عن الخطأ، لأننا لم نسأل ولم نستفسر بما يكفي خاصة عندما شكَّت زوجتي بالأمر قبل وبعد الفحص، إلا أننا ولأجل تخفيف العب عن كاهلنا حمّلنا الموظفتين الشابتين في مستشفى الجامعة الأميركية كامل المسؤولية، بسبب استهتارهما أثناء العمل، ولكن بعد كل مداولة جرت بيننا حول الموضوع كنا نعود لنصل إلى نتيجة واحدة بقينا نرددها مع أنفسنا "ما فائدة الشكوى؟".

رغم عمليات البحث التي أجريتها عبر شبكة الإنترنت إلا أنني لم أعثر على صورة واحدة للشخص الذي تبرع بإقامة مشروع مستشفى نانا كلي الخاص بمعالجة مرضى السرطان، حتى أسعفني سائق التاكسي الذي سألته صباح يوم الثلاثاء إذا ما كان يعرف مكان المستشفى حتى يوصلنا إليها، فبادر بالحديث ما أن تحركت بنا السيارة، وأخبرنا بأن إحدى قريباته تعمل فيها بصفة ممرضة، ومن خلالها أصبح لديه معلومة مؤكدة بأن تاجرًا كورديًا اسمه أحمد اسماعيل نانا كلي كان قد تبرع بالأرض وتكفل ببناء المستشفى وتجهيزها بكافة المعدات، وتم افتتاحها عام 2004، كما خصص راتبًا شهريًا لجميع العاملين فيها قيمته مائة ألف دينار يضاف إلى راتبهم الشهري الذي يستلمونه من حكومة الإقليم باعتبارهم موظفين على الملاك الحكومي، وطيلة الطريق كان السائق يستعيد المواقف النبيلة التي أقدم عليها هذا التاجر لدعم المحتاجين فذكر لنا بأنه خصص رواتب شهرية لعوائل كثيرة في كوردستان ليس لديها من يعيلها، وظلَّ يؤكد على أن الرجل لا علاقة له بالسياسة أبدًا، كما أنه يقيم في أغلب الأوقات في الأردن حيث يدير أعماله التجارية من هناك.

أدركت بعد سماعي لهذه المعلومات أن من الممكن للأمنيات البسيطة التي عادة ما تراود عموم الناس في العلاج والرعاية الإنسانية والحياة الكريمة أن تتحول إلى حقائق ملموسة إذا ما أبدى الأغنياء القليل من الاهتمام ببلدهم.

انسابت في الروح نغمات تتدفق عذوبة، جعلتها ترفرف على إيقاع ينهمر منه فرح شفيف، رغم ما كان يثقل عليها من توجس إزاء ما ينتظرها في

قادم الأيام، فقد كان لحديث السائق صدى عميق تناغم بسهولة مع ما أحمله من رغبة في التشبث بخيوط الحلم، وكأن القدر بعث لنا إشارة عابرة يدعونا فيها إلى أن نستعيد ما لدينا من طاقة حتى نتمسك بقدرتنا على مواجهة الانهيار، وليس بغريب على الحياة أن يرتفع صوت النهار فيها من أعشاب يابسة، وأن تنمو البذار بين صخور صلدة، ويتفتح الجمال وسط الخراب، وبكل الأحوال كان علينا أن نضبط إيقاع وجودنا على هذه الأرض حتى نستعيد الإحساس برعشتنا ما أن يلمس ضوء الشمس أصابعنا، فنحن شئنا أم أبينا علينا أن ننال كفايتنا من العيش مهما نالت منا المقادير.

عندما دخلنا المستشفى تفاجأت بمساحتها الكبيرة، فالمبنى مؤلف من ثلاثة طوابق، كان الطابق الأرضي مخصصًا للإدارة وعيادات الأطباء والمختبرات وقاعات مجهزة بأسرة يستلقي عليها المرض عندما يتلقون العلاج الكيميائي، إضافة إلى صيدلية توفر العلاج بأسعار رمزية بل أقرب إلى أن تكون مجانًا، كما توجد تحت الأرض غرف خاصة تتوفر فيها أجهزة سونار وأشعة، والطابق الأول كان للنساء ويضم قاعات مجهزة بأسرّة ومعدات وأجهزة طبية، أما الطابق الثاني فقد تم تخصيصه للأطفال، ولفت انتباهي وجود عمليات بناء وتوسع لثلاث قاعات كبيرة على مساحة خالية داخل حدود المستشفى.

ما كان يخطر على بالي أبدًا أن أجد هذا العدد الكبير من المرضى، خاصة من النساء والأطفال، وكان أمرًا مفاجئًا لي عندما وجدت جميع العاملين على درجة عالية من الانضباط في التعامل مع المرض ومرافقيهم، وبما أننا قد تعودنا على غياب حسن الاستقبال في سلوك معظم الموظفين الحكوميين، لهذا كنت في كثير من الأحيان أحسد المخلوقات الأخرى الهائمة في البرية لأنها ليست من فصيلة البشر، وهي في غنى عن مراجعة المستشفيات إذا ما أصابها مرض.

كان من الصعب على زوجتي أن تتحمل الوقوف فترة طويلة في ظل مناخ ترتفع فيه درجة الحرارة بشكل كبير، ولكي أن لا يكون الانتظار سببًا في

تدهور صحتها كنت قد اقترحت عليها أن تذهب لتستريح في أي مكان بعيد عن أشعة الشمس إلى أن أنتهي من إجراءات فتح الملف.

بعد فترة قصيرة شاهدتها تجلس إلى جانب امرأة في الثلاثين من عمرها على مسطبة تحت ظل شجرة في حديقة المستشفى، وأخبرتني في ما بعد أن تلك المرأة مصابة بسرطان القولون، وتتعالج منذ أكثر من تسعة أشهر، وحدَّثَتها عن تجربتها مع أول جرعة كيميائي أخذتها وعلِمت منها بأنها لم تجد في تساقط شعرها ما يدعوها إلى الشعور بالألم، بل إن أكثر ما كان يؤلمها التفكير بمصير زوجها وأطفالها الأربعة الصغار إذا ما صرعها المرض في وقت مبكر، آنذاك من سيعتني بهم وكيف سيكون حالهم، خاصة وإنهم يعيشون في مخيم للنازحين يقع في ناحية بحركا عند أطراف مدينة أربيل ، كانوا قد لجأوا إليه بعد أن أجبرتهم ظروف الحرب الطائفية إلى النزوح من مدينة بعقوبة في محافظة ديالى، بعد أن اختطف ابنهم الكبير الذي لم يتجاوز السنة العاشرة من عمره، ولأنهم عجزوا عن توفير مبلغ الفدية مقابل أطلاق سراحه، وجدوه مقتولًا على مسافة قريبة من بيتهم، وعلى أثر ذلك أصابها السرطان، وهم اليوم يتحملون ظروفًا معيشية بالغة القسوة داخل المخيم، وليس لديهم سوى سيارة قديمة لا تصلح أن تكون تاكسي، ولهذا يعمل عليها زوجها في نقل حاجيات الناس في المنطقة القريبة من المخيم، فيوفر من خلالها الحدود الدنيا من العيش الآدمي.

في تمام الساعة الثانية عشرة ظهراً اكتملت إجراءات فتح الملف وتم تسليمنا إياه مع الرقم الخاص به الذي كان مطبوعًا على قطعة كارتون صغيرة صفراء اللون بحجم هوية الأحوال المدنية، وتم التأكيد من قبل الموظف الذي كان مكلفا بفتح الملفات على ضرورة أن نحتفظ بالرقم ونبرزه في كل مراجعة نقوم بها للمستشفى حتى يتم تسليمنا الملف ليدوّنَ فيه الطبيب تطور الحالة المرضية ومراحل العلاج، وبعد أن ننتهي من المراجعة نستعيد الرقم بعد أن نسلم الملف.

توجهنا على الفور إلى غرفة الدكتور لقمان في الطابق الأرضي، ونظرًا لأن عدد المرضى الذين كانوا ينتظرون في صالة الانتظار قد تجاوز

الخمسين مريضًا أغلبهم من النساء، كان لا بدَّ من أن أدون اسمها في سجل يتضمن حقلًا خاصًا بتسلسل المراجعين، وبعد انتظار دام ساعتين من الزمن حان موعدنا مع دكتور لقمان الذي لم يستغرق سوى دقائق معدودة، إذ اكتفى بكتابة عدد من الأسطر باللغة الانكليزية في أول صفحة من الملف ووقع تحتها، ثم التفتَ ناحيتها وقال: "ستأخذين ست عشرة جرعة كيمائية على مدى ستة عشر شهرًا وفي نفس الموعد من كل شهر، وابتداءً من اليوم ستأخذين الجرعة الاولى" .

"الآن!".. استغربت زوجتي وأنا معها أيضا، لأننا لم نكن نتوقع أن يكون الأمر بهذه السرعة .

"هل أنت غير مستعدة؟" سألها الدكتور لمّا وجدها قد تفاجأت.

"بالعكس أنا مستعدة" أجابته بثقة ودون تردد، ثم أضافت: "أنا لست خائفة، ولكن لم أكن أتوقع أن يكون اليوم موعدنا مع الجرعة الأولى".

15

مراجيح الأمريكان في شقق اليرموك

كنت مطمئنا في تلك الساعة من أنها لم تعد تخضع للقلق الذي كان يساورها في الأيام الماضية، بينما كنّا ننتظر إلى أن يحين دورها لأخذ الجرعة الأولى، لأنها بطبيعتها لديها ميل لتطبيق تعليمات الأطباء بحرص شديد، وهذا لأنها تحمل شهادة بكالوريوس في الكيمياء من جامعة الموصل، رغم أنها لم تنخرط في عالم الوظيفة، لكن اختصاصها العلمي الذي اختارته عن قناعة منحها القدرة على فهم تركيبة الأدوية ومعرفة فوائدها ومضارها، حتى إنني ذكَّرتُها بذلك أثناء ماكنَّتُ أختلق الأحاديث بأية صيغة حتى لا تشعر ببطءٍ جريان الوقت إلى أن يحين دورها، إذ يتوجب علينا أن نكون صبورين لأن هناك عشرين امرأة يسبقنها في الترتيب، لذا حاولت قدر ما أستطيع أن ألاطف الوقت بمنعطفات تبعث المسرة وتخفف العبء عن الروح المتعبة كي لا نبقى أسرى تلك اللحظات الثقيلة التي أمسك بها الزمن بقبضته، فما كان علي إلا أن أحرِّض ذاكرتها على أن تنتقل معي على أجنحة الكلمات بين أزمنة عَدَّت علينا بحلوها ومُرِّها، وبعد أن أصبحت مطوية في عهدة الماضي، كانت بعض تفاصيلها تأبى ملامحها أن تضمحل وبقيت تتراقص في مخيلتنا مثل نافورة يعلو فيها الماء وينخفض، فاستدعينا أحداثًا مرت بنا، خاصة عندما كنا نسكن في شقتنا بمنطقة اليرموك بمدينة الموصل، حيث كانت النساء في العمارة التي فيها شقتنا دائمًا ما يلجأن إليها لتقرأ لهن ما مكتوب باللغة الانكليزية على الملصقات الورقية التي عادة ما يتم بها تغليف علب الأدوية، ولم تكن تتثاقل من كثرة الطلبات، بل كانت تشرح لهن ما مكتوب فيها من تعليمات تتعلق بفوائد ومضار الدواء، وتطور الأمر بعد أن وصلت في الأيام الأولى التي أعقبت سقوط بغداد وحدة عسكرية أميركية إلى أرض خالية من البناء، كانت تقع في مواجهة العمارة السكنية التي نقيم فيها، ونزل الجنود من الهمرات وانتشرُوا بكامل أسلحتهم وأخذوا يستطلعونها، ثم بدأوا يرسمون عليها خطوطا بيضاء على شكل

مربعات ومستطيلات، وفي فترة الظهيرة جاءت شاحنتان وأفرغتا ما تحملانه من أعمدة خشبية وقضبان حديدية، أعقبتها ثلاث سيارات حمل من نوع القلابات محملة بالرمل، وبدؤوا بأعمال تقطيع الخشب والحديد، وهذا ما دفع سكان الشقق إلى أن يتجمهروا على الشرفات والنوافذ وأخذوا يراقبون ما يجري أمامهم ويتساءلون في ما بينهم ولا يصلون إلى جواب، وجل ما كانوا يخشونه أن يقيم الأمريكان قاعدة عسكرية لهم على تلك الأرض، فما كان أمامهم إلا أن يستنجدوا بها حتى تتحدث معهم وتفهم منهم الغرض من هذه الأعمال، وبينما هي تستوضح من العسكري الأمريكي عن الغرض مما يجري التف حولهما جمع كبير من النساء، وعدد من الأطفال كانوا قد حشروا أجسادهم الغضة بين النساء ومدُّوا رؤوسهم نحو الأعلى وكأنهم كانوا يتابعون أمام شاشة التلفزيون فيلمًا من أفلام الرسوم المتحركة باهتمام وشغف، وأخذت تترجم لهن ما كان يتحدث به الجندي إجابة على أسئلتها وعلامات الدهشة والابتسامة كانت تعلو وجوههن، لكن دهشتهن لم تكن توازي دهشة الجندي الأمريكي عندما وجدها ترتدي العباءة العراقية السوداء التقليدية وتتحدث معه الإنكليزية بطلاقة، وتفاجأ أكثر ما أن علم منها بأنها ربة بيت وليست موظفة مع أنها تحمل شهادة جامعية، ولمّا أخبرتهن بأن الأمريكان عازمون على أن يقيموا متنزها يضم ألعابًا ومراجيح للأطفال بدل أن تبقى الساحة مكبًا للنفايات، ارتفع صوت الصفير والتصفيق من قبل الأطفال، وأخذوا يتنططون ويدورون حول الجندي الأمريكي وهم يرقصون ويصرخون بأصوات عالية " كوود أمريكا " وانساق معهم الجندي وهو يردد معهم "كوود أمريكا " ولم يترك الفرصة تضيع منه وأخذ يرقص معهم، بينما انبطح بعضهم على الأرض وهم يغصّون من الضحك ويؤشرون بأيديهم على الجندي.

خلال ثلاثة أيام كان الأمريكان يعملون طيلة ساعات النهار مثل خلية نحل، فتمكنوا من إقامة متنزه جميل احتوى على كل ما يحلم به الأطفال من مراجيح ودولايب دوارة ومزحلقات، في منطقة شعبية تكاد تكون منسية من قبل السلطة المحلية، كما زرعوا أشجارًا بشكل متناسق حول المتنزه

وعلى طول الجزر الوسطية التي كانت تمتد وتقسّم الشوارع الداخلية ما بين العمارات السكنية.

في صباح اليوم الرابع خرجتُ إلى الشرفة كعادتي ولأستمتع بمنظر المتنزه لكني تفاجأت باختفاء الأشجار والمراجيح، ولم يبق سوى القضبان الحديدية المثبتة في الأرض، وما أن حلَّ المساء فإذا بالمراجيح يحملها الأطفال وهم يخرجون بها من هذه الشقة وتلك، ويعلقونها بالكلابات المثبتة في القضبان، وبدؤوا في التمرجح فيها حتى ساعات متأخرة من الليل وسط صخبهم وغنائهم، وقبل أن يغادروا المتنزه رفعوها من مكانها وأخذوها معهم.

وبعد أيام عاد المتنزه إلى سابق عهده ليكون مكبًّا للنفايات.

مضت ثلاث ساعات ولم يتبق إلا خمس نساء كن ينتظرن دورهن، عندما نادى باسمها الموظف المسؤول عن تنظيم جدول دخول النساء إلى الصالتين المخصصتين لتلقي الجرعات، وكانت الصالة الأولى تستوعب ستة أسرّة، والثانية اثني عشر سريرًا، وبينما كانت تستعد للاستلقاء على السرير تذكَّرتْ ما كان قد حذرها منه الطبيب جمال غفوري بأن تتجنب أخذ أي حقنة في ذراعها الأيسر حتى لا تتعرض لأي مضاعفات طالما أن العملية كانت في الجانب الأيسر من صدرها، فكشفت عن ساعدها الأيمن ليتم حقنها أولًا وعبر الوريد بسائل لونه يشبه لون الماء كان معبأ بكيس ومعلقًا على حامل حديدي، الغرض منه خلق مناعة دفاعية لديها حتى لا تتقيأ بعد أن تتلقى الجرعة، وبعد ساعة من الزمن نفد ما بداخل الكيس، عندها استدعيتُ الممرضة من غرفة مجاورة فجاءت واستبدلت الكيس الفارغ بكيس آخر معبأ بالمادة الكيمائية وكان لونها يشبه لون الدم، وكان يتوجب عليها أن تبقى راقدة في السرير وقتا لا يقل عن ثلاث ساعات إلى أن ينفد ما بداخل الكيس.

جميع المرضى في الصالة كنَّ من النساء، وإلى جانبهن تجلس نساء وفتيات يرافقنهن، لذا وجدتني في حالة حرج شديد، وهذا ما منعني من الجلوس بالقرب منها على السرير، وآثرت البقاء حيث كنت أجلس في صالة الانتظار على كرسي بمواجهة باب الصالة المفتوح وفي مقابل السرير الذي

كانت ترقد عليه زوجتي، ولاحظتُ امرأة غير محجبة في العقد السادس من عمرها ترقد على السرير المجاور لها، مصابة بسرطان القولون، ومعها ابنتها التي لم تكن تتجاوز العشرين من عمرها، وكان بإمكاني أن أسمع ما كان يدور بينهن من أحاديث، فعرفت بأنها امرأة مسيحية من الموصل لكنها تقيم منذ ثلاثة أعوام في ناحية عنكاوا التي تقطنها أغلبية مسيحية، وأنها على صلة قرابة بعائلة أم يوسف المسيحية التي كانت تقيم مع زوجها وابنيها يوسف وداؤود في شقة مجاورة لنا في نفس العمارة السكنية التي كنا نقيم فيها في منطقة اليرموك، وكانت صلتنا مع عائلة أم يوسف قد اتسمت بالمودة والألفة، ولا زلت أذكر ابنهم الأكبر يوسف الذي كان مصابًا بمرض السكري، وغالبًا ما يقضي ساعات النهار في شقتنا يلهو مع ولدي محمد وكان بعمر ستة أعوام، وعلى الرغم من أن يوسف لم يتجاوز السابعة من عمره إلا أن ضخامة جسمه مع طول قامته مقارنة بأقرانه كان كافيًا حتى يبدو في سن الخامسة عشرة، ودائمًا ما كان يتعرض للتنمُّر بشكل وحشي من قبل الأطفال نظرًا لتأخره منذ الولادة في النطق، حتى أنه كان يلفظ الكلمات بشكل غير مفهوم كما لو أنه في طفل صغير بعمر ثلاث سنين، وكم من مرة تحايلوا عليه عند خروجهم من المدرسة بحجة اللعب معه ليسقطوه بالتالي في بركة آسنة تقع على الطريق المؤدي إلى العمارة السكنية، ورغم كل الجهود التي بذلتها عائلته لمعالجته من مرضه إلا أنها لم تستطع أن تنقذه من الموت الذي اختطفه مبكرًا، وشكل غيابه صدمة قاسية لنا بقدر ما ترك أثرًا موجعًا على والديه، فتشابكت الأحداث مع بعضها وابتلعت منّا الشعور بالأمان بعد أن شاعت الفوضى في الموصل وبرزت الجماعات المسلحة التي بدأت تنتشر بشكل كبير في منطقة اليرموك بعد العام 2003 فقررت عائلة أم يوسف بيع الشقة بما فيها من أثاث، خوفًا على حياة عائلتها بعد أن انفتحت قروح العنف الديني بكل ما يفرزه من كراهية، وغادرت المدينة ولم نعد نعرف عنها أي أخبار، إلى أن سمعنا من المرأة المسيحية التي كانت ترقد على السرير بأنهم قد وصلوا إلى السويد، وإن ابنهم الثاني ديفيد الذي كان أيضًا مصابًا بنفس مرض أخيه قد تمكن الأطباء

هنـاك مـن معالجتـه وأصـبح الآن طالبًـا جامعيًـا يـدرس الهندسـة وفـي السـنة الأخيرة.

ونحـن نخـرج مـن بوابـة المستشـفى بحـدود السـاعة الرابعـة عصـرًا لاحظـتُ أن وجههـا كـان شـاحبًا جـدًّا، ولمـا سـألتها إذا مـا كانـت تشـكو مـن أيـة أوجـاع، أكـدت لـي بأنهـا طبيعيـة جـدًّا، بـل أخبرتنـي بأنهـا تفاجـأت لأنهـا لـم تشـعر بشـيء طيلـة الـثلاث السـاعات التـي كانـت تتلقـى فيهـا الجرعـة، بينمـا كانـت قـد هيـأت نفسـها إلى أنهـا سـتواجه آلامًـا ربمـا لـن تسـتطيع تحمّلهـا، ومـا عـزَّز مـن كلامهـا أنهـا مـا أن دخلنـا إلـى البيـت حتـى غيَّـرت ملابسـها واتجهـت مباشـرة إلـى المطـبخ لأجـل أن تهـيء لنـا وجبـة مـن الغـداء، لأننـي بقيـت طيلـة سـاعات النهـار معتمـدًا علـى مـا تناولتـه فـي وجبـة الفطـور فقـط، وأمـا هـي فمـا كانـت قـد تناولـت حتـى وجبـة الفطـور التزامًـا بتعليمـات الـدكتور لقمـان الـذي كـان قـد أوصـاها بـأن تمتنـع عـن الأكـل نهائيًـا فـي اليـوم الـذي تتلقـى فيـه الجرعـة، ولمـا طلبـتُ منهـا أن تسـتريح وسـأتكفل أنـا بـالطبخ رفضـت، وأعـادت علـى مسـامعي مـرة أخـرى بأنهـا لا تشكو من أعراض ولا شيء يدعو إلى القلق.

في اليـوم التـالي علـى تناولهـا للجرعـة لـم يتبـقَّ علـى انتهـاء شـهر رمضـان سـوى خمسـة أيـام، وكنـا قـد افتقـدنا نكهتـه الخاصـة التـي أعتـدنا عليهـا، حيـث لـم يكـن حضـوره فـي ذاك العـام كبقيـة الأعـوام الماضـية، بعـد أن أحاطـت بنـا الهمـوم حتـى أننـا افتقـدنا تلـك اللحظـات التـي كانـت تظللنـا بسـحر طقوسـها عنـدما كانـت تحـين سـاعة الإفطـار، لأن الطبيـب منعهـا نهائيًـا مـن الصـوم وأكَّـد عليهـا بضـرورة الاهتمـام بنوعيـة الأكـل الـذي ينبغـي عليهـا أن تتناولـه والأطعمـة التـي ينبغـي أن تتجنبهـا، إذ يتوجـب عليهـا أن تتنـاول يوميًـا أنواعًـا مختلفـة مـن الخضروات والفواكه، وأن لا تقترب نهائيًا من كافة أنواع الحلويات.

كانـت تعلـم بـأن شـعرها سـوف يبـدأ بالتسـاقط فـي أقـرب فرصـة، ولكنهـا فـي صـباح اليـوم التـالي الـذي أعقـب تنـاول الجرعـة الأولـى كانـت قـد نسـيت ذلـك تمامًـا عنـدما دخلـت إلـى الحمّـام، ومـا أن أخـذت تمشـط شـعرها فـإذا بهـا تنتبـه إلـى أن خصـلات كثيفـة قـد تجمعـت بـين أسـنان المشـط، كمـا انسـلّت مـن فـروة

رأسها خصلات أخرى وتساقطت على الأرض، ولما أعادت تكرار تمشيط شعرها استمر التساقط بشكل كبير، آنذاك توقفت عن الحركة، وجمدت في مكانها وهي تنظر إلى الخصلات المتناثرة عند قدميها، ولم تستطع أن تتمالك نفسها، حتى أن دمعة انسابت على خدها، ومن ثم شعرت بتشنجات قوية في معدتها كما لو أنها كانت تتمزق، فسقطت مسحوقة تحت إحساس عنيف من الألم لم تستطع أن تفلت منه، رغم أنها كانت تعد نفسها منذ فترة زمنية لمواجهة هذا الموقف باللامبالاة، باعتباره أمرًا ثانويًّا إزاء مسالة استجابتها التامة لكل ما تفرضه وصايا العلاج حتى تتماثل للشفاء، كما أنها كانت تردِّدُ أمامي بأن مسالة الشعر آخر ما يمكن أن تضعه في جدول أولوياتها، على الأقل في هذه المرحلة من حياتها، خاصة وأنها امرأة محجبة، لذا لم يكن الشعر يأخذ أي حيز من الوقت في جدول اهتماماتها الشخصية مثل غالبية النساء، حتى إنها رفضت مقترحي قبل ثلاث سنوات بأن تصبغه عندما غزاهُ الشيب، ولهذا أكدت لي من أنها على ثقةٍ تامة بأن لا أحد سوف ينتبه إذا ما تساقط شعرها، لكن بعد أن وقع الأمر، بات من الصعب عليها أن تحظى بلحظة حياد نفسيّة تتحصن خلفها لتتفادى السقوط بتلك الهوة من الأحاسيس المفرطة بالقسوة، لأن عقلها الذي دائمًا ما كانت تراهن عليه في التحكم بقراراتها وانفعالاتها عجز عن إسعافها بالحياد، فأدركت إنه ليس بوسع المرء أن يتعامل مع انفعالاته مثلما يتعامل مع أزرار المصابيح الكهربائية متى ما شاء ضغط عليها ليتحكم بالظلمة والنور، ولا يستطيع أن يعزل نفسه عما يشعر به في لحظة ما حسب ما يخطط لمشاعره بالصورة التي ينبغي أن تكون عليها كما يشتهي هو، مهما أرتفع مستوى وعيه بالمشكلة التي يعاني منها، وانحيازه للمنطق والعقل في التفاعل مع ما يواجهه من مواقف، ولربما ينجح في الاستعداد مبكرًا للمواقف التي يتوقع حدوثها، ويضع خططا مسبقة تجنبه الوقوع في شراك نتائجها، لكنه غير قادر على أن يتحكم بنفسه ما أن تحين ساعة القدر، والأهم من كل هذا أن يمنح نفسه فرصة أن يتسلح بإرادة قوية تمكنه من أن لا ينجرف ويسقط في دائرة من الأوهام والشكوك والهواجس التي قد تحطم ما لديه من إيمان بإمكانية الشفاء أو الخلاص من المحنة.

في ذلك اليوم نفسه وبعد أن انتهينا من تناول العشاء، وبينما كنا نحتسي الشاي، خيم علينا صمت غريب على غير عادتنا، إذ لم يحدث أن كانت بيننا مسافات من الصمت المطبق، وكأننا غرباء نجلس في محطة انتظار لا نعرف بعضنا، فقد تعودنا على أن تكون لقاءاتنا عند المائدة فرصة ليس لتناول الطعام فقط إنما مناسبة لتعميق أواصر المحبة بيننا نحن الثلاثة، ومنح تفاصيل حياتنا ما تستحقه من احتفاء بعفوية مطلقة لا نصطنعها، لأننا عادة لا نلتقي معًا إلا عندما نجتمع لنتناول وجبتي الفطور والعشاء، وأحيانا في فترات متباعدة وقت الغداء، أما بقية ساعات النهار فكل واحد منا سيكون مشغولًا بأعماله واهتماماته، أنا منغمس بعملي في القناة الفضائية، وهي في أعمال الشطف والطبخ والتنظيف في البيت، ومحمد في المدرسة، ولهذا شعرتُ بان ثمَّةَ أمرًا ما كان يدور في بالها، وكانت تصارع نفسها بين أن تبوح به أو تؤجله لوقت آخر، وما كان صعبًا علي أن أستشف ذلك، فالعشرة الطويلة التي جمعتنا تكفلت برفع الحواجز التي كانت تفصل بيننا، وأصبح كل واحد منا يفهم ما يفكر به الآخر من غير أن تكون هناك حاجة لكي يبوح به، فالنظرة العابرة كانت كافية لأن تفكَّ شفرة الإيماءة، لكنها في ذلك اليوم كانت تبدو مغلفة بغلالة سميكة من الحيرة جعلتها عاجزة عن الانسياق وراء عفويتها، وقبل أن أسالها استدارت ناحيتي وطلبت مني بأن أحلِق لها شعرها بماكنة الحلاقة وبدرجة صفر مثل حلاقة الجنود المستجدين، ولأني كنت على معرفة مسبقة بمجيء مثل هذه اللحظة، لذا كنت مستعدًا لها أكثر منها، ولهذا لم أسالها لماذا، واكتفيت فقط بأن أجبتها بكلمة "حاضر" ولمْ أزد عليها كلمة أخرى، خاصة وأنني انتبهت إلى أنها كانت تبدو مثل شجرة كسرتها ريح عاتية فمالت بجذعها ولامست أغصانُها التي ما زالت يانعة الأرضَ، فما كان مني إلا أن ألتزم الصمت في محاولة منّي أن يبدو تصرفي طبيعيًا، كما لو أن لا شيء يدعوني إلى التعجب، لأني كنت مقتنعًا في ما إذا حاولت أن أواسيها في تلك اللحظة فإن من الممكن أن أدفعها إلى حافة الانهيار والسقوط في نوبة من البكاء، وهذا ما قد يفجر فيها ألمَاً دفينًا كانت تسعى طيلة الأيام الماضية إلى تجاهله والتهرب منه لعلها بذلك تتغلب عليه، سواء كان ذلك بالصلاة أو التسلح بالشجاعة أو الإيمان

بما كتبه الله لها، وربما يتسبب ذلك أيضا في تدهور حالتها الصحية، لأن دكتور جمال غفوري كان قد أوصاني بضرورة أن نجنبها أي مؤثرات قد تسبب لها الحزن أو الغضب، ويتوجب علينا إبعادها عن أية أجواء قد تولّد في داخلها انفعالات سلبية، لأنها كفيلة بأن تمنح السرطان فرصة أن ينتعش مرة ثانية ويبدأ في التمدد من جديد، فليس مثل الحزن ما يمهد الطريق لخيانة جسد الإنسان المريض والمساهمة في تدميره خاصة في مثل حالتها، ولهذا كنت شديد الحذر عندما طلبتْ مني أن أحلق شعرها، فتعاملت مع الموضوع باعتباره مسالة طبيعية، لا تستدعي الاستفسار أو المناقشة، وكأنني لم أسمع أمرًا مهمًّا يدعوني إلى التوقف عنده.

بعد مضي نصف ساعة كانت بيدها مرآة صغيرة وهي جالسة على كرسي وسط صالة الاستراحة في البيت، بينما كنت أمسك بيدي ماكنة حلاقة كهربائية، وما أن بدأت في تشغيلها والبدء بتحريكها عند أسفل مؤخرة رأسها حتى طلبت مني أن أحلقه تدريجيًا وعلى مراحل وليس دفعة واحدة، لأنها لا تستطيع تحمل رؤية نفسها فجأة وقد تحولت إلى قرعاء.

تراكمت خصلات شعرها بلونه الكستنائي على الأرض، وكأنها كانت تعكس سنوات حياتنا المشتركة التي عشناها معًا لمدة اثنين وعشرين عامًا وكانت مشاعر الحب والألفة والاحترام قد منحتها نكهتها وحلاوتها التي جعلتنا لانسقط في دائرة التذمر مما كان يصادفنا في حياتنا من عوز ومشقات وصعوبات في العيش، فكانت المحبة بمثابة الترياق لمواجهة السموم التي ترغمنا الدنيا على تجرعها حتى نستمر في البقاء، ولولاها لما صمدت حياتنا الزوجية كل تلك السنين، دون أن يعكرها شيء سوى خلافات صغيرة عادة ما تنشأ بين أي زوجين بينهما تفاهم كبير، وسرعان ما تنتهي بعد لحظات وكأن شيئا لم يكن، بفعل السحر الذي يمارسه الحب على عقول المحبين قبل عواطفهم، حتى إنه يدفعهم إلى أن لا يجدوا في الاعتذار لبعضهما تنازلًا أو إهانة للكرامة الشخصية إذا ما أخطأ أحدهما بحق الآخر في لحظة غضب، فالرجل يبقى رجلًا في مكانته وحضور هيبته وشخصيته والمراة تبقى محتفظة بأنوثتها وجمالها وآدميتها وكرامتها، ولن

يحدث أي خدش في روح وجوهر علاقتهما، وبدافع الحب أيضا لا يضعان في اعتبارهما أن تخرج أي خلافات قد تحصل بينهما خارج حدود السقف الذي يجمعها، فلا الأهل ولا الأقارب ولا الأصدقاء يمكنهم أن يلعبوا دورًا في حياتهما أكثر من الدور الذي يلعبانه في الحفاظ على حياتهما الزوجية، لأن الحب ولوحده يمنحهما طاقة لا حدود لها تجعلهما يستوعبان بعضهما في شتى الأزمات النفسية التي قد يمر بها أحدهما.

كان ولدي محمد يجلس على الكنبة وهو يراقب المشهد ولم يكن مستوعبا أن يرى أمه تفقد شعرها نهائيًا، وأن تظهر على غير الصورة التي عرفها بها، ولهذا وجدته منزويًا في مكانه يراقب ما يجري أمامه محاولًا استيعابه ولم يكن يبدو عليه أنه كان مرتاحا.

"يا أمي، لماذا هذا الاستعجال، لربما العلاج الكيميائي لن يؤثر على تساقطه؟".

"لستُ مستعجلة، إنما أريد له أن ينمو بشكل متساوٍ.. لأنه صباح هذا اليوم تساقطت الكثير من الخصلات في الحمّام".

ثم أتى بحركة طريفة بأن غطى وجهه بكفه رغبة منه في عدم رؤيتها وهي تبدو على هيئتها الجديدة.

بالنسبة لي وجدتها في شكلها الجديد تبدو جميلة جدًّا، لأنني أحب شعر المرأة عندما يكون قصيرًا، وكنت قد طلبت منها مرارًا أن تغير من تسريحة شعرها الذي كانت تحرص دائمًا على أن يكون طويلًا.

"صدقيني، أنت الآن بهذه الشكل تبدين أجمل بكثير مما كنت عليه".

"أنت تجاملني وتحاول أن تخفف عني بهذا الكلام ".

بدت متأثرة من شكلها الجديد، بينما كانت تنظر في المرآة الكبيرة المعلقة على الجدار فوق المغسلة إلى رأسها الحليق تمامًا من الشعر، ثم مرَّرَت كفها على فروة رأسها أكثر من مرة تتحسس شعرها الذي اختفى نهائيًا.

"أنتِ الآن تشبهين المطربة الفلسطينية ريم البنّا التي أصيبت هي الأخرى بهذا المرض، فما كان منها إلا أن حلقت شعرها كما أنت الآن، وظهرت على شاشة التلفاز في عدد من اللقاءات والثقة تملأ نفسها".

"أنا أعلم بأنك تحاول أن ترفع من معنوياتي ".

"أبدًا، هذا الكلام ليس من باب المجاملة ورفع المعنويات، لأنك تذكرين جيدًا بأنني كنت دائمًا أعبر لك عن عدم إعجابي بالشعر الطويل، ودائما ماكنت أقول لك بأنه يذكرني بشعر الغجريات اللواتي يظهرن على شاشة التلفزيون وهن يرقصن متباهيات بشعرهن ".

أذكر أنني وبينما كنت أحلق شعرها، انتبهت إلى أنها أصبحت تشبه والدها كثيرًا، حتى إن إحدى شقيقاتها عندما اتصلت بها في صباح اليوم التالي عبر الهاتف من الموصل ومن خلال خدمة الماسنجر الفديوية قالت لها: "أنت الآن تشبهين بابا كثيرًا ".

لم أستغرق وقتًا في التفكير عندما وقفتُ أمام المرآة ونظرت لثواني معدودة إلى صورتي المنعكسة عليها، ثم شغلت الماكنة وبدأت بحلاقة شعري حتى بانت جلدة رأسي، بينما كانت الدهشة تعلو وجه ابني وهو ينادي علي "لماذا؟"، أما هي فما كان منها إلا أن تمسح دمعة بكفها كانت قد انزلقت على خدها، ثم تقدمت نحوي وأمسكت بكفي ورفعتها إلى الأعلى وقبلتها.

بعد يومين اعتادت على شكلها الجديد، وصارت تتحرك في البيت من غير أن تذهب إلى المرآة لتنظر إلى رأسها كما كانت تفعل في أول يوم.

انتهى شهر رمضان وحلَّ عيد الفطر، وكان صباح اليوم الأول منه مشمسا كبقية أيام الصيف في العراق، مع ارتفاع كبير في درجة الحرارة وصلت إلى ما فوق الأربعين، واجتمعنا ثلاثتنا عند مائدة الفطور الصباحي، وكانت تبدو صحتها طبيعية وما من شيء يدل على أنها ستنتكس بعد الساعة الثالثة من عصر ذلك اليوم، حيث بدأت تشعر بالبرد الشديد وجسدها يرتعش أثناء ما كنا جالسين أمام شاشة التلفزيون.

كان من المفروض أن تتناول الجرعة الثانية في الليلة التي تسبق العيد، لكن الدكتور لقمان كان قد أجَّل تناولها إلى ما بعد العيد على اعتبار أن لا أحد من الأطباء سيتواجد في المستشفى ابتداءً من ليلة العيد وحتى نهايته، لذلك كنت أخشى أن يكون سبب تراجع وضعها الصحي نتيجة التأخر عن موعد تناول الجرعة، والمفارقة أن حرارتها كانت مرتفعة لكنها كانت تشعر بالبرد، طلبت منها أن تدخل إلى غرفتها وتتمدد على السرير، وبدأ محمد يضع كمادات على جبهتها حتى تنخفض درجة حرارتها التي بقيت مرتفعة حتى ساعة نومها في تمام العاشرة ليلًا.

"أبي لم لا تأخذها إلى الطبيب؟"

"كان بودي أن آخذها، لكن لا أحد من الأطباء موجود في عيادته إلى أن ينتهي عيد الفطر".

ما كان مني إلا أن أستسلم للأمر الواقع، لذا عدت إلى غرفتي وعاودت قراءة كتاب "قيام وسقوط الرايخ الثالث ونهاية دكتاتور" الذي كنت قد بدأت بقراءته قبل عدة أسابيع لكنني لم أستطع أن أنتهي منه بسبب انشغالي بمتابعة حالة زوجتي المرضية ما بين البيت والمستشفى.

16

خياراتنا محدودة

كان عليَّ أن أكون شديدًا مع نفسي فلا أنهَدِن بسهولة، ولا بدَّ أن أتحمل ما أتجشمه من مشاق دون أن أتيح للآخرين أن يشعروا بذلك، وأظنني قد أفلحت إلى حد كبير في أن أحجب عنهم ما يدخل في باب الأمور ذات الخصوصية الشخصية، والتي لا شأن لهم بها ولا ينبغي أن يطلعوا عليها، مهما كانت بسيطة، وهكذا كنت أحتوي ذاتي بذاتي، بطوق من الكتمان، قاطعًا بينها وبين الآخرين بمسافة، لكنني لم أكن أتخيّل أبدًا أن تصطبغ حياتي برائحة المستشفيات وأن تنغرس أقدامي بين ممرات عيادات الأطباء والمختبرات وغرف الأشعة، مدفوعًا بمزيج من العواطف التي أزاحت بقوتها تلك المسافة بيني وبين الآخر، وهذا ما لم أكن أتوقعه أن يكون على تلك الصورة من التسامي، وما يستدعي الغرابة أنني وجدت نفسي مبتعدًا عن حالة النفور التي لطالما لازمتني إزاء الأماكن التي يتواجد فيها المرضى، وأصبحت موقِنًا أن ضرورات الحياة تفرض على الإنسان في أغلب الأحيان أن يغيّر من قناعاته، وبدَا ذلك بالنسبة لي بمثابة قانون أزلي يسري عليه مثل دورة الليل والنهار، ولا يستطيع الإفلات منه مهما حاول، فالخيارات بقدر ما تبدو أمامه كثيرة لكنه بالتالي سيكتشف أنها محدودة جدًّا، وعليه أن يتعامل معها ويكيِّف حياته وفق هذا المسار المرسوم لها، فالمدى الواسع الذي كان يضعه نصب عينيه في المراحل الأولى من شبابه يأخذ بالتضاؤل يومًا بعد آخر، وتتحول تصوراته الجامحة إلى أفكار واقعية تتأقلم مع ما هو متاح وملموس، وهذا ما سيعمق من إحساسه بمذاق الحياة، بالتالي سيزيد من ارتباطه بها، وبقدر ما يشكل هذا التغيير تقاطعًا مع ما كان يضعه في جعبته من أحلام، إلاّ أنه يحيله إلى مرحلة من النضج، تجعله يعرف حقيقة قدراته وما يمكن أن يحققه من دور في هذه الحياة، فالشعور بالنصر والإنجاز يتحقق عندما يصنع الإنسان من اللاشيء شيئا، وبذلك

يكون قد اختبر ذكاءه وقدراته بما هو متاح ورسم لنفسه طريقا من النجاح في ما لم يكن ممكنًا تحقيقه.

ربما كان من العسير علي أن أتقبل فكرة حلاقة رأسي بالصورة التي ابدو فيها مثل الجنود المستجدين في صفوف الخدمة العسكرية، ودائما ما كنت أعتبر من يلجأ إلى ذلك، عادة ما يكون شخصا مشغولا في العمل، ولا يعير أهمية لشكله ومظهره أمام المجتمع، خاصة إذا كان عمله بلا صلة تجمعه مع الصحافة أو الفن أو الأدب لأن من يعمل في هذه الحقول عادة ما يرتفع منسوب النرجسية لديه، ودائما ما يعشق أن يرى صورته بارزة في كل شيء ينجزه، بغض النظر عن قيمته من وجهة نظر الآخرين مع أنه حتى يستميلهم إليه يتفنن في استعراض نفسه، بينما الأمر يبدو معكوسا لدى غالبية البشر المنغمسين في الكفاح من أجل تدبير لقمة العيش لهم ولأطفالهم فمثل هؤلاء فإن آخر ما يمكن أن يفكروا به هو أن يستعرضوا مظهرهم مع ما ينجزونه من أعمال لأنه ليس من ضمن أولويات اهتماماتهم، وأنا بطبيعة الحال بحكم مهنتي وعملي في مجال إنتاج البرامج التلفزيونية والإعلام سأكون ممن يهتمون بمظهرهم بقدر ما يتطلب عملي، لكن هذه الفكرة غابت عني ولم تعد تعني شيئا لي، عندما نظرت صباح اليوم الثاني من عيد الفطر إلى شكلي في المرآة، وكانت جلدة رأسي تلمع تحت ضوء النهار، وكأنني كنت على تلك الصورة منذ فترة طويلة، خاصة بعد أن وجدتُ زوجتي تغادر حالة الحزن التي كانت قد تلبستها أثناء ما كنتُ منشغلا بحلاقة شعرها في الليلة الفائتة، وما أن أصبحتُ أقرعا لم تعد تجد نفسها في وضع مختلف عنّي، بعد أن تشاركتُ معها التجربة، حينها شَعَرتْ بالاطمئنان مِنأنها لم تعد وحدها، وأن هناك من يشاركها ويقف معها ويسندها، فلا شيء يعادل قسوة الشعور بالوحدة إذا ما سيطر على الإنسان، فمن الممكن أن يحيله إلى مخلوق يشعر كما لو أنه يعاني من جرح عميق في روحه ومن الصعب أن يندمل، وغالبًا ما تقتحمهُ هواجس وخيالات متشابكة تمنع عنه طريق الحكمة في التفكير، لأنه دائما ما يشعر وكأنه يحارب ولوحده في معركة، ولا أحد يقف إلى جانبه، فتزداد الهوّة بينه وبين العالم الذي يحيطه، وأنا شخصيا مررت بهذا الشعور، وأستطيع أن أؤَكد بأنه كان

ملازمًا لي لفترة طويلة من حياتي، لكنه بدأ ينحسر وهانت حدته بعد أن وجدت في حياتي الزوجية كيانًا انسانيا يحتويني بكل ما يسكنني من شعور بالوحدة والاغتراب لم أكن أستطيع الخلاص منه، وإليها أعزي مسؤولية هذا التحول، لأنها بطبيعتها الفطرية تحمل بذاتها تصالحًا مع نفسها ومع الحياة مهما بدت صروفها كثيفة السواد في بعض الأحايين وهذا ما كنت أفتقده وأسعى للتقارب منه، فكانت مرآتي التي أرى فيها حقيقتي الداخلية بوضوح شديد، بكل ما فيها من ضعف وقوة وقتامة وبراءة وقسوة ووهن وسذاجة، ومن هنا بدأتُ معركتي مع نفسي، للخروج بها إلى حيث تتنفس الهواء وتشم عطر الحياة وترى ما لم تكن تراه من جمال في الآخرين، ولهذا ظفرتُ بسعادة داخلية عندما رأيتها برأسها الحليق وهي تبتسم، وكان ذلك أشبه بسماع صوت فيروز في ذلك الصباح المشمس من يوم الخميس المصادف في السابع من شهر تموز 2016 بينما كنا قد عزمنا على أن نذهب إلى مستشفى ويلفر في منطقة بختياري، لغرض سحب ما تجمع خلال أسبوع من السائل اللمفاوي في منطقة الصدر، وبات يشكل ثقلًا عليها، فيعيق حركة يدها اليسرى، إضافة إلى ما كان يسببه لها من ألم لا تستطيع تحمله.

اتصلت في تمام الساعة الثانية والنصف من بعد الظهر باستعلامات المستشفى لأجل أن يحددوا لي موعدًا مع الطبيب محمد علي الذي سيتولى عملية سحب السائل، لأن دكتور جمال غفوري وقبل أن يسافر إلى لندن في أول يوم من رمضان لقضاء إجازته مع عائلته التي تقيم هناك، كان قد أوصاه بأن ينوب عنه في هذه المهمة، باعتباره أحد طلبته، فأبلغني موظف الاستعلامات بالحضور إلى المستشفى في تمام الساعة الثالثة والنصف عصرًا، أي بعد ساعة من إجراء المكالمة.

أمست قواها البدنية واهنة خلال الأيام الماضية، وبدَا واضحًا أنها كانت تمرُّ في مرحلة صحية غير مطمئنة، حتى إنها أخبرتني بأنها غير قادرة على أن تتحمل السير من باب البيت إلى الشارع الرئيس حيث سنستأجر تاكسي، رغم أنها مسافة قصيرة لا تزيد عن مائة متر، ومما ضاعف من حالتها تلك

أن درجات الحرارة كانت مرتفعة جدًّا، ولهذا طلبت منها أن تنتظر حتى أذهب لأستأجر سيارة وآتي بها إلى البيت ومن ثم نذهب إلى المستشفى .

بدت الشوارع خالية تمامًا من السيارات والمارَّة في تلك الظهيرة التموزية القائظة والتي يمكن أن تُشَّم فيها رائحة حرائق، نظرًا لسخونة الهواء الذي كان يلفح وجهي قبل أن يطلب مني السائق أن أغلق النافذة حتى استقبل الهواء البارد الذي بدأ يهب من جهاز التبريد الخاص بها، ولمَّا وصلنا إلى مبنى المستشفى في منطقة بختياري كان الهدوء أيضا مخيّماً على صالة الانتظار التي كانت تخلو تمامًا من المراجعين، ولم نجد سوى موظف الاستعلامات جالسًا لوحده وهو يلهو بهاتفه الشخصي، وعلى ما يبدو أنه كان يتبادل التهاني مع أصدقائه ومعارفه بمناسبة العيد.

خلال فترة الانتظار كنت أحاول بيني وبن نفسي أن أجد مبررًا يدفع الإنسان إلى أن لا يصل مرحلة الجزع من الحياة، بعد أن يجد العيش فيها مثل من يقطع دهرًا من عمره في رحلة محفوفة بالمتاعب والمشقات لاكتشاف أماكن جديدة، لكنه وفي لحظة ما يكتشف بأن حاله يشبه حال ذاك السجين الذي كان يتحرك طوال فترة سجنه في مساحة ضيقة ولم يتمكن من توسيعها مهما شطح به خياله بعيدًا عنها، فما هي حقيقة هذه العلاقة التي ترغمه بأن يتعالى على جراحه ويبقى صامدًا، مع أنه سيصل إلى نتيجة واحدة؟.. لماذا هذا الهيام بالحياة مع أننا سنغادرها دون أن نحتفظ بذاكرتنا؟.. وما جدوى أن نرتبط بأشياء وأماكن وأشخاص إذا كانت ستغيب عنا في اللحظة التي نصبح فيها في عالم الفناء؟.. أليس الأجدى أن لا تكون لنا علاقة مع كل ما هو خارجنا حتى لا نتألم؟ .. ولماذا ندفع أنفسنا إلى هذا الألم؟.

وصلتُ في تفكيري إلى اللحظة التي بدأت أحسد فيها الحجر والماء والأشجار والهواء والرمال، وكل شيء لا يملك ذاكرة، وبدأت أعتقد بأن الفرح الحقيقي يكمن فيها، لأنه أزلي، ولن يتغير أو يزول، وليس الفرح ما نصطنعه نحن ونقنع أنفسنا به على أنه شعور بالفرح.

هذه الأفكار التي كانت تدور مثل حجر الرحى في رأسي ليس دافعها انني كنت أحاول الهروب من الحال الذي أصبحتُ عليه، بعد أن أيقنت من أن رحلة علاجها ستمتد طويلا وربما ستطحن ما تبقى من سنوات عمري، أبدًا، فهذه العاصفة من الأسئلة دائمًا ما كانت تعاودني خلال مراحل كثيرة من حياتي، ولم أكن أصل فيها إلى إجابات تملأ الفراغ الذي يهجع في روحي، بل على النقيض من ذلك كانت تجربة مرضها بكل ما فيها من تبعات تحتاج مني إلى صبر وحكمة وجلد، بالتالي دفعتني إلى أن أُنحِّي جانبًا كل الأفكار التي كنت أتناغم معها لأنها كانت تنتظم عند الدروب المعتمة والنوافذ المغلقة.

انتظرنا خمس عشرة دقيقة إلى أن جاء الطبيب، وكان شابًا متوسط القامة في الثلاثين من عمره، وبلحية سوداء كثة، وبعد أن سلَّم علينا أشار لنا بأن نتبعه ونتجه إلى غرفته في نهاية ممرٍ طويل يبدأ من صالة الانتظار، وأخبرنا بلغة عربية سليمة ونحن نسير خلفه بأنه قد حضر من البيت خصيصًا لأجلنا، رغم أنه كان يستمتع بإجازة العيد، ولفتت انتباهنا سلامة لغته العربية بدرجة كبيرة رغم أنه كوردي، وهذا مما زاد إعجابنا به، لأنه على الأقل أفضل منا لأننا لم نكن نتقن الحديث باللغة الكوردية، ثم استدرك قائلا: "أرجو أن لا تفهماني بشكل خاطئ، فأنا أدين بالفضل لأستاذي الدكتور جمال، كما أنني أعتبر مجيئي في مثل هذه الساعة جزءًا من مسؤوليتي المهنية والإنسانية "، كان واضحًا بالنسبة لي أن ما دفعه إلى أن يقول ذلك خشيته من أننا لربما قد فهمنا كلامه على غير ما كان يقصد، لذا أراد أن يؤكد لنا بأنه لم يكن يعني أبدًا أن يجعلنا نشعر بفضله علينا، ومن جانبنا عبَّرنا له عن شكرنا وتقديرنا لموقفه، وقدمنا له التهنئة بمناسبة العيد، وكان من السهولة لمن يراه أن يدرك مدى الالتزام الديني في سلوكه، وهذا ما كانت تشير إليه تلك العلامة في وسط جبهته، بملمسها الخشن ولونها الداكن والتي عادة ما تبرز لدى المصلين الذين يكثرون من السجود.. وبعد أن هيَّأ السرنجة، طلب منها أن تستلقي على السرير، وبدأ في عملية سحب السائل اللمفاوي، وانتبهتُ إلى أنها هذه المرة كانت تشعر بألم شديد لم يسبق أن بدَا عليها عندما كان دكتور جمال غفوري يتولى عملية السحب في

عيادته في الأسابيع الماضية قبل سفره، فَعَمَدَت على أن تكتم صرخاتها بأن أدخلت قبضة كفها الأيمن في داخل فمها، وبدأت تضغط عليها بأسنانها، في جميع المرات التي كان يغرز فيها الإبرة بصدرها، ومن ثم يبدأ بسحب السائل ومن بعدها يفرغه في المغسلة، في تلك اللحظات حاولت أن أطوّق سمعي بعوازل وهمية من الأصوات التي حاولت أن أتخيلها حتى أبتعد عن الوجود المادي المحيط بي، لأنني لم أعد أحتمل ما كانت تشعر به من ألم، خاصة وأن قوتها البدنية قد ذبلت بشكل كبير، بعد أن تناقص وزنها بما يزيد عن عشرة كغم خلال شهر واحد فقط، ولمَّا لم أفلح في أن أرتحل بمخيلتي عن محيط الغرفة، اضطررت إلى أن اضع سماعة الهاتف في أذنيَّ وأبدَأُ بتشغيل مقطوعة للموسيقار المصري ياسر عبد الرحمن من ضمن مجموعة قطع موسيقية كنت قد خزنتها في هاتفي، لكنني شعرت بضميري يؤنبني لأنني تركتها لوحدها تعاني، ولم أشاركها تلك اللحظات التي كانت تتقلص فيها عضلات فكيها كلما كانت الإبرة تنغرس في مكان العملية، فما كان مني إلا أن رفعتُ السماعتين عن أذنيَّ، وأعدتهما إلى جيبي في البنطال من بعد أن أطفأت الهاتف.

"عفوًا دكتور، متى يمكن أن ينشف السائل اللمفاوي، فقد مضى أكثر من شهر على إجراء العملية وما زال يتجمع ما أن يمضي يومان على سحبه؟"، كنت أتوخى بسؤالي أن أصل إلى إجابة تدعني أتأمل أن ينتهي هذا العذاب الذي كان يحصد أسبوعيا ما تبقى لديها من لياقة بدنية.

"هذا يتبع حالة جسم المريض من حيث البدانة وعوامل أخرى، وهنالك حالات ينشف فيها السائل بعد عمليتي سحب".

أجابني الطبيب أثناء ما كان منشغلًا بعمله، إذ لم يكن قد انتهى بعد، ثم استدرك قائلا: "عندما يعود الطبيب جمال غفوري بعد العيد، ينبغي أن تراجعوه في عيادته وتسألاه حول ذلك، لأنه هو من أجرى العملية وأعرَفُ من غيره بحالتها".

"هل يمكن أن أتناول مضادات حيوية لتخفيف درجات الحرارة لأن حرارتي ما زالت مرتفعة منذ يوم أمس"، سَألتْهُ بينما كانت تحاول أن تستعدل بجذعها قبل أن تتهيأ للنزول.

"لا بأس أن تتناولي أربع كبسولات، فليس هنالك من ضرر"، أجابها الطبيب بينما كان يقذف بالسرنجة في سلة المهملات، ثم أخذ ينزع عن يديه كفين من النايلون، واتجه إلى المغسلة وفتح صنبور الماء وبدأ في تطهير وغسل يديه بمادة معقمة.

بدا عليها التعب واضحًا عندما اعتدلت بجسمها على السرير وأنزلت قدميها على الأرض ثم انتعلت حذائها أما الطبيب فقد رفض أن يأخذ أجرته، وأصرَّ على أنها هديته لنا بمناسبة العيد، فشكرناه وغادرنا مبنى المستشفى.

ارتأينا أن نعبر الشارع باتجاه الرصيف المقابل حيث دخلنا سوبر ماركت وتبضعنا سلعا غذائية ضرورية، لأن معظم الأسواق كانت مقفلة في المنطقة التي نسكنها، ثم عدنا إلى البيت بعد أن استقلينا سيارة أجرة.

17

لغةٌ مُلغَّزة عبر الهاتف

لم تكن الاتصالات عبر الموبايل مؤمَّنة بشكل متواصل مع الأهل في مدينة الموصل، وهذا ما أسقطنا في شرك أفكار مختلطة كانت تتناوب علينا فتصيبنا بالعطب، لأننا كنا نعجز عن معرفة ما كان يدركهم خلف استار عزلتهم، وباتت المكالمة الهاتفية بمثابة دخول غير آمن إلى منطقة محفوفة بالمخاطر، وإذا ما كان هنالك أي شخص يجد نفسه مرغمًا على إجراء اتصال، فلا بدَّ له أن يكون مرِنًا فيتواطأ مع قاموس جديد من المفردات الملساء الخاصة التي ينبغي عليه أن يبتكرها، كما لو أنها دائرة مغلقة من الشفرات اللغوية، لكي تنزلق الكلمة بسهولة، وتعبر الحواجز المنصوبة عبر شبكة الأثير، فلا تلتقط محتواها آذان الوشاة العابسين بوجه الحياة، ولا تقع في فخ تقاريرهم التكفيرية، وبإمكان تلك المفردات أن تعيد تنظيم معاني أفكار المتصلين في ما بينهم ولوحدهم، حتى لا تفضي بدلالاتها بشكل مباشر لكل من يسمعها إلا من كان معنيًا بها على الطرف الآخر، فالحديث لا بدَّ له أن يبدو غير مترابط، حتى لا يمنح الفرصة لمن يتلصص عليه أن يمسك بالكلمات المحذوفة قصدًا من بين الجُمل، ويصطاد معانيها، ولهذا كنا نتحاشى أنا وهي أن نجري أي اتصال مع أهالينا في الموصل إلا عند الضرورة القصوى، مع أن دواخلنا كانت تصطخب فيها الأفكار والهواجس، لأننا كنا نتابع الأخبار ونستشعر ما سيحدث إذا ما أعلنت ساعة الصفر وأستُنفِر الرصاص.

بقيت مكالماتنا تكتب سيرتها الملغزة على فترات متباعدة من الزمن، ولم نكن ندفع أنفسنا إليها إلا عندما يلسعنا الشوق إلى الأهل والأصدقاء والأحبة خاصة من جانبها هي، لأنها كانت بأمَسِّ الحاجة في بعض الأحيان إلى أن تطوّح ما كان يعصف بها من لحظات كانت تقترب بها عند حافة الإحساس بالوهن، وعلى الرغم من صعوبة المهمة لدى عامة الناس وعلى وجه الخصوص البسطاء منهم، ممن لا يتقنون فنون التورية، إلا أن القسوة التي

كانت مسلطة عليهم استفزت فطرتهم، وأيقظت فيهم ما كانوا بحاجة إليه من فطنة للتحايل على سلطة الموت التي كانت تتنصت عليهم، وغالبًا ما كانت المكالمات تجرى خلال فترات متباعدة، حتى لا تستقر الأصوات في ذاكرة من كان يرصدها، ويضعها بالتالي تحت مقياس نصوصه الفقهية بكل مراوغاتها، فكان هذا الأسلوب الذي لجأ إليه القابعون تحت سماء مزججة بالحِراب نوعًا من المخاتلة، وكان لا بدَّ لهم أن يخضِعوا حذاقتهم لها حتى يتجنبوا الوقوع في دائرة الرصد الدائم، فالمهم أن لا يكونوا داخل إطار الصورة التي كان يرسمها رجال الرعب بعد أن سيطرُوا على الأثير واصبح خاضعا لهم و لمزاجهم، فاشتدت مراقبتهم لشبكات الهاتف، حتى إن الأحاديث فقدت طعمها وحرارتها، ولم تعد تحمل مواعيد النداوة والانبساط، ولهذا كان علينا نحن أيضا أن نخاتل بالغموض لنخفي ما نود أن نبوح به في لعبة نحاكي بها الطلاسم والحزورات، حتى أصبح الاتصال يشكل بالنسبة لنا هاجسًا مرعبًا يصيبنا بالشلل قبل أن نتفوه بأي جملة، فالآذان المفتوحة خلف الجدران، دفعتنا إلى أن نكون في حالة من الحذر الشديد مع كل مفردة نلتمس استعمالها أثناء حديثنا مع أهالينا، وكانت عقوبة الإعدام تنتظر من يُشتبه بإجرائه اتصالًا خارجيًّا يشمُّ من خلاله أنه كان يسرِّب معلومات عما يجري في الداخل للعالم الكافر في الخارج، وهذا ما أشاع مناخًا من الرعب، فعمد الجميع إلى أن يكتم مشاعره وأفكاره حتى التي ليس لها علاقة بالسياسة، خشية أن يتم تأويل دلالاتها والأخذ بها إلى غير مقاصدها وبالتالي تنتهي حياتهم بالموت، ذاك الزمن الذي كان مثل شجرة يابسة، وطقسهُ مختنقا بروائح الوشاية، بات الهواء فيه مسمَّما بالخوف والهلع.

إزاء ذلك أخذت المكالمات بينها وبين أهلها إذا ما تمَّت تُختَصَرُ بأقل قدر من الوقت والكلمات، وما كان ممكنًا أن يتوسع الحديث إلى ما يخطر بعفوية على البال، ولم يكن يتعدى حدود السؤال عن الصحة والأحوال الشخصية، فالجميع كانوا يراقبون أنفسهم ويضبطون لسانهم بدقة وحرص بالغين كما هي حركة عقارب الساعة، حتى لا يسترسلوا في الكلام ويقعوا في المحذور، لذا أصبحت المفردات أشبه بألغازٍ تحمل في داخلها معان يصعب

البوح بها، لكنها كانت تصل بطريقة غير مباشرة للشخص المعني بالاتصال.

ومن ناحيتي كنت قد عاهدت نفسي على أن أطلعهم على حالتها في كل مرحلة من مراحل العلاج، طالما أنهم غير قادرين على أن يكونوا إلى جانبها، خاصة والدها الذي كان يحمل عاطفة قوية تجاه أولاده وبناته، ولهذا كنت قد أرسلتُ لهم مجموعة من صورها التي التقطتها لها منذ الأيام الأولى لإصابتها، مرورًا بكل التحولات التي شهدتها حالتها المرضية، وحتى تلك الصور التي كنا نظهر فيها ونحن نجلس في مطعم نأكل التبولة والشاورما في شارع الحمرا أو عند ساحل البحر بمواجهة صخرة الروشة في بيروت، لأنني أردت أن يكونوا على علم بكل التفاصيل.

في ثاني أيام عيد الفطر وبينما كان جميع أفراد أهلها من الأبناء والبنات والأحفاد مجتمعين في بيت العائلة فتحتُ كامرة الفيديو بيننا، ولم أكن أتوقع أن تترك عليهم هيأتها الجديدة بشعرها الحليق ذاك الأثر الصادم، فقد ارتسمت على وجوههم علامات الذهول مما كان قد أصابها من تغييرات طالت حالتها الصحية مثلما هو شكلها الذي تغير كثيرًا، وبقي الجميع لثوانٍ معدودة يغلفهم الصمت، وكانوا في حالة أشبه بمن لم يكن يصدق ما يراه بأم عينه، وعبَّرت نظراتهم عن الذي كان يدور في داخلهم من سعي حثيث لاختراق شاشة الهاتف واختزال الزمن والمسافات للبحث عنها بين تلك الملامح التي لم تكن تشبهها، فقد بدت لهم وكأنها ليست هي، بعد أن نال منها الشحوب والهزال بنفس القدر الذي كان رأسها الحليق قد غير من صورتها التي يعرفونها بها، فمن كانت تتحدث اليهم ظهرت أمامهم أكبر عمرًا من عمرها الحقيقي، وملامحها كانت أقرب إلى ملامح امرأة دخلت مرحلة الكهولة، وهذا ما لا يمكن أن تخطئه العين، حتى أن إيقاعها في الحديث كان بطيئًا ولا يعبر عما كانت تتسم به من تدفق وحيوية، ولربما البعض منهم كان يتصور قبل تلك المكالمة أن حالتها ليست على تلك الدرجة من السوء، وإننا كنا في نظرهم نبالغ لاستدرار عطفهم، ولهذا كانت صدمتهم كبيرة، لكنهم وبعد أن استوعبوا الحقيقة الماثلة أمامهم، وأيقنوا

أنها هي وليست غيرها، حاول كل واحد منهم أن يتحاشى التعبير عما كان يعصف به من ألم، وبدأ الجميع يحاول أن يشجعها ويرفع من معنوياتها، وما أذكره جيدًا في تلك المحادثة أنني لاحظت والدها من بين جميع أفراد العائلة كان يجلس متربعًا على الأرض ومستندا بظهره على الكنبة، وكان يبدو عليه سقوطه في دائرة من الكَمَد، ولا أشكُّ أبدًا في أنها كانت تعتصر سنوات عمره التي تجاوزت السبعين عامًا، وحتى الابتسامة الشفيفة التي اصطنعها على شفتيه لم تستطع أن تخفي ما كان ينزُّ في داخله من وجع، ووجدت في دعواته التي توجه بها إلى الله وهو يرفع يديه إلى الأعلى بأن يشفيها تعبيرًا عما كان يحتبس بين أضلعه من شوق لاحتضانها، أما شقيقتها الوسطى فلم تستطع أن تتمالك نفسها، فانخرطت في نوبة بكاء جعلت صوتها يتهدج بينما أخذت تقسم بأغلظ الأيمان لو أنها تستطيع الخروج من الموصل لزحفت على ركبتيها إلى أربيل حتى تتولى رعايتها، لكن ماذا يمكنها أن تفعل وكل الأبواب كانت مقفلة، والخروج من المدينة ما كان ممكنا أبدًا، بعد أن جثم الليل عليهم، وسحب منهم كل خيارات النجاة من المذبحة القادمة.

في تلك الأيام المحشورة في لحظة مبهمة من التاريخ كانت مغامرة الهروب من مدينة الموصل إذا ما فشلت، فسيكون ثمنها فقدان الحياة تحت مقصلة الموت التي كانت منصوبة عند جميع مخارج المدينة، ومع ذلك لم يتردد عدد من سكانها أن يحاولوا النفاذ من بين أسلاك الغموض التي كانت تسوّر ما كان ينتظرهم في قادم الأيام، فغامر الكثير منهم بالدخول إلى الأرض الحرام، فكانت بغداد وأربيل ودهوك والحدود التركية تستدرج حلمهم بالوصول إلى حيث الخلاص من المحرقة القادمة، لكن المخاطر كانت تنتظرهم في تلك الدروب القاحلة التي لم تكن تخطر على بالهم، ومع ذلك كان لا بدَّ من اللحاق بظلال المغامرة والاحتماء بفيئها حتى لو بدت سرابًا، فالمهم بالنسبة لهم هو الوصول إلى عتبة الحرية، حتى وصل ثمن تهريب الشخص الواحد عن طريق مهربين يرتبطون بعلاقات مع عناصر داعش إلى عشرين مليون دينار عراقي، وكانت رحلة الهاربين تستغرق فترة زمنية قد تصل إلى أسبوعين حتى يتمكنوا من الوصول إلى حدود محافظة

دهوك في إقليم كوردستان، وفي ما لو سقطوا بأيدي التنظيم عندها سيتم إعدامهم، وكثيرة هي العوائل التي انتهت حياة أفرادها قبل أن يصلوا إلى ما كانوا ينشدونه، فكان خلاصهم في موتهم.

عادة ما كانت تصاب بالغثيان في اليوم التالي على تناول الجرعة إضافة إلى شعور عام بالانحلال وعدم القدرة على السير والوقوف، لكن ما حدث في منتصف شهر تموز بعد أن تناولت الجرعة الثانية أن الأعراض لم تظهر عليها باستثناء إسهال شديد استنزف قواها البدنية، فكان أمرًا غريبًا عندما مضت ثلاثة أيام ولم تصب بالغثيان رغم ما كانت تعانيه من صداع حاد، وهذا يعني أن هناك مشكلة صحية تستدعي المعاينة، لأن ظهور الأعراض يشير إلى أنها في وضع طبيعي، وأن جرعة الكيميائي قد أتت بمفعولها، والعكس صحيح، ولهذا كان لا بدَّ أن أذهب بها إلى دكتور جمال غفوري في عيادته بمركز ميديا ليكشف عليها، وكما هو متوقع كان الازدحام شديدًا في صالة الانتظار، لهذا اضطررنا للبقاء من الساعة الثالثة عصرًا إلى السابعة مساء حتى حان موعدنا، والحديث عن دكتور جمال لن يكتمل دون التوقف أمام تلك الحفاوة التي كان يستقبل بها مرضاه، فبالإضافة إلى خبرته الكبيرة في مجال اختصاصه التي تراكمت لديه نتيجة عمله لمدة تزيد على الثلاثين عامًا في إنكلترا فهو يمتلك أسلوبًا في التفاعل الإنساني مع المريض، وكان ذلك سببًا رئيسًا في حالة الاطمئنان التي كانت تشعر بها ما أن ينتهي من معاينتها، وبعد أن كشف عليها وسحب منها السائل اللمفاوي كتب لها وصفة فيتامينات حتى تستعيد قواها.

أذكر أنني طيلة تلك الليلة بعد عودتنا من العيادة كنت جالسًا أمام شاشة التلفزيون أتابع القنوات الفضائية التي كانت مشغولة بنقل ما يجري من أحداث سريعة ومتلاحقة في تركيا بعد انقلاب عسكري لم يكتب له النجاح، وعلى الرغم من أن العالم كله كانت أنظاره مشدودة إلى الشاشات وهو يتابع المواجهات العنيفة ما بين الوحدات المتمردة من الجيش التركي وطيف من الشعب المؤيد لأردوغان إلا أن زوجتي لم تكن تعلم بما كان يجري حولها في تلك الساعات لأنها كانت تغط في نوم عميق.

في اليوم التالي تحسنت حالتها واستعادة عافيتها بشكل واضح، حتى إني بعد أن عدت من العمل في الرابعة عصرًا إلى البيت وجدتها تقف وسط صالة الاستقبال وهي تؤدي بعض التمارين الرياضية الخفيفة.

" أنتِ جدًّا مستعجلة على بطولة الدوري "علقتُ مازحًا، فما كان منها إلا أن بدأت تضحك، وكانت ضحكتها قد تركت انطباعًا في داخلي وكأنني سمعت صوتًا لطائر يصدح وهو يحلق في الفضاء، وهذا لأنني ومنذ أن أصابها المرض كنت قد افتقدت فيها الإحساس الطبيعي بالفرح الذي وجدته باديًا عليها في ذلك اليوم، رغم أنني كنت على علم بأنها كانت قد عاودت ممارسة التمارين الرياضية الخفيفة بعد شهر من إجراء العملية الجراحية لكني ولأول مرة أحظى بها وهي تمارسها.

أي زوجين مضت بهما الحياة في دروبها، وهما ينقشان على منعطفاتها الحادة، لحن الوفاء الذي يفيض بعطر ما يحملانه من مشاعر الحب لبعضهما، من الصعب عليهما أن يذعنا بعلاقتهما خلف ما تكدسه الأيام أمامهما من مسافات يعلوها الصقيع، مهما بدت الظروف شديدة عليهما في لحظة ما، فوهج الحب لا ينطفئ حتى أذا ما أصبحت ذاكرة الزمن معطوبة بالأوجاع، ومن ناحيتي كنت أحاول أن لا أدعها تستسلم إلى تلك الأطياف التي كانت تحاول أن تستودع أفكارها ومشاعرها في أعماق يستبد بها الخَوَر، ودائمًا ما كنت أذكِّرُها بأن مرارة التجربة التي تمر بها ليست إلا مجرد عتبة ستعبر منها إلى حيث كنا طيلة ربع قرن نطوف معًا بحكاياتنا بعيدًا عن ضجة العالم، وما هي إلا غمضة عين وسيزول من بعدها هذا الصدأ الذي تراكم فجأة في دفتر ذكرياتنا، فكنتُ حريصًا على أن أستدعي كل إشارة قد تمنحها جرعة أمل، وعندما لمحتها تمارس التمارين الرياضية كانت فرصة حتى أسقي نبتة الحياة فيها بعد أن وجدتها قد أينعت، ولم تكن المكالمة الهاتفية التي أجريتها في نفس ذلك اليوم مع صديقي الشاعر بولص آدم الذي يقيم في النمسا إلا محاولة مني لكي أستحث فيها روح التمسك بالرجاء، لأن ثقتي به كبيرة، وكنت على يقين من أنه يملك ما يكفي من الفهم حتى يعينني على أن لا تنفد طاقتي من التفاؤل، ولأنني كنت واثقًا من

أنه سيُمسك بزمام الحديث إلى الناحية التي كنت أتوخاها منه، بأن يضع يده على الجرح ويرسم أفقا من التيمُّن بما هو قادم، يقصي به أي صدى لأفكار قد تنزلق بها إلى حافة اليأس، فقد سبق له أن مرَّ بتجارب شديدة القسوة قبل أن يغادر العراق عام 1994 ولم تستطع السنوات التي قضاها في سجن أبي غريب منتصف ثمانينات القرن الماضي رغم مراراتها أن تكسر شوكة أحلامه ورجولته، ولهذا عمدت على أن أفتح سماعة الهاتف وأنا أتحدث إليه، لكي تسمع بأذنيها ما سيفيض به عقله من أفكار، خاصة بعد أن درس الفلسفة وعلم الجمال في النمسا، فاستفاض بحديثهَ معي عن تجارب شاهدها هناك تشبه حالتها، ومنها حالة امرأة شابة بغاية الجمال حسب ما وصفها، كانت تسكن بالقرب من بيته في مدينة لينتز، ودائما ما كان يلتقي بها صباحًا ويتبادل معها التحية أثناء ما كانَا ينتظران الحافلة للذهاب إلى العمل، وسبق لها أن مرّت بمرض سرطان الثدي، وأجرت عملية جراحية لإزالة الورم والثدي كاملًا، ثم تساقط شعرها بعد أن بدأت تتلقى العلاج الكيميائي، وقد تفاجأ من شجاعتها التي لم تكن تشير إليها تلك النعومة التي كانت تطغي على إطلالتها الأنثوية الصارخة، عندما وجدها صباح أحد الأيام بكامل أناقتها وهي تقف كعادتها في منطقة انتظار الحافلات، وترد على تحيته بابتسامتها المعهودة بكل إشراقتها، مع أن شعرها الأشقر الطويل الذي كان يتألق مثل الذهب قد سقط نهائيًا، ولم تلجأ إلى تغطية رأسها بقبعة أو طاقية، وعندما استذكر تلك اللحظة قال: لقد غمرني في حينه شعور من يرى فارسًا يقف منتصرًا في الميدان بعد معركة دامية، كما كنا نرى مثل هذا المشهد في الأفلام السينمائية التي كانت تدور أحداثها في زمن الرومان، وبقيت تلك الفتاة تمارس حياتها بشكل طبيعي، وكأن أي تغيير لم يحدث في شكلها وحياتها، مع أنها لم تكن أبدًا على تلك الصورة المتلألئة التي كانت عليها قبل مرضها، لكن ثقتها العالية بنفسها منحتها جمالًا آخر يفوق ما كانت عليه من إطلالة قبل إصابتها، ومضت تشق طريقها في العمل والحياة والعلاج إلى أن تماثلت للشفاء وعادت كما كانت من قبل وأجمل.

18

طبيعتي المُشاكِسة

لا أستطيع أن أنفي عن نفسي طبيعتها المشاكسة التي تعلن عن وجودها فجأة، وكأنَّ لها ردود أفعال خاصة بها، ويصعب عليّ أحيانًا أن أخنع اهتياجها عندما يُرتَكَبُ أمام نظري خطأ عن عَمد، قد يتسبب بضرر شديد للآخرين، وغالبًا ما وجدتني في موقف لا أحسد عليه، بسبب غضبي وإعلان رأيي الصريح دون مواربة، وهذا ما كان يضعني في مواقف متشنجة ضد آخرين، قد أتعرض بسببها إلى مصادمات وتجريح، وأحيانا أشعر بحالة نأي غير معلنة تتشكل ضدي من قبل زملاء ومعارف وحتى أصدقاء، ومع ذلك لم أكف، رغم أنني في كثير من الأحيان أمارس مع نفسي تقريعًا ذاتيًا شديدًا، لأنها كثيرًا ما تركمني بقضايا لا صلة شخصية تجمعني بها، ولكن على ما يبدو فإن الطبع يغلب على التطبع كما يقال، وهذا ما تكرر أيضا أثناء ما كنت منقطعًا عن كل ما حولي ومنغمسًا في رحلة علاجها لتلقي الجرعات الكيميائية.. فقد عزمت منذ زيارتي الأولى للمستشفى على أن ألتقط بعض الصور عن طريق كاميرا الموبايل ولكن بطريقة خفية دون أن أثير انتباه أحد، لأجل أن أدعم بها الموضوع الصحفي الذي كنت أنوي كتابته، بعد أن هالني حجم المعاناة التي كان المرضى يتحملون تبعاتها على صحتهم، بسبب عددهم الكبير وقلة الأسِرَّة المتوفرة لاستقبالهم أثناء تلقيهم الجرعات الكيمائية، فليس أكثر قسوة من مشهد مريض بالسرطان ينتظر أربع أو خمس ساعات حتى يحظى بسرير فارغ يستلقي عليه أثناء ما يتلقى جرعته، وبعضهم رغم تردِّي حالته الصحية، كان مرغمًا على أن يأخذها وهو جالس لثلاث ساعات متواصلة على كرسي دون أن يكون قادرًا على النهوض أو الحركة، وربما يطول به الزمن إلى أكثر من ذلك، بينما تقتضي حساسية الحالة الصحية وحراجتها لهؤلاء المرضى على وجه الخصوص أن يستلقوا على سرير ليكون جسدهم مسترخيًا طيلة الوقت الذي يتلقون فيه الجرعة.

ما حفزني أكثر على تنفيذ الفكرة، أنها في الأسبوع الماضي كادت على وشك أن تجلس على كرسي لتأخذ جرعتها، عندما طرحت عليها أحد الممرضات هذا الخيار بعد أن لفتت انتباهها ووجدتها مرهَقة جدًّا بسبب طول ساعات الانتظار، لكنني رفضت، لأن ذلك قد يتسبب في تدهور حالتها الصحية ولربما تصاب بالدوار وتسقط على الأرض، وكان علي أن أقنعها بأنه ليس أمرًا هيّنا أن تجلس لثلاث ساعات مزروعة على كرسي والكينونة في يدها وأعصابها مشدودة .

بعد يومين على تلقيها للجرعة الثانية كان لا بدَّ أن نتجه صباحًا إلى المستشفى لكي نجري فحصًا لدمها، لمعرفة تطورات حالتها الصحية، وبدأتُ في تنفيذ فكرة التصوير ما أن اقتربنا من الممر الضيق الذي يؤدي إلى غرفة الأطباء، والذي عادة ما يتزاحم فيه عدد كبير من المرضى كان كل واحد منهم ينتظر دوره، ليكشف عليه الطبيب المسؤول عن حالته.

ألزمتُ نفسي بأن أكون على قدر كبير من الحذر حتى لا أثير انتباه أحد ما، ولأجل ذلك كتمتُ خاصية الصوت في تقنية كاميرا الهاتف الذي عادة ما يصدر أثناء عملية الالتقاط.

وبعد أن تأكدتُ من أنها قد دوَّنَت اسمها في السجل الخاص بقائمة المنتظرين للكشف عليهم والذي كان موضوعًا على منضدة حديدية صغيرة يجلس خلفها موظف شاب، ومن ثم اطمأننتُ عليها لأنها حظيت بكرسي أصبح فارغًا بعد أن نهضت عنه إحدى النساء ما أن نودي على اسمها، عندها تخيَّرتُ أن ابتعد حتى نهاية الممر، وجلستُ على ثالث درجة من سلّمٍ حجري يؤدي إلى الطابق الثاني من المبنى، لأنني وجدت في المكان الذي اخترته زاوية متسعة تمكنني وبشكل خفي من التقاط بعض الصور التي تظهر حجم الازدحام، ولكي أبدو للآخرين كما لو أنني أتصفح المواقع في الهاتف، فأنا على عِلم مسبق بأن التصوير ممنوع، وتأكدت من ذلك في زيارتي السابقة قبل شهر عندما لاحظتُ فريق عمل إحدى القنوات التلفزيونية ورغم انتظارهم عند البوابة الخارجية للمستشفى لفترة تزيد عن الساعة رفضت الإدارة أن تسمح لهم بالتصوير.. في لحظة ما شعرت

بحركة جلبت انتباهي كانت قد صدرت عن شاب لم يتجاوز العقد الثالث من عمره، في حينه أومأ لي حدسي بأنه كان يراقبني، فحاولت أن يكون رد فعلي طبيعيًا كما لو أنني كنت مستغرقًا في النظر إلى شاشة الهاتف وقراءة موضوع ما، ولم تمض سوى دقائق معدودة حتى جاءني شخصان من موظفي المستشفى وسألاني إذا ما كنت مريضًا او مرافقًا لمريض، ومن بعدها طلبا مني أن أسلمهما الهاتف، ولأنني كنت حريصًا على أن أتحاشى إثارة أي ضجة أثناء مجادلتي لهما، لذا طلبت منهما أن نذهب إلى غرفة الإدارة وهناك يمكن أن نتفاهم، ولما وصلنا بالقرب من غرفة الإدارة طلب مني أحدهما بأن أسلمه الهاتف وإلا سينادي على الشرطة، ولأنني أدرك جيدا عدم جدوى الحوار في مثل هذه الحالات سلمته إياه وبدأ في عملية البحث عن الصور في استديو الهاتف وأنا أقف إلى جانبه، وما أن عثر عليها حتى أشار على كل صورة بعلامة صح، ثم ضغط على زر المسح لتختفي جميعها، لكنه بقي محتفظًا بالهاتف ورفض أن يسلمني إياه لمّا مددت يدي نحوه، آنذاك أحسست بأن المسألة لم تنتهِ بعد، وأن هناك فصلًا آخر ينتظرني، ولكني لم أستطع تخمينه، ولهذا استنفرتُ فطنتي استعدادًا لكل الاحتمالات غير السارة، فأنت إذا ما وقعت في شرك من يمثلون الدولة، عليك أن تتوقع الأسوأ، لأنك ستكون مضطرًا أن تصمت وتتغاضى عما يمكن أن ينال منك شخصيًا، هكذا تعودنا في منظومة حياتنا أن نخضع لكل ما يمثل السلطة الحكومية، وأن تعبّر ردود أفعالنا عن الخضوع، حتى لو لم نكن مخطئين، لأننا إن لم نفعل ذلك فهذا يعني أننا قد نلقى ألفاظا لا تسرنا، وربما نوضع في موقف محرج لكرامتنا الشخصية، فكيف إذا كنا بحكم الغرباء، آنذاك سنشعر بخوف مضاعف، وربما سنلعن الساعة التي ولِدنا فيها.. وفي محاولة مني للتغطية على ما كنت أشعر به من قلق، ليس إزاء نفسي، إنما تجاه زوجتي إذا ما علِمت بالموقف الذي سقطت فيه، أقدمتُ على إبراز الهوية التي تثبت بأنني عضو عامل في نقابة الصحفيين، ودعمت تلك الحركة التي أشعرتني بشيء من الثقة بجملة حاولت فيها أن أثبط همَّتهما فقلت لهما بأن الصور ليست مهمة بالنسبة لي إذا ما أردت أن أكتب موضوعًا صحفيًا عن المستشفى، ولكي أخفف من حدة الموقف أكدت

لهما بأن ليس لدي أي ملاحظات سلبية على أداء جميع أفراد الطاقم الذي يعمل فيها، ولا أحد يستطيع أن ينكر جهدهم الكبير والمضني في إدارتها، لكني بصدد كتابة موضوع حتى أستعرضه في البرنامج التلفزيوني الذي أقدمه أسبوعيا على شاشة القناة التي أعمل فيها، وهدفي من ذلك أن أثير انتباه السادة المسؤولين الحكوميين حول المشاق التي يتحملها مرضى السرطان في رحلة علاجهم، ومن الضروري أن يزداد الاهتمام بهم وبما تحتاج إليه المستشفى من دعم حتى تستطيع أن تواجه العدد الكبير من المرضى.

وقبل أن أنهي كلامي انهالت الأسئلة عليّ من قبلهما: "من أنت؟ ماذا تعمل؟ أين تسكن؟ من أي مدينة؟ من أي طائفة؟ من أي عشيرة؟"، أحدهما وهو الأصغر سناً، كانت نبرة صوته ترتفع بشكل مزعج أثناء ما كان يوجه الأسئلة، لذا طلبت منه أن يهدأ ولا يرفع صوته، لأن المسألة لا تستوجب ذلك، خاصة وأننا داخل مستشفى، وظننت بأنني سأنهي الجدل لصالحي عندما ثم أعلنت عن رغبتي بمقابلة المدير، لكن إجابة الموظف صاحب الصوت المرتفع أفحمتني، لمّا قال لي بان المدير يعرف كل ما تريد أن تقوله له، وسيكون جوابه بأن طاقة المستشفى الاستيعابية ستكبر بعد أن تنتهي أعمال التطوير والتوسيع بعد شهر، وقبل أن يسلماني الهاتف والهوية حذراني من الإقدام على التصوير مرة أخرى، لأنني سأكون سببًا في حرمان زوجتي من تلقي العلاج في المستشفى.

خرجت إلى الباحة الخارجية وجلست على مصطبة في مقابل حديقة المستشفى لكي أستعيد هدوئي، وبيني وبين نفسي حمدتُ الله بأن الذي جرى لم تكن تعلم به زوجتي، لأنها لو كانت حاضرة في حينه لربما أصابتها انتكاسة صحية بسبب خوفها عليَّ من ردود أفعالي التي لا أستطيع التحكم بها أحيانًا، خاصة إذا ما تعرضتُ إلى موقف يستفز كرامتي الشخصية، وكانت تدور في رأسي فكرة أننا أحيانا نضطر إلى أن نهادن الظروف التي تعبس بوجهنا، ولنا عذرنا في ذلك إذا ما وجدنا أن مسالة الثبات على الموقف أقرب إلى أن تكون تعبيرًا عن الحماقة، لأن أضرارها ستكون

مؤذية لمن نؤثرهم على أنفسنا، ومن الناحية المبدئية أنا لست على استعداد أن أكون سببًا في حرمانها من العلاج تحت أي ظرف، وتساءلت مع نفسي هل سأستطيع أن اتحمّل ما سيواجهني به ضميري من حساب عسير إذا ما كنت مسؤولًا عن أي تطورات سيئة في حالتها الصحية؟.

بقيت لساعة من الزمن مأخوذًا بتلك الدوامة من الأفكار، حتى إنني لم أكن أعي ما كان يدور حولي، وازدادت قناعتي بأن الألم الذي قد نسببه في لحظة ما لشخص نحبه لن يعادله أي ألم آخر، وأن مشاعر الحب التي نرتبط بها مع أناس يشكلون العالم الصغير الذي عادة ما نلجأ إليه ونحن مطمئنين من أننا سنجد فيه ما نبحث عنه من شعور بالأمان والثقة والاطمئنان، هو القيمة الجوهرية الوحيدة في هذه الحياة، وغيره دائمًا ما يخضع لحسابات الربح والخسارة لأنه مبني على المصالح والمنافع المتبادلة، ومن الصعب علينا أن نجد بديلًا عن الإنسان الذي نرتبط معه بعلاقة حب حقيقية، فكيف بعلاقة دامت ربع قرن تحت سقف واحد، فمن المنطقي أنها لم تعد قابلة للمساومة تحت أي ظرف صحي قد تتعرض له، ومهما كانت الأعباء التي سأتحملها بسببها.

بعد أن أنهت الفحص خَرَجت تبحث عني، رغم وضعها الصحي الذي لم يكن يسمح لها أن تبذل أي مجهود عضلي، وكانت تفتش بين جموع المرضى ومرافقيهم الذين كانوا يملؤون ممرات المستشفى، ثم وجدتني جالسًا على المصطبة في الباحة الخارجية، وكان القلق واضحًا على ملامحها، لأنها وحسب ما قالت لي في ما بعد، كانت قد لمحت الموظفَين وهما يتحدثان معي، لكنها لم تستطع أن تلحق بي عندما خرجتُ برفقتهما، لأنها كانت على وشك الدخول إلى غرفة الدكتور لقمان بعد أن نادى باسمها الموظف المسؤول عن تنظيم دخول المرضى.

19

وتيرة ثابتة

لأني أصبحتُ مشدودًا إلى مواعيد ثابتة غيَّرَت أغلب الدروب التي اعتدت السير فيها، ولم يعد ممكنًا فك الارتباط بها إلا إذا تخليتُ عن مسؤوليتي الأخلاقية، كان لزامًا علي أن أتحلى بقدر كبير من التبصُّر، لكي أتمكن من البقاء واقفًا على قدميّ، حتى أتفادى السقوط في كنف السقم، فنحن في آخر المطاف لسنا إلا كُرة تتدحرج كما تشتهي لها الأقدار، مهما كان لدينا من إرادة تدفعنا بغواياتها للهجرة عما نحن فيه من أزمنة نالت الكهولة من جمال تفاصيلها، فالوتيرة التي نسجتها مراحل العلاج في دورة الذهاب والأياب من وإلى المستشفى باتت قانونًا روتينيًّا فرض وجوده على إيقاع حياتنا اليومية أنا وهي، وانتظمت بناء عليه، فمن ناحيتي أصبحتُ على موعد ثابت أسبوعيًا عصر كل يوم خميس، لزيارة دكتور جمال في عيادته بمركز ميديا لسحب السائل اللمفاوي، وكان يتعين عليَّ أيضا أن أذهب معها كل عشرين يومًا إلى مستشفى نانا كلي حتى تتلقى الجرعة الكيمائية، ونظرًا لأن وقتًا طويلًا جدًّا كان ينبغي علي أن أقضيه في المستشفى وأنا جالس على عتبة الانتظار، يبدأ من الساعة الثامنة صباحًا حتى الرابعة عصرًا، لذا هيأت نفسي للتحايل على الزمن الضائع، واجتياز ما قد يصيبني من ملل وأنا أتأرجح ما بين موعد تلقيها للجرعة وموعد انتهائها منها، فما كان مني إلا أن أشتري كرسيًا خفيفًا من النوع الذي يستخدم في السفرات الترويحية بين أحضان الطبيعة، حتى يمكنني طيُّه وحمله بيدي، والجلوس عليه في أي مكان شئت إذا لم أجد مكانًا شاغرًا على المصاطب الخشبية الموزعة في عدة أماكن داخل المستشفى، وكثيرًا ما لجأت إليه، لأن أعداد المرضى والمراجعين كانوا في تزايد مستمر، كما اقتنيتُ شاحنة خارجية للهاتف الجوال حتى أشحن بطاريته ما أن تهبط درجة الشحن إلى مستوى منخفض، لكثرة ما كنت أستخدمه في عملية التصفح والقراءة، فمن غير الممكن بالنسبة لي أن اكتفي بالجلوس والتحديق في الفراغ، أو مراقبة

حركة الداخلين والخارجين، كما كان يفعل أغلب الموجودين لتجاوز الإحساس بالوقت، فغالبًا ما كان يطول بي المقام وأنا انتظر إلى أكثر من ثماني ساعات، بينما أكون فيها تائهًا في نفق طويل من الانتظار إلى أن تنتهي من تلقي جرعتها، وكان ذلك الحال كافيًا أحيانًا لأن يطرد ما تبقى لدي من حكمة ويترك أعصابي وديعة في مرجل يغلي وتتصاعد منه أبخرة الجنون، وأمام تلك اللحظات التي تشبه حالة الجلوس أمام عمل فني صاخب يعج بأصوات متنافرة، كانت الدقائق تمر بي ثقيلة مثل سحابة رمادية اللون، لذا كنت أشتاق إلى طيف اللحظات التي أكون فيها مختليًا بنفسي مع طقوسي اليومية في البيت، وأنا أسقي النباتات والزهور المزروعة في السنادين خارج نافذة غرفتي، أو إلى تلك الساعات التي كنت أحيل فيها الصمت إلى مدن وغابات وحكايات مع كل رواية كنت أقرأها وأمضي خلف سطورها، فلقد حاولتُ أن أحتوي ما كنتُ أشعر به من لا منطقية ما يحدث لي، وما أصرخ به في داخلي من إحساس بالقهر، وكأنني كنت أنفذ عقوبة على خطأ ما اقترفته، وليس هنالك من مدة محددة لانتهائها، ولولا فاعلية البقع المضيئة التي أيقظت فيَّ الوعي بتأثير القراءة المستمرة لبقيت أسيراً خلف قضبان التشاؤم.

حاولت أن أجنّبَ نفسي السقوط في دائرة ما كان ينتابني من شعور بالجزع، وأن لا أقع تحت تأثيره، فتوصلتُ إلى أن الحل للخروج من ذلك الشعور الثقيل بالخواء يكمن في إعادة ضبط الوقت وفقا لما ارتئيه أنا، وكأنني على موعد مهم ويتوجب علي أن لا أتأخر عنه، بالشكل الذي يفرض علي أن أجعل من إيقاع الزمن في داخلي منفلتًا عن إيقاعه البطيء في الواقع، حتى يأخذ مسارًا آخر يتوفر فيه ما يشبه الإحساس بلحظات الاكتشاف التي قد يمر بها الإنسان، وكنت موقنًا من أن ذلك لم يكن ممكنًا إلا من خلال الدخول إلى العوالم التي تأخذني إليها الكلمات والحروف في الكتب التي كنت أحرص على قراءتها عن طريق الهاتف الجوال، ولذا أصبح طقسًا ثابتًا لدي الخروج إلى حديقة المستشفى والجلوس على إحدى المصاطب الخشبية تحت ظل شجرة وارفة، ومن ثم البدء في رحلة البحث عن كتاب أجد فيه متعة من ضمن عشرات الكتب التي كنت قد خزنتها في

ذاكرته بصيغة ملف pdf ، وأحيانًا أقرأ ما كان يُنشر من تقارير سياسية في الصحف العربية، خاصة ما كان يتعلق بتحركات المجتمع الدولي واستعدادات العراق للمعركة القادمة التي ستدور رحاها على أرض الموصل ضد تنظيم الخلافة، فالأخبار بوتيرتها المتسارعة كانت تتناصف معنا لقمة العيش التي نأكلها والأحلام التي تراودنا والكوابيس التي تجثم على صدورنا، أما في الجهة الأخرى البعيدة عنا فقد كان الزمن على الأرض يجري ثقيلًا على أهلنا في الموصل، وأحال حركتهم في أزقتها وشوارعها أشبه بمسيرة عميان في أرض موحلة، بعد أن أصبحوا قابعين تحت سماء تمطر خوفا وهم ينتظرون ساعة الخلاص.

إزاء ارتفاع درجات الحرارة وما كان ينتج عنه من إحساس ذاتي وكأنني عالق في اللا جدوى، استحالت القراءة السبيل الوحيد للقضاء على ذاك الزمن المتكدس في الفراغ، كما أن الالتحام بعوالم خيالية توفرها الكتب كان بالنسبة لي أفضل وسيلة انتشلتني من تفاصيل ذلك المشهد الذي كان يطاردني أينما التفت، لأن منظر الأطفال الصغار المصابين بالسرطان، بدَا بالنسبة لي الأشد قسوة، حتى أنني عجزت تمامًا عن التعايش معه، وكلما رأيت واحدًا منهم شعرت كما لو أن جميع الأشياء أصبح لونها أسودًا قاتمًا، ودائمًا ما كنت أصرخ في داخلي وأنا أتوجه بنظري نحو السماء :

ما معنى هذا الامتحان العسير لهذه الكائنات الجميلة؟

بأي منطق يمكن تبرير الوحشية في إيذاء البراءة؟

كيف للعالم أن يصبح مكانًا آمنًا إذا كان يتحمل وبكل برود هذه الخطايا؟

لم يكن ممكنًا للعقل أن يستريح ويركن إلى ظلال باهتة من التفكير أمام رؤية واحد من أولئك الأطفال، وبيني وبين نفسي كنت أردد: " ينبغي لأدمغتنا أن تتحول إلى حاويات للنفايات إذا كانت قدراتها قد أقتنعت بتلك النتيجة التي وصلت إليها إنسانيتنا.. كل الأشياء التي نلهث وراءها مجرد ترهات.. لسنا سوى مخلوقات بشرية ذئبوية الدوافع".

كانت أجسادهم الواهنة المستسلمة للوجع تشتت أفكاري وتبعثرني إلى أشلاء، فالمشهد كان صادمًا بالنسبة لي، ولم أستطع أن أعتاد عليه طيلة الأشهر التي كنت فيها أحد شخوص ذلك المكان، وكثيرًا ما لفت انتباهها هي ما كان يحصل من تغير في حالتي النفسية ما أن نصادف أي واحد منهم، حيث الصمت يضربني بمعاوله، حتى إنها ما عادت تسالني عن السبب لأنها أدركته بفطنتها، ولكي أتفادى تبعات رؤيتهم كان علي أن أبذل المزيد من الجهد في تحفيز مخيلتي حتى تعمل بنشاط غير اعتيادي للخروج من حالة اليقظة التي كنت فيها والنأي بعيدًا عنها، لكني لم أستطع أن أمحو من ذاكرتي صورهم واحدًا واحدًا، وما زالت تقبع فيها مثل الوشوم، فمن الصعب نسيانهم برؤوسهم الحليقة وأجسامهم النحيلة التي تكاد تفلت منها عظامهم البارزة، ولون بشرتهم الأصفر الشاحب المائل إلى السواد الذي أحالهم إلى كائنات ضعيفة بعد أن مسخ المرض طفولتهم، ومن الممكن لحالتهم تلك أن تدفع أعتى المجرمين إذا ما شاهدوهم إلى أن يشفقوا عليهم، فليس من المنطق ولا من الطبيعة الإنسانية أن لا يتدفق الدم ساخنًا في القلوب المتحجرة حتى إذا ما أجبرت على أن تنظر إليهم، وأستطيع أن أقول بأن رؤيتهم كانت تملأني كراهية على ساسة البلاد، ولولا أنني كنت أدفن رأسي بين حروف الكتب لما استطعت البقاء داخل مبنى المستشفى طيلة فترة الانتظار.

أحيانًا كان النعاس يغلبني فاضطجع على المصطبة لأخذ قسطًا من النوم، فما كان يعنيني لحظتها هو أن أريح جسدي، ولا أعير أهمية لكل ما كان يدور من حولي، فأطفئُ ضوء الشمس، وأوعز للصمت أن يورق بأغصانه، لأرحل بعيدًا في الزمن بعكس عقارب الساعة، إلى حيث كانت تتوق إليه الروح في تلك اللحظات بالخلود في مكان قصي منفصل عن الأرض لأن ساعات الانتظار كانت تسبب لي إرهاقا نفسيًا مع تيبس في مفاصلي، وبين فترة وأخرى كنت أترك الحديقة خلفي وأتجه إلى داخل مبنى المستشفى لأتفقدها حيث كانت ترقد على السرير داخل الصالة، لأتأكَّد من أنها في حالة جيدة، وإذا ما وجدتها مستلقية وهي تتجاذب أطراف الحديث مع المرأة التي ترقد على السرير المجاور لها، أعود أدراجي إلى الحديقة، وقد أخطو

إلى خارج مبنى المستشفى أحيانًا تحت ضغط الشعور بما كان يصيب جسدي من تقاعس، فاجتاز الشارع لأحتسي مشروبا غازيًا أو قدحًا من الشاي من كشك صغير يقع عند الجهة المقابلة لمبنى المستشفى، ثم أعود بعد نصف ساعة إلى الحديقة لأعاود القراءة، وهكذا كنت أقضي بقية الوقت إلى أن أجدها خارجة من المبنى وهي تؤشر لي أو تنادي علي، وكثيرًا ما كانت توقظني إذا ما وجدتني أغط في نوم عميق، لنعود إلى البيت بعد أن تكون أشعة الشمس قد مالت إلى المغيب.

بقينا على هذا المنوال مدة عام كامل، حتى أن حياتنا تبرمجت على هذا النظام الصارم، وما كان أمامنا أي خيارات أخرى بديلة، وبدأنا نجمع شتات أنفسنا التي تبعثرت خلال الأشهر الماضية، وحاولنا قدر ما نستطيع أن نصل إلى ما يجعلنا في حالة توازن بين ماكنا وما أصبحنا عليه، لأننا في النهاية لا بدَّ أن نمسك بخيط الحياة على قدر ما نملك في داخلنا من أمل، خاصة من جانبها هي، لأنها رغم الأوجاع التي كان من الممكن أن تكسر إرادتها إلا أنها بما كان لديها من رصيد إيماني كبير بمشيئة الله لم تفقد السيطرة على لجام إدارة شؤون حياتنا، وكأن نهر الحياة لديها لم يغير مجراه.

تشكلت لدينا معارف بالعديد من المرضى ومع من كان يرافقهم، من النساء والرجال والأطفال، وكثيرًا ما كنّا نجلس معا نرمي حمولتنا على بعضنا البعض، عندما نلتقي بعد كل واحد وعشرين يوما لتلقي الجرعة الشهرية، وكل واحد منَّا كان مطمئناً من أنَّ ما يبوح به من أوجاع سيلقى آذانا صاغية، ربما لن يجد خارج ذلك المكان من يصغي اليها، فيكشف كل واحدٍ عن تفاصيل مطمورة من حكايات مرت به، فيمضي الوقت بنا سريعًا ويفيض عن حاجتنا إليه، وأغلب من تعرفنا عليهم كانوا عربًا ومسيحيين نزحوا إلى إقليم كوردستان هربًا من العنف والإرهاب الطائفي، لذا كانت أحاديثنا في أغلبها بمثابة مشاهد يجمعها سياق واحد في شريط سينمائي طويل تتحدث عن تغريبة النزوح العراقي، وما رافق ذلك من خسارات عصفت بالمال والأولاد والممتلكات والأحلام، فكنا نفتح خزائن الذاكرة

لنـنفض الغبـار عمـا تكتمـه فـي صـناديقها مـن قصـص، وكأننـا باسـتعادتها نريـد أن نهـرب منهـا وكلمـا أوغلنـا بتفاصـيلها اتسـعت المسـافة بيننـا وبينهـا، ومـا زلـت أحـتفظ بـذاكرتي بـالكثير ممـا سـمعته مـن حكايـات، بـل حتـى نبـرة الأصـوات، ولحظـات الصـمت، وملامـح الأسـى التـي كانـت تتـأرجح فـي الهـواء وتفـتح الجروح ثانية كلما استعاد أي واحد منهم ما مرَّ به من بلايا.

مـا زلـتُ أذكـر تلـك الجلسـة التـي جمعتنـا علـى مصـطبة واحـدة فـي الفنـاء الخـارجي للمستشـفى مـع سـيدتين تـوأم مـن مسـيحي مـن الموصـل، كـان عمرهمـا قـد تجـاوز السـتين عامًـا، وتبـدو عليهمـا الأناقـة فـي المظهـر وفـي طريقـة حـديثهما، أحـداهما كانـت مـديرة مدرسـة ابتدائيـة، والثانيـة موظفـة فـي بنـك الرافـدين، وكلتاهمـا لـم يحالفهمـا الحـظ بـالزواج، فكانتـا تعيشـان لوحـدهما فـي بيتهمـا الـذي ورثتـاه عـن والـديهما فـي منطقـة "دَكَّـة بَرَكَـة" التـي تعـدُّ مـن الأحيـاء القديمـة فـي الجانـب الأيمـن (الغربـي) مـن الموصـل، ومـا زلـتُ أشـعر بسـخونة تلـك الحسـرات عنـدما كانـت تسـرد لنـا مـديرة المدرسـة اللحظـات الأخيـرة وهـي تتفقـد كـل ركـن فـي بيتهمـا، قبـل أن تغـادر مـع شـقيقتها المدينـة نهائيًـا بعـد مـرور شـهرين علـى سـيطرة تنظـيم الخلافـة عليهـا، ولمَّـا عبّـرتُ عـن اسـتغرابي مـن بقائهمـا طيلـة تلـك الفتـرة تحـت سـلطة التنظـيم، كانـت إجابتهـا بأنهمـا لـم يكـن لـديهما مثـل الكثيـر مـن سـكان المدينـة أي فكـرة واضـحة عـن الـذين دخلـوا بـين ليلـة وضـحاها وسـيطروا علـى المحافظـة بأسـرها، لأنهـم كـانوا غيـر معـروفين كأشـخاص، ولا الجهـات التـي ينتمـون إليهـا، بـل أن المعلومـات عـنهم والتـي كـان النـاس يتـداولونها فـي مـا بيـنهم كانـت متضـاربة، منهـا مـا تشـير إلـى أنهـم بعثيـون وأخـرى تؤكـد علـى أنهـم ثـوار مـن العشـائر، ومـا أبعـد عنَّـا شـبح الخـوف مـنهم فـي الأسـابيع الأربعـة الأولـى وجعلنـا نتراخـى ولـم نتحسـس الخطـر القـادم، أنهـم كـانوا بغايـة الـدهاء، إذ لـم يكشـفوا عـن حقيقـتهم عنـدما دخلـوا، بـل علـى العكـس صـدر عـنهم تجـاه النـاس جميعًـا تعـاطفٌ ورأفـة واحتـرام، بمـا فـي ذلـك نحـن المسـيحيين، فوجـد النـاس قـدرًا كبيـرًا مـن الحريـة كـانوا قـد افتقـدوها خـلال السـنين التـي أعقبـت العـام 2003 بسـبب الأسـاليب القهريـة التـي كانـت قـوات الجـيش والشـرطة تتبعهـا مـع المـواطنين سـواء فـي المـداهمات التـي عـادة مـا كانـت تـتم فـي سـاعات الفجـر الأولـى أو فـي عشـرات الحـواجز ونقـاط

السيطرات والتفتيش التي أقيمت في الشوارع الرئيسة والفرعية وعند مفترق الطرق في منتصف الأحياء السكنية، فغاب عنّا جميعا الإحساس بالأمن بدل أن يحل فينا، على سبيل المثال كنت في الأوقات الاعتيادية أصل إلى مدرستي خلال خمس دقائق، لكني وجدت نفسي لا أستطيع الوصول إليها إلا بعد ساعة من الزمن، بسبب وجود أكثر من عشرة حواجز تابعة للجيش بين الشوارع والأفرع المؤدية إلى المدرسة، وكان الناس يقفون مجبرين تحت الشمس الحارقة وأثناء البرد والمطر على شكل طوابير طويلة ليجيبوا على أسئلة لا معنى لها، الهدف منها فقط إذلالهم، وأحيانًا كانت أذناي تلتقط عبارات طائفية تصدر من بعض العناصر، وكان مشهدًا مألوفا أن تجد شخصًا يتعرض للضرب حتى لو كانت معه زوجته وأطفاله إذا ما شعرُوا بأنه ممتعض من تلك الإجراءات، فانتهى الحال إلى أن البعض بات يتمنى أن يحكمه الشيطان للخلاص مما كان عليه، لكن الذي حصل أن عناصر تنظيم الخلافة، فجأة ودون مقدمات، كشفوا عن وجههم البشع الذي نجحوا في إخفائه خلال الشهر الأول من سيطرتهم على المدينة، وانقلبت الأمور رأسًا على عقب، وبدأت جدران الكذب والتضليل الذي مارسوه في الأيام الأولى تنهار تباعًا في ممارساتهم اليومية التي بدأوا فيها في تدمير كل مظاهر الحياة المدنية، وبدأنا نستشعر الخطر يتقدم نحونا نحن المسيحيين، عندما بدأوا يسحقون المسلمين قبل غيرهم من أبناء الطوائف الأخرى، أما جرس الإنذار بالنسبة لنا فقد جاء في منتصف شهر تموز عندما استفقنا على صوت انفجار هائل ارتجت بسببه جدران بيتنا العتيق، وشعرنا ساعتها أننا سنقضي نحبنا تحت أنقاضه من بعد أن ينهار علينا، فخرجت إلى الزقاق وسمعت من الناس ما كانوا يتداولونه همسًا في ما بينهم، وعرفت منهم أن مسلحي داعش قد فجروا جامع النبي يونس.. صدِّقني لا أستطيع أن أصف لك ماذا حصل لنا ما أن سمعنا الخبر، وكأننا تلقينا صفعة قوية أيقظتنا من غفوتنا، وبدأنا نرتعش من شدة الخوف، أحسسنا بحقيقة الخطر الذي أصبح على بعد خطوة منا، فدخلنا إلى البيت وكنا في حالة ذعر لا توصف، وأغلقنا الباب خلفنا وبقينا نحدق ببعضنا والهلع يسكننا ولا نعرف ماذا نقول وكيف نتصرف، لأننا لم نكن نستوعب

ما أقدم عليه هؤلاء، لأن ما اقترفوه كان يعني بالنسبة لنا نحن المسيحيين قبل المسلمين حدثًا كارثيًا، بل أستطيع أن أقول عنه بأنه أكبر فاجعة تلقتها المدينة منذ عشرات السنين، لأن جامع النبي يونس كان جزءًا من تاريخ كل واحد من الأجيال التي عاشت في الموصل، فالمكان له علاقة بكل الموصليين وليس المسلمين وحدهم، ولهذا جاء تفجيره نقطة تحول في تفكيرنا، بعد أن وجدنا أنفسنا وكأن غشاوة سميكة قد نزعت عن أعيننا، فأبصرنا الحقيقة واضحة دون رتوش، وأدركنا أن بقاءنا يعني أننا ننتظر الساعة التي سيذبحوننا فيها، خاصة وأننا كنا لوحدنا وما من رجل في البيت قد يحمينا، إضافة إلى أننا مسيحيون، فقررنا الخروج بنفس اليوم دون تأخير، عندها طلبت من أختي أن تنادي على أم إدريس جيراننا، ولما جاءت، أخبرتها بما كنّا قد عزمنا عليه، وسلمتها مفاتيح الدار، وطلبت منها أن تكلف ابنها إدريس بأن ينقلنا بسيارته إلى ناحية كرمليس، وأتذكر أنني قبل الانفجار بنصف ساعة كنت قد تسوّقت، حيث ملأت الثلاجة بالفواكه والخضراوت إضافة إلى أنني اشتريت كيلوغرام واحد من اللحم، وبينما كنا في وسط فناء الدار نودع أم إدريس أخبرتها بأن كل ما موجود من حبوب وبقوليات وسكر وشاي في السرداب وكذلك ما موجود في الثلاجة والمجمدة من مواد غذائية حلال عليها وعلى أولادها، وقبل أن أخرج استدرت ناحيتها وحمّلتها أمانة بأن تحافظ على البيت وأن تحرص على أن تسقي النباتات والزهور، ثم غادرنا الموصل ونحن نحبس دموعنا ولم نأخذ معنا سوى ملابسنا فقط، وتركنا خلفنا كل شيء.

لم أستوعب إلى هذه اللحظة كيف يتم سحق الإنسان بطرق مختلفة تتوغل بأدق تفاصيل حياته، وكأن كل واحد منّا ليس إلا مجرد فأر صغير في حقل تجارب، تبدأ من الشارع والمدرسة ولتنتهي بكافة مفاصل الحياة، ما زلت لا أفهم لماذا الإصرار على ذلك، ولم تقنعني كل التحليلات التي قرأتها حول أسباب هذا القتل الممنهج.

20

ليست كباقي السنين

كانت سنة قميئة تمكَّنت من اعتقالنا تحت طبقات من العتمة، وكان وقعها بالغ القسوة علينا نحن الاثنين، مع أننا كنا نصارعها ولم نتدثر بأغطية الاستسلام لمنعطفاتها الحادة، وأفلحنا في أن نكسر ما كانت تخبئه لنا من أقدار ممسوسة لتدميرنا، وبقينا محتفظين بتوازننا، ولكنها لم تغادرنا إلا بعد أن زجتنا في زمن كان يتمدد من حولنا مثل سيل جارف وكاد يقتلع منا صبرنا.

لم تكن سنة عادية مثل بقية السنين التي عشناها ولربما حتى التي سنعيشها، لأنها خلفت وراءها عبئًا ثقيلًا، وبسببها اكتظت الذاكرة بخارطة متشابكة من الوجل، وستبقى تشاطرنا أيامنا وأحلامنا لفترة طويلة، حتى أن العلاقة معها باتت ملتصقة بنا مثل أسمائنا، وإذا ما حاولنا أن نغافلها في لحظة فرح، ونحن في ذروة إحساسنا بنشوة عابرة فلن نستطيع أن نتجاهل سطوتها، فقد أصبحت مهيمنة علينا ما جعلها تملك القوة لتدفعنا إلى دُهمَة ظلالها ونحن مستسلمين لها، وما كان أمامنا من خيار حتى نشيح بوجهنا عنها، وحتى لو حاولنا ذلك ونجحنا، فإن شبحها سيبقى شاخصًا بما تركته من أثر على جسدها حتى بدت كما لو أنها شبح امرأة، وكان علينا أن نستأذنها ونحن على حذر منها إذا ما شعرنا بلحظة حبور تومض لنا، أو إذا ما تقدمنا بخطوة للخروج بعيدًا عن قيود مناخاتها المكفهرة، فنحن ورغم ما أبديناه من إصرار على أن نحتفظ بنوافذنا مشرعة للأمل إلا أنه لم يعد ممكنًا أن نغفل ما تركته فينا تلك السنة من حرقة موجعة تماهت مع كل تفصيلةٍ في حياتنا.

في تلك الأيام كنتُ أرتحل حيثما يأخذني ضعفي، فأتخبط في تفكيري بسبب ما كان يدور في رأسي من أفكار كامدة، ودائمًا ما وجدت نفسي أسيرَ إحساس لم يفارقني يقول لي بأن انتكاسة صحية لربما ستقف عند خطوتها

القادمة، ومثل هذا السهد كان يتراكم عندي بشكل مضاعف.. أما من ناحيتها فعلى الرغم من أنها كانت تعيش تحت سطوة المرض والعلاج الكيمائي، إلا أنها كانت تتمتع بقدر كبير من البأس، لطالما حسدتها عليه، وتمكَّنت بما لديها من إيمان أن تندفع إلى أقصى ما يمكن أن تفعله إرادتها لتوقف سهام اليأس من إصابة عزيمتها، فكان ردها على ما ابتُلِيَت به، إنها تعاملت مع المرض باعتباره امتحانًا، ولا بدَّ لها أن تحافظ على ذاكرتها حتى لا تفقد قدرتها على التركيز، وليصبح بالتالي كل شيء في حياتها خاضعًا للرصد والمتابعة، فنظمت وقتها خلال اليوم الواحد مثل أي عسكري يقود معركة وتفرض عليه الحالة أن يكون يقظًا، فبدا نظامها الغذائي محسوبًا بدقة، ولم تتوقف عن ممارسة الرياضة في البيت، وهذا ما ساعد في أن صحتها لم تشهد انتكاسة، إلى أن انتهت من تلقي آخر جرعة، وفي ذلك اليوم أبلغها دكتور لقمان بأن تحضر بعد أسبوع إلى المستشفى لكي تجري فحصًا لدمها لمعرفة إلى أين وصلت حالتها الصحية بعد أن انتهت من رحلة العلاج الكيميائي.. ولمَّا خرجنا من المستشفى كانت تبدو غارقة في حالة من الفرح الداخلي، لم أكن بغافل عن الإحساس بها وملاحظتها في ذلك البريق الذي كانت تبحر به عيناها، حتى إنني شعرت بها كما لو أنها قد استعادت حيويتها التي فقدتها خلال الأشهر الماضية، مع أنها بنفس الوقت لم تكن قد استوعبت بعد فكرة أنها أصبحت قريبة جدًّا من لحظة عبورها إلى ضفة الأمان، وهذا ما اتضحَ لي عندما سألتني: "هل فعلًا لم أعد بحاجة إلى أن اتلقى أي جرعة ؟ ".

بعد أسبوع ظهرت نتائج فحص الدم وكلها كانت تشير إلى أن وضعها مطمئن، وليس هناك ما يبعث على القلق، فأبلغها دكتور لقمان بأنها ستأخذ فترة راحة لمدة شهر ومن بعدها ستبدأ مرحلة العلاج بالليزر، وما أن سمعت كلامه حتى ارتسمت على وجهها علامات الشعور بخيبة الأمل، لأنها كانت تعتقد بأنها قد انتهت نهائيًا من العلاج، بينما عكست الملامح الهادئة للدكتور لقمان بعد أن استوعب ردة فعلها بأنه كان يتوقع أن تبدو مغتمة، ولأجل أن يخرجها من تلك الحالة التي سقطت فيها أردف قائلًا: "هل تدركين أهمية ما أنجزناه عندما تمكنّا خلال المرحلة الماضية من

السيطرة على المرض وإيقاف تمدده والقضاء عليه، ولكن عليك أن تعلمي أيضًا بأنه بغاية الخبث، ويحتاج إلى حذر دائم، والتزام دقيق بمواصلة مراحل العلاج، وبذلك سوف نمنع عنه أي فرصة لكي يعاود مرة ثانية، فأنتِ أمامك الآن إحدى وعشرون جلسة علاج بالليزر، حيث ستخضعين لجلسة واحدة في كل أسبوع".

في مثل حالتها يتحول الماضي في بعض الأحيان إلى أشباح تحوم حول الإنسان، وتفسد عليه ما يشعر به من رضا وانسجام مع نفسه ومع ما يحيطه، وكم يحتاج إلى قوة تشبه فعل الرصاصة حتى يطلقها عليه وينتهي منه، فبعد أن أنهت الجرعات، واستعادت صحتها مثلما استعادت شعر رأسها الذي نبت مرة أخرى وباتت تقف يوميًا أمام المرآة لتسريحه، كانت تظن بأنها لم تعد تحتاج إلى المزيد من شحنات الأمل حتى تدشن أيامها القادمة، لكن كلام الدكتور أعادها مرة أخرى إلى الركون في دائرة الحذر تحت ضغط ما ستفتحه أشعة الليزر من نوافذ مفتوحة على الترقب بعد أن تخترق جسدها في نفس موضع العملية الجراحية من خلال ثلاثة فتحات، كان طيفا من التوجس يغلفُ وجهها، كما لو أنها بدأت تشعر بأن الوقت لم يحن بعد للاحتفال بالانتصار.

"وبعد أن انتهي من الليزر هل هناك ما ينتظرني أيضًا؟"، كان باديًا عليها أثناء ما طرحت سؤالها أنها لم تعد تشعر بالاطمئنان، ولهذا كانت كمن يدور حول نفسهِ باحثًا عن أمل حتى لو كان ضعيفًا.

"إذا ما انتهينا من الليزر، عندها سأكتب لكِ حبوب تاماكسوفين، حيث يتوجب عليك أن تتناولي حبة واحدة كل يوم، ولمدة خمسة أعوام" .

لم يكن أمامها أي فرصة لتأويل إجابة الدكتور بعيدًا عما كانت تحمله من وضوح ودقة.

لاحظتُ بأنها كانت تتهيأ لأن تطرح سؤالًا آخر قبل أن يتابع دكتور لقمان كلامه قائلًا: "المشكلة التي أمامنا الآن، هي أن جهاز الليزر الوحيد في مستشفى رزكاري عاطل عن العمل، ودائمًا ما يتعرض إلى عطلات بين

فترة وأخرى، وهذا ما يتسبب في تكدس أعداد من المرضى على قائمة المنتظرين في جدول مواعيد العلاج، وخلال أيام سيصل خبراء ألمان لإصلاح الجهاز، ولهذا يتوجب عليكِ أن تسجلي اسمك يوم غد في سجل المرضى الذين ينتظرون دورهم، أيضًا عليكما إيجاد بديل في مكان آخر، فهناك جهاز موجود في محافظة السليمانية وآخر في بغداد، لكن لا بدَّ أن تعلمَا بأن قائمة المرضى الذين ينتظرون دورهم طويلة جدًّا، ولهذا لا بدَّ من أن تسجلي اسمك بأسرع وقت حتى لا تتأخري عن موعد العلاج، لأن التأخير فيه ضرر كبير على صحتك ".

كانت الأيام تمضي بسرعة، ولم يكن ذلك لصالحنا بعد أن راجعنا مستشفى رزكاري مرتين وتأكدنا من أن جهاز الليزر ما يزال عاطلًا، ودائمًا ما كنا نتذكر تعليمات دكتور لقمان بضرورة أن تبدأ مرحلة العلاج في موعدها، وأمام هذه المشكلة اتصلتُ بأصدقاء يقيمون في السليمانية، وأكدوا لي بأنهم إذا سجلوا اسمها فإن موعدها سيكون بعد ثلاثة أشهر، وبذلك شطبنا على خيار السليمانية، ونفس الإجابة أيضًا جاءتنا من بغداد.. وهذا ما فرض علي أن أجري اتصالات عديدة مع صديقي الفلسطيني المقيم في الأردن المخرج المسرحي عصام سميح لأجل أن يحجز لنا موعدًا في مستشفى الحسين لعلاج الأمراض السرطانية في العاصمة الأردنية عمان، وبدأ فعلًا في الاتصال بالمستشفى وحاول معرفة كافة التفاصيل المتعلقة بالحجز والتكاليف، وقبل أن ينتهي شهر الاستراحة بأسبوع وصَلنا خبر تصليح الجهاز في مستشفى رزكاري في أربيل، وعلى أثر سماعنا للخبر شعرنا براحة كبيرة لأنه رفع عنا عبء السفر إلى أماكن بعيدة، خاصة وأن صحتها لا تسمح بذلك، هذا إضافة إلى أنه وفر علينا مبالغ كبيرة كان من الوارد أن تثقل كاهلنا، وما هي إلا أيام معدودة حتى بدأت تتلقى العلاج بالليزر لمدة واحد وعشرين أسبوعًا وبمعدل جلسة واحدة في الأسبوع.

كان موعد وصولنا إلى المستشفى يبدأ عند الساعة الثانية بعد الظهر وهو وقت مبكر جدًّا، لكننا كنا نضطر إلى ذلك لأجل أن تحظى بتسجيل اسمها في أول القائمة حتى يتاح لها بالتالي فرصة تلقي العلاج بوقت مبكر، لأن

عدد النساء اللواتي كن ينتظرن دورهن يتجاوز الثلاثين امرأة يوميًا، وكل واحدة منهن عندما تدخل إلى غرفة الليزر المحكمة الأبواب كانت تستغرق وقتًا يصل إلى أكثر من نصف ساعة، وهذا ما كان يؤخرنا بالعودة إلى البيت في كثير من الأحيان إلى حدود الساعة الثامنة مساءً، وأمام ذلك الوقت الطويل الذي كنا نقضيه في صالة الانتظار والذي يصل إلى حدود السبع ساعات كان من المنطقي أن تلجأ النساء إلى تبادل الأحاديث في ما بينهن، ولم يكن غريبًا أن نلتقي بنازحات من المدن التي تعرضت للاحتلال من قبل سلطة تنظيم الخلافة مثل الأنبار والموصل وتكريت والحويجة، إحداهن معلمة من مدينة الفلوجة، كانت ترافق شقيقتها الصغرى المصابة بسرطان القولون إضافة أنها كانت مصابة بمتلازمة داون أو البلاهة المنغولية وكانت في العاشرة من عمرها.. تلك المعلمة التي لم تبلغ الثلاثين من عمرها ما زالت قصتها التي حكتها لزوجتي عالقة في ذاكرتي، أولًا لأنها كانت تتمتع بجمال لافت للنظر وشخصية قوية يكشف عنها أسلوبها الذي سردت به قصتها، وثانيًا لأنها رفضت كل عروض الزواج التي جاءتها، بعد أن قررت تكريس حياتها لرعاية شقيقتها، لأنها لم تتحمل فكرة أن تتزوج وتتركها وحيدة مع والدتها الكبيرة في السن، خاصة وأن صحتها قد تدهورت منذ أن فقدت ثلاثة من أبنائها عند نقطة سيطرة تابعة لإحدى الميليشيات المذهبية المدعومة من إيران، فبعد أن نجحت بالخروج سالمة مع بناتها وأولادها من مدينة الفلوجة أثناء ما كان الجيش العراقي يحاصرها لتحريرها من سلطة تنظيم الخلافة، طلب عناصر النقطة بأن تصعد النساء إلى حافلة كانت تقف عند ناصية الشارع ليتم نقلهم إلى المخيم المعد لاستقبال النازحين، أما الشباب فقد تم اقتيادهم على شكل طابور طويل إلى أرض خلاء، بعيدًا عن النقطة، بحجة التأكد من عدم وجود أسمائهم ضمن قائمة المشتبه بانتمائهم إلى تنظيم الخلافة، وأخبروا أهاليهم بأن من كان موقفه سليمًا سيلتحق بعائلته في المخيم بعد أن ينتهي التحقيق معه الذي قد يستمر يومين أو ثلاثة أيام، ومنذ ذلك اليوم لم ترَ المعلمة أشقاءها الثلاثة لأنهم لم يرجعوا إلى المخيم، واختفت أخبارهم مع مئات الرجال مثلهم، وعجزَ أهاليهم عن معرفة مصيرهم، ولهذا اتخذت المعلمة قرارها بشطب

فكـرة الـزواج نهائيًـا، وانشـغلت برعايـة والـدتها، وازدادت إصـرارًا علـى موقفها بعد أن نال السرطان من شقيقتها.

أنـا وهـي كنـا نتحسـس أنفسـنا طيلـة عـام كامـل، لنتأكـد مـن أننـا مـا زلنـا نحـتفظ بوجودنا الأدمـي مثـل بقيـة البشـر الـذين عـادة مـا كنـا نلحـظ السـعادة فـي وجـوههم مـن خـلال نافـذة السـيارة وهـم يمارسـون حيـاتهم الاعتياديـة، أثنـاء ذهابنـا وإيابنـا إلـى المستشـفى، خاصـة وأن رحلـة العـلاج كانـت سلسـلة متواصـلة مـن الفـزع، وكنـا نترقـب فيهـا مـا ستسـفر عنـه مـن تـداعيات، فكـان أمـرًا طبيعيًـا أن نسـتحيل إلـى أشـلاء متنـاثرة طيلـة فتـرة الانتظـار ونحـن نتقلَّـب بأفكارنـا هنـا وهنـاك، فـي محاولـة منّـا لاسـتبعاد الكـوابيس التـي باتـت تـلازم ظلمـة لياليـنا، وجُـلَّ مـا كنـا نحـرص عليـه أن نحـتفظ بمـا تبقـى لـدينا مـن إيمـان يربطنـا مـع العـالم، وينـأى بنـا بعيـدًا عـن السـقوط فـي هـوة أفكـار قـد تأخـذنا إلـى ناحيـة الحسـد والغيـرة مـن الآخرين لأنهم يعيشون حياتهم الطبيعية بصحة وسعادة.

21

ليس هذيانا

لـدينا أسـباب عديـدة تـدفعنا لأن نتمسـك بالحيـاة، حتـى وإن كـان الأمـل ضـعيفًا فـي امتلاكنـا مثـل هـذه الفرصـة، فهنـاك الكثيـر ممـا يشـدنا إليهـا وبقـوة، ومـن الصـعب أن نتحمـل فكـرة أفولنـا عنهـا، ربمـا بعـض أسـبابنا تبـدو خرقـاء مـن وجهـة نظـر آخـرين، وقـد تثيـر السـخرية لـديهم، ولا تسـتحق أن تكـون مسـوغًا لاسـتمرار تمسـكنا بهـا، ولكـن بالنسـبة لـي شخصـيًا هـذا لا يعنينـي مطلقًـا، ولـدي الاسـتعداد بـأن أدفـع فـاتورة حسـابي كاملـة لمـا تبقـى مـن عمـري مهمـا كـان الـثمن، طالمـا كنـت مقتنعًـا بمـا لـدي مـن دوافـع حتـى لـو كـان طعمهـا مُـرًّا مثـل العلقـم، لأننـا نـادرًا مـا نعثـر علـى الشـعور الحقيقـي بالقناعـة، فأنـا أعـرف الكثيـر مـن الأشـخاص كـانوا نـاجحين فـي العمـل، ولـديهم أولاد وأمـوال ووضـعهم المعيشـي بأفضـل مـا يكـون، لكـن حسـرة فـي أعمـاقهم كانـت تـداهمهم مـا أن يختلوا بأنفسهم، كمـا لـو أنهـا هـوّة عميقـة يمـوت فيهـا كـل مـا يبعـث علـى السـعادة فـي حيـاتهم، لأنهـم ورغـم كـل النجاحـات التـي حققوهـا لـم يصـلوا إلـى الشـعور الحقيقـي بالقناعـة، بالتـالي لـم يتـذوقوا معنـى السـعادة، حتـى وإن كـان الحـزن لا يظهـر علـيهم، فلمـاذا لا أتـوق إلـى يـوم جديـد تشـرق فيـه الشـمس علـى وجـودي إذا كنت أشعر باكتمال حقيقتي كإنسان مع من أتشارك معها رحلة عمري؟.

أظـن أن مـن سـيقرأ هـذا الكـلام سـيعتبر ذلـك مثاليـة مفرطـة.. ولكـن هـل ذلـك يعنينـي؟ كـلا . . لسـت معنيًـا إذا مـا كـان الآخـرون يجـدون فـي المنطـق الـذي أتحـدث بـه أشـبه بالهـذيان، ولا صـلة تجمعـه مـع الواقـع، فمـا يهمنـي أننـي أعبِّـر عـن قنـاعتي، ومـا زلـت مؤمنًـا بـأن الحـب لـه صـور مختلفـة ولـيس صـورة واحـدة، ولكـل واحـد منَّـا ذاكرتـه الخاصـة التـي يحـتفظ فيهـا بصـور الحـب التـي مربها واكتشف معانيها في حياته.

بعـد مضـي عـام علـى انتهائهـا مـن العـلاج بأشـعة الليـزر بـدأت تتقاسـم اللهفـة مـع الحيـاة فـي كـل دقيقـة كانـت تمـر عليهـا، وكنـت أشـعر بهـا وهـي تحـاول بكـل مـا

لـديها مـن طاقـة إيجابيـة أن تعيـد ضـبط إيقـاع حكايتنـا نحـن الثلاثـة، لتنسـجم مـع سـطوع ابتسـامتها التـي أخـذت تسـتعيد إشـراقتها، فكانـت تحتـاج دائمًـا إلـى أن تؤكد لنـا بأنهـا استعادت عافيتهـا، لكـي نقلـل مـن شـدة خوفنـا عليهـا، وبـدأت ترفـع عنـا شـيئا فشـيئا الواجبـات المنزليـة التـي آثرنـا أن نتحملهـا بـدلًا عنهـا طيلـة العـام الـذي مضـى، وأيقنـتُ مـن أن انغمارهـا فـي تلـك الواجبـات قـد جعلهـا تسـتعيد ذاتهـا وتتـذوق طعـم الانتصـار علـى مرضـها، حتـى بـدأتُ أشـعر وكـأن مـا أصـابها أشـبه بعـارض صـحي لا أكثـر ولـيس مرضًـا خطيـرًا، وعلـى الـرغم مـن أننـي كنـت أتحمـل مسـؤولية شـراء كـل مـا يحتاجـه البيـت مـن مـواد غذائيـة إلا أنهـا طلبـت منـي أن تسـتعيد هـذا الـدور وتتكفـل هـي يوميًـا بالتسـوق صـباح كـل يـوم مـن السـوبر الماركـت القريـب إلـى بيتنـا، ونـزولًا عنـد رغبتهـا تركـتُ لهـا ذلك.

لـم أتوقـع أن يكـون لإدارة شـؤون المنـزل ذلـك التـأثير السـاحر علـى صـحتها، حتـى إننـي شـعرت بعـودة الـدفء مُخيِّمًـا علـى كـل لحظـة فـي طقوسـنا اليوميـة، ولكننـا سـنبقى جميعًـا نحـن بنـي البشـر متـأرجحين فـي الفـراغ، ولا نعلـم متـى وأيـن سنسـقط، طالمـا كـان القـدر يمسـك بيـده المفـاتيح، وفـي كثيـر مـن الأحيـان يشـاء أن يفـتح أو يغلـق مـا يحلـو لـه مـن الأبـواب، ومـا علينـا إلا أن نرضـخ، ثـم نمضـي ونحـن نـئنُّ مـن أعبـاء مزاجـه وعبثـه بنـا، وهـذا مـا نالهـا منـه، لأنهـا لـم تهنـأ سـوى أيـام معـدودة حتـى قـذف بهـا فـي تجربـة أخـرى، إذ وقـع لهـا حـادث خـارج البيـت، وكـاد أن يجعلهـا معاقـة بقيـة حياتهـا، فبينمـا كانـت تجتـاز الشـارع وفـي نيتهـا دخـول السـوبر ماركـت فـإذا بسـيارة تصـدمها أثنـاء مـا كـان سـائقها الشـاب يرجـع بهـا إلـى الخلـف لكـي يركنهـا إلـى جانـب الرصـيف، فسـقطت علـى أرضـية الشـارع وهـي تتـأوه مـن ألـم شـديد فـي قـدمها اليمنـى، ولمَّـا حاولـتِ النهـوض لـم تسـتطع الاسـتناد عليهـا، فأيقنـت مـن أن كسـرًا قـد أصـابها.. فـي تلـك السـاعة كنـت فـي مبنـى القنـاة الفضـائية أحـاول أن أنهـي عملـي فـي غرفـة المونتـاج حتـى لا أتـأخر عـن موعـدي فـي مقهـى مجكـو الواقـع تحـت قلعـة أربيـل مـع الـدكتور وليـد كاصـد الزيـدي الـذي تربطنـي بـه صـداقة قديمـة تعـود إلـى أيـام دراسـتنا فـي إعداديـة عمـر بـن الخطـاب فـي الموصـل، ومنـذ أن تخرجنـا ذهـب كـل واحـد منّـا فـي طريقـه، فعـادَ مـع أهلـه إلـى بغـداد حيـث مسـقط رأسـهم هنـاك،

ولم نلتق من بعدها، لكن الفيس بوك جمعنا مرة أخرى، وصادف أن كان في زيارة إلى أربيل فاتصل بي عبر الهاتف في اليوم الذي سبق الحادث، مبديًا رغبته في أن نلتقي.. أظنني كنت قد أوشكت على الانتهاء من عملي في غرفة المونتاج، وفي حينه نظرت إلى ساعتي خشية أن يكون الوقت قد أدركني، وكانت الساعة تشير إلى الواحدة من بعد الظهر، وهذا يعني إذا ما غادرت في تلك اللحظة سأصل المقهى في الوقت المحدد، فأنا لا أحتمل فكرة أن أصل متأخرًا عن الموعد، وأعترف بأن طبيعتي هذه دائما ما كانت مدعاة لانتقادات مستمرة من قبل زوجتي وابني، لأنني عادة ما أكون قلقًا ومستثارًا، وكأنني أتهيأ للدخول إلى قاعة الامتحان، فكانَا يعيبان عليَّ ذلك، حتى إن ابني في إحدى المرات تقدَّم مني وأمسكني من كتفيَّ وهو يضحك، ثم قرَّب وجهه من وجهي إلى أن لامسَ أنفه أنفي وهو يقول لي: "بابا...اهدأ.. اهدأ.. اهدأ.. ليست كل المواعيد مقدسة، وحتى لو تأخرت خمس أو عشر دقائق، ماذا سيحصل في هذا الكون ؟... اهدأ أرجوك".

جمعت حاجياتي الشخصية مِن تلفون إلى سماعة الهاتف الخارجية ودفتر الملاحظات ووضعتها في حقيبة اليد الجلدية الصغيرة التي لم تكن تفارقني، وبينما كنت أحاول أن أتأكد من أنني قد أطفأت حاسبة المونتاج، فإذا بي أتلقى اتصالًا هاتفيًا، وكنت أتوقع أن صديقي دكتور وليد هو المتصل، لكني وجدت اسمها ظاهرًا على شاشة الهاتف، وما أن فتحتُ الجهاز حتى جاءني صوتُ من يستغيث بي عبر الطرف الآخر من الهاتف، ولم أكن متأكدًا من أنه صوتها، وظننت أن ابني محمد هو الذي كان يصرخ متألما ويرجوني بأن أحضر فورًا لأن سيارة قد صدَمَته.

"ماذا!؟"

للوهلة الأولى لم أستوعب ما سمعت، وأظن أن عقلي كان رافضًا تصديق ما التقطتُه أذناي، فبدأ ذهني مشوشًا، وعلى الرغم من أنني شعرت وكأن الأرض باتت رخوة تحت قدمي، وأن مصيبة قد وقعت، إلا أنني ما زلت عاجزًا عن تمييز هوية صاحب الصوت، وفي خضم تلك الحالة التي كنت عليها من الارتباك والانفعال سألت: "هل أنت محمد ؟" آنذاك جاءني ردها

بأنها هي التي صدمتها السيارة أمام السوبر ماركت القريب من بيتنا، وشعرتُ من خلال نشيجها إلى أي مدى كانت تتألم، وسرعان ما أخذ جسمي كله يرتجف ولم أعد قادرًا على أن أتمالك نفسي، وعجز لساني عن الكلام، لأنني تخيلتها مطروحة الأرض وهي تصرخ والناس يحيطون بها، وبدوت مذعورًا مثل من يصحو على وقع صرخة قوية بعد أن اخترقت سمعه، في تلك الأثناء أحاطني أغلب العاملين في قسم المونتاج بعد أن سمعوا صوتي لأنه كان مرتفعًا أثناء ما كنت أتحدث معها دون شعور مني، ولم أستطع الردَّ على أسئلتهم المتلاحقة التي كانت تستفسر عما أصابني، وبصعوبة بالغة أجبتهم بينما كنت أركض مندفعًا إلى خارج مبنى القناة.

أذكر أنني فقدتُ القدرة على فهم ما كان يدور من حولي لشدة ماكنت مرتبكًا، حتى أنني عندما وصلت إلى مكان الحادث ووجدتها راقدة على المقعد الخلفي في السيارة التي صدمتها وهي تبكي، صرخت بوجه السائق الذي تسبب بالحادث وأمرته بأن ينطلق مسرعًا إلى مستشفى الطوارئ، ولأنني ساعتها لم أفكر إلا بإيصالها بأسرع ما يمكن إلى المستشفى لم أنشغل بفكرة الهجوم عليه والانتقام منه، بل أنني لم أكن أرى أي شيء أمامي سواها، ولم أكن أسمع إلا صوتها وهي تتوسل بي أن أساعدها لإيقاف ما كانت تشعر به من ألم.. وما أن انطلق السائق بسيارته التفت ناحيتي وسألني عن اتجاه الطريق المؤدي إلى المستشفى، وكانت المفاجأة أنني لم أعد أذكر أي اتجاه ينبغي أن نسلك، مع أنني دائما ما أمر من أمام المستشفى كلما ذهبت إلى السوق الرئيس في وسط مدينة أربيل، وبقينا ندور تائهين بين الشوارع الفرعية ولم نفلح في الوصول إلى الطريق المؤدي إليها إلا بعد أن طلبتُ منه أن يوقف السيارة لأسأل أحد الأشخاص .

أظهرت صورة الأشعة أنها كانت مصابة بثلاثة كسور في قدمها اليمنى، ولم يكن ممكنًا إجراء عملية جراحية لها طالما مكان الإصابة ما يزال متورمًا، وكان رأي الطبيب أن ننتظر فترة لا تقل عن أسبوع، أي إلى ما بعد عيد الأضحى حتى يخف الورم ومن بعدها يمكن إجراء العملية، ولهذا تم تجبيرها بمادة الجبس، ومن ناحيتي كان من الصعب علي أن أواجه

الموقف لوحدي فاضطررت إلى أن أتصل بأهلها، لأنه أصبح بإمكانهم المجيء إلى أربيل طالما الموصل قد تحررت من سلطة تنظيم الخلافة قبل ما يزيد عن الشهرين، وبات الطريق سالكًا ما بين المدينتين بعد أن كان مغلقًا لمدة ثلاثة أعوام، وما هي إلا ساعتان من الزمن حتى كان معنا في المستشفى ثلاثة من أشقائها واثنتان من شقيقاتها.

لم أحتمل فكرة بقائها لمدة أسبوع على تلك الحالة لأنني وجدتها ما زالت تتألم بعد مرور يومين على الحادث، فاتخذت قرارًا حاسمًا بإجراء العملية في مستشفى بار الأهلي، دون أن أعير أهمية لارتفاع تكاليفها التي وصلت إلى حدود 3000 دولار، لأن الطبيب الجراح لجأ إلى زرع أعمدة تثبيت داخلية من مادة التيتانيوم تبدأ من قدمها وحتى منتصف الساق، لأجل أن تكون العظام في الوضع الصحيح أثناء عملية الشفاء.

بقيَت لمدة ستة أشهر لا تستطيع السير على قدمها دون أن تستند على العكازات، حتى أنني كنت أضعها على كرسي خاص بالمعاقين وأذهب بها إلى عيادة دكتور لقمان حسب المواعيد المثبتة في ملفها، لأن مريض السرطان يجب أن يبقى تحت المراقبة الدورية طيلة حياته من قبل طبيبه الخاص.

لامني الكثير من الأصدقاء والمعارف، لأنني لم أشتك على السائق خاصة بعد أن أثبت نذالته، عندما اختفى عن الأنظار بعد أن اطمأن من أن إفادتي التي أدليت بها أمام ضابط مركز الشرطة في المستشفى لم أحمله فيها مسؤولية التسبب بالحادث، وادعيت بأنها قد سقطت متدحرجة على الدرج في البيت، ولم يكن موقفي منه على تلك الصورة إلا لأنني لم أستطع أن أمنع نفسي من التعاطف معه بعد أن تأكدتُ من أن زواجهُ لم يمضِ عليه سوى يومين، وقد حل ضيفًا على بيت خالته في أربيل قادمًا من كركوك ليقضي شهر العسل مع زوجته، وفي حقيقة الأمر لم يكن يعنيني في تلك الساعة أي شيء سوى أن تنجو من الإعاقة، وتعود سالمة لتقف على قدميها، ولهذا كنت مستعدًا أن أسامح حتى الشيطان.

رغم التجارب التي عشتها والكتب التي قرأتها أجد نفسي وبكل سهولة أقع أحيانًا فريسة مكر الآخرين، فأنا لا أملك ما يكفي من أساليب الخداع التي عادة ما تتوفر لدى غالبية البشر بالقدر الذي تعينهم على مواجهة ما يحاك ضدهم من دسائس ويصد عنهم المكائد، وهذا أمر طبيعي جدًّا، وفي هذا الموضع لا أعرف كيف أجد توصيفًا دقيقًا لحالتي، هل أنا ساذج؟ أم شخص مستقيم؟ أم رجل يتصف بالأمانة؟ أم ناقص خبرة؟ أم أنني أعاني من جهالة؟، لا أعلم .. ربما يصعب علي أن أجد كلمة مناسبة لتشخيص ما أقصده، لأنني أحمل كل هذه الخصائص في طبيعتي، ولكن ما أستطيع أن أؤكده، أنني أحمل من القيم المثالية ما يجعلني أبعد من أن أكون إنسانًا واقعيًا، ولست حذرًا بما يكفي حتى أتفادى حبائل الآخرين، وعلى ما يبدو فإن هذه السمة لا تحتاج إلى حذلقة حتى يكتشفها أغلب من تعامل معي، وعلى العكس منهم فأنا لم أكتشفها إلا في وقت متأخر، وهذا خلل كبير في تفكيري قطع علي الطريق الصحيح في كيفية التعامل مع الناس والحياة، لأننا لسنا في زمن الفرسان، إنما في عصر تحول فيه البشر إلى تماسيح.

بعد شهرين من الآن ستنتهي سنة 2020، وبنهايتها ستكتمل السنوات الخمس من مراحل علاجها التي كانت تتناول فيها يوميًا حبة تاماكسوفين، دون أن تتهاون أبدًا في الالتزام بمواعيد الأدوية والعلاجات، وظلت تستندُ على جدار من الأمل للخروج سالمة من هذه التجربة، ودائمًا ما كان لديها اعتقاد راسخ بأن الشفاء لن يتحقق عبر الأدوية وحدها إذا لم يكن الإنسان يحمل في داخله إيمانًا راسخًا بأن الله وحده يملك هذه المقدرة، وكتَبَت بقوَّة إيمانها حكايتها مع قساوة هذه التجربة التي استطاعت أن تجتازها، وبذلك تكون قد اكملت الشطر الأكبر والأهم من دورة علاجها مع كل ما أحاطها من أطياف معتمة في مراحل معينة من مرضها وكادت أن تدفعها إلى أعماق سحيقة من اليأس، وعلى الرغم من الآثار التي تركها المرض على جسدها، إلا أنها تمكنت من أن تواجه ضعفها بإرادة قوية أحسدها عليها، ويومًا بعد آخر بدأت تستعيد زمام حياتها الطبيعية، مع أن رحلتها مع بقية مراحل العلاج لم تنته بعد، حسب ما قال لها دكتور لقمان في آخر مرة التقينا به عندما راجعناه في عيادته قبل ثلاثة أشهر، حيث أكد لنا بأن

الأدويــة ســترافقها طيلــة حياتهــا، لكنهــا ســتتغير بــين فتــرة وأخــرى حســب مــا تقتضــيه حالتهــا، وســتبقى تخضــع للفحــص الــدوري علــى الأقــل كــل ســتة أشــهر للتأكد من سلامة وضعها الصحي.

ورغـم أننـي لـم أفقـد فـي أي لحظـة مـا كنـت أحملـه بـداخلي مـن إصـرار علـى أن أقـف معهـا إلـى أن تتـوهج الحيـاة فـي عروقهـا مـن جديـد، إلا أننـي شـعرت كما لو أنني تقدمتُ في السن عشرين عامًا خلال هذه التجربة.

*انتهيت من كتابة هذه الاوراق،في الخامس من شهر آب(اغسطس) 2020

مدَّت يدها وأطفأت جهاز اللابتوب.. اعتدلت بجلستها، ثم سَحَبَتْ نَفسًا عميقًا بينما كانت تنظر إلى الساعة الجدارية المعلقة على الحائط، عندئذ علت وجهها علامات الدهشة بعد أن لاحظت أن الوقت يشير إلى الخامسة والنصف صباحًا، في تلك اللحظة انتبهت إلى أنها استغرقت ما يزيد عن اثنتي عشرة ساعة في قراءة الملف من غير أن تشعر باستدراج الوقت لها، فإذا بالتعب يداهمها فجأة، كما لو أن جسدها تلقَّى إيعازًا بذلك، اتكأت بظهرها إلى المسند الخلفي للكرسي وأرخَت يديها، في محاولة منها للاسترخاء، ودون أن تعي بما حولها أخذت تنظر صوب نقطة بعيدة، أخذتها إلى فراغ شاسع لا حدودَ له، سارحةً بذهنها تحت سحابة من الأمنيات المستحيلة التي كانت تترجى فيها أن يعود ولو ثانية واحدة، إلا أن حسرة قوية اعتصرت قلبها، مثل شوكة انغرست تحت ظفرها، عندما أيقنت من أنها وعلى الرغم من ثقتها بإخلاصه ووفائه لها طيلة حياتهما معًا، إلا أنها لم تستوعب بما يكفي، ما كان يحمله لها من حب تفاجأت به، لمَّا قرأت أوراق الملف.

انتهت